الندوة العلمية

لإحياء تراث ابن ماجد

الجزء الثاني

الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد

الجزء الثاني

★ الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد

9 - 12 يناير ـ كانون الثاني 1989

الجزء الثاني

★ الطبعة الأولى 1991

★ الناشر : اتحاد كتاب وأدباء الإمارات

دار الحوار للنشر والتوزيع ـ سورية

اللاذقية ـ ص. ب. 1018ـ هاتف 22339

★ المطبعة : ألف باء ـ الأديب ـ دمشق

التصميم الداخلي والغلاف : القسم الفني في دار الحوار

يضم هذا الجزء دراسات كل من :

- الدكتور إيغور تيموفيف
- الدكتور حسام الخادم
- الدكتور أنور محمد عبد العليم
- الدكتور طارق نافع الحمداني
- الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي
- حسن صالح شهاب
- أحمد جلال التدمري

المقـدّمة

هذا هو الجزء الثاني من أبحاث ندوة إحياء تراث ابن ماجد نضعه بين يدي القارئ، وهذا الجزء من الدراسة هو المتمم لدراسات الجزء الأول، فقد حاولنا أن يكون الجزء الأول مخصصاً عن الملاحة عند أحمد بن ماجد، في حين حاولنا أن يشمل الجزء الثاني الدراسات المتعلقة بالمستشرقين ورحلاتهم في أفريقيا، وبذلك نكون قد أكملنا نشر أبحاث هذه الندوة بالرغم من أننا لازلنا نؤكد على ضرورة استمرار البحث والدراسة والكشف عن مكنونات العلامة العربي الفلكي شهاب الدين أحمد ابن ماجد، مؤكدين أن تراثه لازال موزعاً بين دول وأقطار أجنبية، وأن هذا التراث لابد أن يجمع وأن يصل في النهاية إلى مسقط راسه، وفي هذا الاتجاه نجد أن اتحاد كتاب وأدباء الإمارات وهو يخطو الخطوة الأولى ليس هو المعني الوحيد في الساحة المحلية أو العربية في البحث والتقصي عن ابن ماجد وتراثه، وأن الأمر ليتطلب إلى تضافر جهود المؤسسات الثقافية المعنية والباحثين المتخصصين، لتشكيل فرق عمل قادرة على تحقيق جزء من الحلم في جمع تراث البحار الفلكي العربي أسد البحار شهاب الدين أحمد بن ماجد، ولازال اتحاد كتاب وأدباء الإمارات يؤكد صدق نواياه واهتمامه للتعاون مع كافة المؤسسات والباحثين من أجل الوصول إلى الهدف الأساسي في إحياء تراث هذا العالم الجليل .

اتحاد كتاب وأدباء الإمارات

ابن ماجد
في أعمال المستشرقين السوفيات

الدكتور : إيغور تيموفيف

سيداتي ، آنساتي ، سادتي

أيها الزملاء المحترمون

يقول الشاعر العربي العظيم أبو الطيب المتنبي :

« إذا أنت أكرمت الكـريم مـلكتـه

وإن أنت أكرمت اللئـيم تمـردا »

ولئن كنت، خجلاً وتواضعاً، أدفع عن نفسي صنعة الكرم، فلا يضير أن أعلن أمامكم أنني لن أكون من المتمردين .

* ثمة مثل روسي مؤداه : « أن ترى بعينك مرة، خير من أن تسمع ألف مرة »

وها أننا نرى بأم العين معنى الكرم العربي ونلمسه، من خلال تلك الأيام القلائل التي نمضيها بين ظهرانيكم . فلكم سلفاً ألف شكر، ولعل سانحة قريبة توفر لنا فرصة لنزد على حسن ضيافتكم بأن نفتح لكم في موسكو قلوبنا لتحلوا فيها أهلاً وتنزلوا سهلاً .

لا أعتقد أن الصدف هي التي جعلت هذا المحفل الهام ينعقد في دولة الإمارات العربية المتحدة . فهذا البلد يشهد تقدماً حضارياً مذهلاً على صعيد الاقتصاد والتكنولوجيا، ترافقه نقلة هامة على طريق الازدهار الثقافي، وفي حقل العلوم الاجتماعية بوجه خاص حيث تفرد مكانة متميزة للتاريخ الذي هو تكثيف لطموح الإنسان لسبر أغوار نفسه والمجتمع الذي فيه يحيا .

وأود أن أستميحكم المعذرة، فأنا بين هذه الكوكبة اللامعة من الباحثين والمستعربين لاأعد نفسي عالماً وباحثاً بالمعنى الدقيق للكلمة، بل أنسب نفسي إلى رعيل الكتاب الذين تنحصر مهمتهم الرئيسية في جعل جماهير القراء على بينة من المنجزات الفذة التي حققتها الحضارة العربية الإسلامية أي أنني بمثابة وسيط ينقل إلى الناس خلاصة ما توصل إليه الجهابذة من العلماء . بيد أن العلوم، وخاصة

الإنسانية منها، تغدو عقيمة جوفاء إن لم تصبح أهم اكتشافاتها في متناول القراء .

وأود فيما يلي إطلاعكم على دراسات المستعربين الروس والسوفييت المكرسة لأحمد بن ماجد، خاصة وأن أبناء جلدتي بلغوا في هذا الميدان شأواً لايستهان به .

ما إن يرد ذكر الحضارة العربية حتى تتوارد على خاطر الكثيرين من الناس، خارج العالم العربي، صورة خاطئة ترتبط بالصحراء والبداوة . ويتحمل الوزر الأكبر، ذلك علم الاستعراب الأوربي الذي لم يول الاهتمام اللازم لدراسة روابط العرب، في العصور القديمة والوسيطة بالبحر، ولدورهم الفذ في تطوير الملاحة . ولم تشذ روسيا عن هذه القاعدة، رغم أنها كانت على امتداد تاريخها كله ترتبط بالإسلام وما تمخض عنه من حضارة عظيمة، ارتباطاً أقوى وأشد من الغرب الأوربي .

وفي القرن التاسع عشر حققت الدراسات العربية والإسلامية في روسيا نجاحاً باهراً وترجم إلى الروسية العديد من المخطوطات العربية، وبوحي من القرآن الكريم نظم شاعرنا العظيم « الكسندر بوشكين » قصائد عصماء صارت تعد من نفائس الشعر الروسي . ومع ذلك فإن الكثيرين استغربوا حينما نشر المستشرق الروسي الكبير « فاسيلي بارتولد » مقالاً بعنوان « القرآن والبحر » .

هذا في حين غدا من المعروف اليوم أن شبه جزيرة العرب كانت منذ القدم مهداً من أعظم مهود صنع السفن والملاحة، الأمر الذي ترك بصماته على الاقتصاد والتجارة والثقافة ليس في هذه البقاع فحسب، بل وعلى مجمل طابع الترابط والتداخل بين أوربا من جهة وحضارة الشرق وثقافته من جهة أخرى .

لقد أثبت العلماء أن طرق الملاحة بين شبه جزيرة العرب والهند كانت سالكة منذ أواسط الألف الثاني قبل الميلاد . وكانت السفن تنطلق في رحلات منتظمة نحو الشرق . وكانت السفن تسير بمحاذاة الساحل الآسيوي وتقطع الطريق الطويل

المحفوف بالمخاطر في غضون فترة قد تقارب السنة .

ويصعب أن نحدد الآن متى عرف الملاحون القدماء دورات الرياح الموسمية التي كانت تسمح للسفن بالاقلاع ثم المضي عبر أقصر الطرق إلى الموانىء المنشورة . ومن المرجح أن الطلعات الأولى إلى الأوقيانوس كانت ذات طابع اضطراري إذ أن الرياح كانت تدفع سفن السواحل إلى عرض البحر فإما أن يبتلعها اليم وإما أن تأتيها الرياح الموسمية بما تشتهيه، وتصل بها إلى بر الأمان . ويبدو أن ذلك تكرر مرات عديدة قبل أن يُقْدِم واحد من البحارة على اجتراح مأثرة والامساك بدفة السفينة بيد واثقة ليقودها إلى عرض البحر، نحو المجهول والهلاك المحتمل .

إن التقاليد الأوربية تربط اكتشاف الرياح الموسمية باسم الربان اليوناني « هيبال » الذي يعتقد أنه عاش في القرن الأول قبل الميلاد . ويسود رأي مفاده أن هيبال كان أول أوربي يبحر إلى الهند عبر أقصر الطرق كي يبلغها خلال أربعين يوماً فقط .

وكان اعتماد « ريح هيبال » في الملاحة حافزاً قوياً لتطوير الروابط التجارية مع الهند، لذا فإن هذا الحدث يتبوأ في تاريخ الحضارة العالمية مكانة مرموقة راسخة .

إن دراسات العلماء الروس المكرسة للملاحة العربية في القرون الوسيطة تأتي في سياق اهتمامهم الأوسع بعلم الجغرافيا العربي . والرائد في هذا الميدان دون منازع، هو أغناطيوس كراتشكوفسكي الذي اشتهرت مؤلفاته في الغرب، ولكنها للأسف لم تصبح في متناول الباحثين العرب .

فقد كان كراتشكوفسكي من المتضلعين في لغة العرب وآدابها، وباحثاً لايكل توفر على دراسة المخطوطات العربية وخاصة نفائسها المحفوظة في مكتبات لينغراد ومتاحفها .

وأرسى كراتشكوفسكي صرح مدرسة جديدة في الاستعراب الروسي يتمثل منهجها العلمي الأساسي في الرجوع مباشرة إلى المستندات والمصادر الأصلية

واستنكاه ما فيها من معان ومغاز، ظاهرة كانت أم دفينة .

قال كراتشكوفسكي : « إن تحقيق المخطوطات والتعامل معها مصدر أفراح وأتراح معاً، كما هي الحياة . بيد أن المخطوطات غيورة فهي تريد أن تستحوذ على اهتمام المرء دونما نقصان، وعند ذاك فقط تكشف له عما فيها من أسرار وتفتح له دخائلها وروحها وروح الناس الذين لهم صلة بها . أما بالنسبة للناظر العابر فهي تبقى خرساء وهي تشبه نبتة السنط، فما إن تمسها يد دونما حذر حتى تنطوي أوراقها ولا تفصح للقارئ الملول عن مكنونها » (انتهى الاقتباس) .

ولم يكن كراتشكوفسكي ناظراً ملولاً عابراً، بل كان باحثاً ينفعل بموضوعه ويغوص في أعماقه، وبفضل ذلك اكتشف الكثير مما فات سابقيه . فبعد أن عكف على دراسة آلاف المستندات والمخطوطات وتحقيقها وتحليلها، تسنى له في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الحالي أن يضع واحداً من أهم مؤلفات علم الاستعراب المعاصر، كتاباً لم يفقد أهميته العلمية حتى يومنا هذا، ونعني مؤلفه الضخم « المصنفات الجغرافية العربية » .

وقد كرس أحد أقسام هذا المؤلف لتاريخ الملاحة وكان بعنوان « الجغرافيا البحرية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لدى العرب والأتراك » وفي معرض الحديث عن الجغرافيا البحرية لدى العرب كتب كراتشكوفسكي :

« ولن يستغرب المرء لثراء هذا العلم إذا تذكر أنه كان بالغ الحيوية ونابعاً من ضرورات الحياة . ولكن من الخطأ الاعتقاد أنه لم ينشأ إلا في القرن الخامس عشر . فقد كانت له تقاليد عريقة في الأدب العربي لم تصل إلينا حلقاتها كاملة وينبغي علينا أن نسترجع الملامح الأساسية لتلك التقاليد ونبرزها، لكي يعطي تقويماً سليماً لهذه الظاهرة التي قد تكون من أهم وأمتع الظواهر في المصنفات الجغرافية العربية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر » (انتهى الاقتباس).

وكرس كراتشكوفسكي الجزء الأكبر من هذا القسم للملاح العربي أحمد بن ماجد الذي كان المستشرق الفرنسي الشهير غابرييل فيران أول من اكتشف ودرس تراثه الفريد . وفي سنة اثنتي عشرةوتسعمئة وألف (1912) أنجز « فيران » إعداد مؤلف في جزئين بعنوان « رســائل عربية وفارسية وتركية في الرحلات ونصوص جغرافيــة حول الشـرق الأقصى من القرن الثامن حتى القرن الثامن عشر » وكان الجزآن ماثلين للطبع حينما عاد « فيران » ورفيقه في العمل « غود فروا ديمومبين » آخر مرة إلى الفهارس للتأكد من أن المصادر جميعاً قد استخدمت وفوجئا حينما اكتشفا في رصيد المكتبة الوطنية مخطوطتين تضمان (27) سبعاً وعشرين رسالة عربية تعود إلى القرنين الخامس عشر والســادس عشر، ولها صـلة في الملاحة بالمحيط الهندي ولاحظا أن إحدى المخطوطتين (كانت تضم تسع عشرة (19) رسالة) هي لمؤلف عرف بليث البحر أحمد بن ماجد . وكانت المكتبة قد اقتنت هذه المخطوطة عام 1860 من استاذ عربي عمل في باريس اسمه سليمان الحرايري . أما المخطوطة الأخرى التي كانت محفوظة في المكتبة الوطنية منذ مطلع القرن الثامن عشر فقد كانت تضم أساساً خمسة مؤلفات للمرشد سليمان المهري . وفي الثالث عشر (13) من كانون الأول (ديسمبر) عام 1912 ألقى ديمومبين تقريراً في الجمعية الآسيوية في باريس حول المصنفين وأهميتهما .

وللتو عكف « فيران » على دراسة نصوص أحمد بن ماجد وكانت تضم سبعة وعشـرين (27) عمـلاً وتضمنت وصفاً لظروف الملاحة في مختلف أنحاء المحيط الهندي، وكتبت كلها رجزاً باستثناء رسالة نثرية واحدة . وكان لذلك كله أهمية علمية كبرى، بيد أن واحدة من لمحات حياة أحمد بن ماجد كانت أهم من سواها وبفعلها اتخذت الدراسات منحى جديداً ومفاجئاً تماماً .

فقد بدا لفيران أنه سبق وأن صادف الاسم فنقب في ثنايا الذاكرة وتذكر بغتة

أنه اتفق وأن رآه في كتاب بعنوان « البرق اليماني في الفتح العثماني » للمؤرخ المكي قطب الدين النهروالي (1511 – 1582) [المتوفى سنة 1582] ويتحدث النهروالي عن واحدة من رحلات الإفرنج البحرية إلى الهند ويشير إلى أن مرشدهم كان الملاح العربي ابن ماجد .

ودفعت شهادة النهروالي بفيران إلى مراجعة الأسفار البرتغالية في القرون الوسطى . وفي مؤلف للمؤرخ جداودا باروش حول إقامة أول بعثة لفاسكو دي غاما في ميناء ملندي في شرق أفريقيا عام 1498 وقع « فيران » على ما يلي :

أثناء إقامة أمير البحر البرتغالي فاسكو دي غاما في ملندي، زاره على متن سفينته وجهاء من الهنود وكان بصحبتهم عربي من جوزرات اسمه المعلم « كانو » ودار حديث مع أبناء جلدتنا استمتع به المعلم أيما استمتاع . ثم أنه نزولاً عند رغبة عاهل ملندي الذي كان يبحث عن مرشد للبرتغاليين، وافق على أن يكون دليلهم وتجاذب « دي غاما » معه أطراف الحديث وارتاح كثيراً لسعة معارفه وخاصة حينما عرض عليه خارطة الساحل الهندي كله وعليها خطوط الطول والعرض،وكانت كما هي الحال عموماً عند العرب، خارطة مفصلة وبدت الخريطة في منتهى الدقة لأن المربعات بين خطوط الطول والعرض كانت صغيرة جداً، وأطلع « دي غاما » المرشد العربي على اسطرلاب « لتحديد السمت وارتفاع الكواكب ولم يبد العربي استغراباً لرؤية الاسطرلاب بل قال أن المرشدين العرب في البحر الأحمر يستخدمون أجهزة مثلثة أو مربعة لقياس ارتفاع الشمس والكواكب وخاصة النجم القطبي . »

وفي الرابع والعشرين من نيسان (ابريل) عام 1498 أبحرت سفن فاسكو دي غاما بدلالة المرشد العربي .

أدت دراسة الأسفار البرتغالية والتحقيق في نصوص ابن ماجد إلى التأكد أخيراً من شخصيته . وقد توفرت في ابن ماجد كل الخصال التي كان فاسكو دي غاما

يطمح أن يراها في مرشده،خبرة واسعة في علوم الفلك والبحر والأرصاد في مختلف أنحاء المحيط الهندي، ومعرفة تفصيلية ودقيقة بالعديد من الموانئ وبما تدل على قرب اليابسة، ودراية في تضاريس قاع البحر على الخط الذي تسلكه السفن واطلاع على أجهزة السفينة . وتأكدت الفرضية القائلة بأن أحمد بن ماجد كان مرشد فاسكو دي غاما عند التحقق من التواريخ المسجلة في مخطوطاته والتي تشمل الفترة الممتدة بين سنتي 1462 , 1495 .

إلى جانب « فيران » عكف على التحقق من شخصية ابن ماجد في سنة 1912 رئيس ديوان مجلس الوزراء المصري أحمد زكي باشا . وقد ألقى تقريراً في مؤتمر عقد بالاسكندرية حول التنافس بين مصر والبرتغال على احتكار التجارة مع الهند وعقد أحمد زكي مقارنة بين شهادات النهروالي والمؤلفين البرتغاليين وتوصل إلى استنتاجات مماثلة لما توصل إليه « فيران » .

وإبان ذلك كانت تقبع في خزائن معهد الاستشراق في بتروغرا (لينغراد حالياً) مخطوطات أحمد بن ماجد وقد اكتشف كراتشكوفسكي تلك المخطوطات وشاءت الأقدار (ولكم كانت مشيئتها موفقة) أن يختار لتحقيقها تلميذه « ثيودور شوموفسكي » الذي صار من مشاهير المستعربين، وله اليد الطولى في دراسة المخطوطات وتصنيفها وترجمتها إلى اللغة الروسية، ووضع سلسلة من الكتب التي جعلت المثقفين الروس يطلعون على شخصية ابن ماجد ودور العرب الفذ في تطوير الملاحة وجغرافيا البحار . وكرس شوموفسكي لابن ماجد أطروحة الدكتوراه التي بدأ كتابتها في الأول من أيار (مايو) عام 1947 وأنجزها ودافع عنها بامتياز في 23 حزيران يونيو عام 1948 في جامعة لينغراد .

كان موضوع الأطروحة الأساسي ثلاث أرجوزات لابن ماجد ظلت أمداً طويلاً مركونة بين المخطوطات المحفوظة في معهد الاستشراق . ولم تقتصر أهمية أطروحة

شوموفسكي العلمية على تحقيق هذه الأرجوزات ووضعها بين أيدي الباحثين . فمن أفضاله الأخرى أنه تمكن باعتماده النصوص المذكورة من تصحيح رأي « فيران » حول تاريخ وفاة ابن ماجد والتأكد من أنه لم يتوفَّ في أواخر القرن الخامس عشر بل في مستهل القرن السادس عشر . هذا أولاً . ثانياً، اكتشف شوموفسكي في النصوص إشارات تؤكد لقاء ابن ماجد بالإفرنج وتتضمن تلميحات إلى ندمه لأن الإفرنج عاثوا فساداً وعملوا على النيل من الدين الاسلامي الحنيف .

وَجَا لِكَالِيكوت خُذْ ذي الفائده لعامٍ تسعمايَة وستّةٍ وزايده
وباعَ فيها واشترى وحكَما والسّامري بَرْطَلَهُ وظَلَما
وسارَ فيها مُبغِضُ الإسلامِ والناسُ في خوفٍ (وفي) اهتمامِ

ومن منجزات شوموفسكي العلمية أنه ثبت تواريخ الأرجوزات الثلاث، فمن بين 32 مصنفاً لابن ماجد كانت معروفة في ذلك الحين لم يؤرخ فيها سوى ثلاثة .

1 ـــ حاوية الاختصار في أصول علم البحار (سنة 1462 م).

2 ـــ كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد (1490 م) .

3 ـــ أرجوزة بنات نعش (1495 م) .

ولم تكن الأرجوزات المحفوظة في لينينغراد تتضمن إشارت مباشرة إلى تاريخ تدوينها بيد أن شوموفسكي اعتمد الكثير من الشهادات والمعطيات غير المباشرة المبثوثة في النصوص وأثبت أنها وضعت في مستهل القرن السادس عشر وأنها آخر مؤلفات ابن ماجد المتوفرة بين أيدي العلماء .

ثمة ميزة هامة أخرى تتسم بها أبحاث شوموفسكي ألا وهي محاولته وضع سيرة حياة ابن ماجد ورسم ملامح شخصيته من خلال دراسة نصوصه . وأود إيراد نص من بحث لشوموفسكي عن تصوره لشخصية الملاح العربي العظيم :

« هو شهاب الدين بن أحمد بن محمد بن مُعَلَّق السعدي بن أبي الركائب النجدي . ويؤكد نسبه أنه ينحدر من بدو شمال الجزيرة العربية، ولكنه ولد في مدينة جلفار في عُمان، رغم أن المؤرخين البرتغاليين في القرن السادس عشرحسبوه، عن جهل، ذا أصل هندي وكانوا يسمونه تارة « مرشداً من جوزرات » وتارة « عربياً من جوزرات ». ولعل مسقط رأس ابن ماجد هو الذي جعل أجيالاً من أسرته تختار مهنة ركوب البحر .فعُمان تقع على مدخل المحيط الهندي على ساحل الخليج العربي أي عند تقاطع طرق تجارية تدب فيها الحركة وتصل بين أسواق الهند والمقاطعات الغنية القريبة من عاصمة الساسانيين وفيما بعد القريبة من عاصمة الخلافة العباسية في بغداد . وعلى الجانب الآخر من الخليج كانت مدينتا سيراف وهرمز الإيرانيتان القديمتان مركزين مهمين للتجارة البحرية في العالم . وغيرها كانت مناطق جنوب غربي آسيا كلها تحتفظ بصلات تجارية دائمة مع الساحل الشرقي لأفريقيا ومدغشقر وغرب الهند وسيلان وجزر أندنوسيا بل وحتى مع الصين النائية . ومن البديهي أن سكان الساحلين المتقابلين (عُمان وفارس) كانت لهم صلة بالبحر منذ اليفاعة وكان البعض منهم يسلخ حياته كلها في عمل شاق مضنٍ باحثاً عن اللؤلؤ . والبعض الآخر كان يغتني من الوساطات التجارية .. فيعمد إلى شراء السفن وركوب البحر في رحلات محفوفة بالمخاطر ليصل إلى الأراضي الغنية في شرق المحيط وغربه . وكان هناك لفيف آخر يكرس حياته لدراسة فنون الملاحة وسبر أغوارها ومعرفة أسسها المثبتة في الراهْمانْجات الإيرانية القديمة التي كانت تتوارث جيلاً عن جيل، وغدا أمثال هؤلاء ملاحين . وكانت حياة البحر القاسية غالباً ما تدخل تعديلات وإضافات على السفن البالية وتدفع إلى تثبيت الفروق بين النظرية والتطبيق وتحمل كل ملاح على أن يضع عدداً من الرسائل في الملاحة قد يكثر وقد يقل .

وإلى هذه الفئة الاجتماعية الثالثة كان ينتسب أحمد بن ماجد الذي ورث المهنة أباً عن جد . وفي القرن الخامس عشر كان هناك غير قليل من العوائل العربية التي توارثت فن الملاحة وكان المرشد رباناً للسفينة . ويصنف في المقام الثاني بعد صاحبها، ويتحمل مسؤوليات كبيرة وكانت أرواح البحارة والبضائع النفيسة على متن السفينة وبلوغ السفينة نفسها بر الأمان ــ كلها كانت رهناً لدراية الربان بظروف الملاحة ومقدرته على تحاشي شتى المخاطر المفاجئة أحياناً . وكان ذلك كله يقتضي أن تتوفر في الربان صفات مهنية ممتازة . وإلى جانب المعارف النظرية الواسعة والخبرة العملية كان ينبغي أن يكون شجاعاً دونما طيش، حذراً ولكن دون تباطؤ، رصيناً ولكن دون الانغلاق على نفسه، سموحاً ولكن دون تهاون، دقيقاً في أقواله، حاسماً في أفعاله أي أن يكون نموذجاً يقتدى في سلوكه عند الحلول في بلاد الاجانب » (انتهى الاقتباس) .

إن شوموفسكي، علاوة على المقالات التي صدرت في المطبوعات العلمية الدورية نشر لأول مرة كتاباً علمياً إضافياً حول الموضوع سنة 1957 بعنوان « ثلاث راهمانجات مجهولة لأحمد بن ماجد » ضم صوراً فوتوغرافية لمخطوطات الأرجوزات الثلاث وترجمتها إلى الروسية . وتصنيفاً للمخطوطات وتركيبها وخصائص لغتها ومضمونها وتواريخها .

ومن المهم الإشارة إلى أن ثيودور شوموفسكي صدر كتابه بالعبارة التالية : « إلى الشعوب العربية التائقة للحرية متمنياً لها أن يكون إبحارها نحو الأهداف الكبيرة سعيداً وموفقاً » .

ولا أجد خيراً من هذه العبارة لأختتم بها كلمتي وأشكركم على حسن إصغائكم .

مكانة الساحل العربي في الخرائط الأوربية

من القرن السابع عشر
إلى
القرن التاسع عشر

الدكتور : حسام الخادم

إن البحث الذي أقدمه اليوم لهو أول محاولة لحصر وتعداد الخرائط الأوربية الموجودة بالمكتبة الملكية ببروكسل ، والتي يظهر فيها الخليج وبالتحديد الساحل العربي للخليج . غرض هذه الدراسة هو دراسة وتحليل المحاولات الأوربية لرسم خرائط الخليج العربي ومدى نجاحها، أو فشلها، في تصوير الساحل العربي تصويراً علمياً سليماً، وخصوصاً ما يتعلق بالجانب الطوبونومي،أي محاولة نقل أسماء المدن والبلدان والجزر . تشمل هذه الدراسة المدة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر . سبب اختيار هذه الفترة هو أن العصر الذهبي للخرائط في أوربا بدأ في القرن السابع عشر بعد عصر النهضة وعصر الاكتشافات الجغرافية الهامة،وبدأ عصر النشاط التجاري والعلمي،الذي تبع عصر الاكتشافات الجغرافية،فتقدمت تبعاً لذلك صناعة الخرائط ورسمها تقدماً كبيراً في ذلك العصر،واستفادت من التقدم الذي أحرزته مختلف فروع العلوم في القرن السابع عشر، كعلم الفلك والعلوم الرياضية والفلسفة والطبيعة والآلات العلمية .

تنتهي الفترة التي نقوم بدراستها في القرن التاسع عشر، وذلك مع نهاية القرن التاسع عشر،تنتهي الفترة التاريخية لذلك العلم، لتبدأ المرحلة الحديثة والمعاصرة من تطوره . إننا نحاول أن نقوم في هذا البحث بدراسة الجانب التاريخي من علم الخرائط وليس ما يدخل منه في نطاق البحث المعاصر،ولذلك يجب علينا أن نأخذ نهاية القرن التاسع عشر كخط نهاية لهذه الدراسة .

إن أول ما يلاحظه الباحث بصدد هذه الدراسة أنه ليس هناك خريطة خاصة بالخليج العربي وحده، وإنما يظهر الخليج في مجموعة من الخرائط تشمل كل منها وحدة جغرافية أو سياسية أو طبيعية كبيرة، والخليج يمثل في هذه الحالة جزءاً من هذا الكل الأكبر . مثال ذلك مجموعة الخرائط التي تمثل الدولة العثمانية، أو شبه جزيرة العرب أو خريطة قارة آسيا أو الدولة الفارسية . كل من هذه الخرائط يشمل

الخليج العربي ولكن ليس هناك أي خريطة تختص بالخليج وحده .

إننا نستطيع أن نقسم الخرائط التي يظهر فيها الخليج العربي إلى خمسة أنواع :

أولاً : الخرائط التي تمثل الدولة العثمانية وملحقاتها .

ثانياً : الخرائط التي تمثل الدولة الفارسية .

ثالثاً : الخرائط التي تختص بشبه جزيرة العرب .

رابعاً : الخرائط التي تمثل القارة الأفريقية وخصوصاً ساحلها الشرقي .

خامساً : الخرائط التي تمثل القارة الآسيوية وخصوصاً جزءها الشرقي .

إن المنطقة التي نقوم بدراستها محدودة بمدار السرطان جنوباً وبخط العرض 31 شمالاً وبخطي الطول 47 غرباً و 60 شرقاً . المدينتان اللتان تمثلان أبعد نقطتين في هذا المستطيل هما مسقط في الجنوب الشرقي والبصرة في الشمال الغربي .

في هذا البحث نحن سنتتبع التدرج التاريخي لتطور الخرائط خلال فترة تبلغ مايقرب من مئتي عام وبالتحديد من عام 1655 إلى عام 1859 وذلك بدراسة اثنتي عشرة خريطة تعطي في مجموعها صورة صادقة عما تحتويه المكتبة الملكية ببروكسل من خرائط تتعلق بالخليج العربي . هذه الاثنتا عشرة من وضع علماء الخرائط الآتية أسمائهم :

بطليموس، جون بلاو، يوهان ينسونيوس، فرديريك دي ويت، بيير دوفال، جان باتست هومان، جيوم دي ليل، ثم خريطة بدون اسم واضعها، فرانز لودفج جوسيفيلد، فيليب فاندر مالين وكارل فرديناند فايلاند .

إن أقدم خريطة تصور الخليج العربي في هذه المجموعة من الخرائط التي ندرسها هنا منشورة في كتاب « الجغرافيا » لبطليموس (87 – 150 بعد الميلاد) هذا الكتاب بجانبه كتابه « المجسطي » يعتبران أهم كتابين من العصور القديمة والوسطى في علمي الخرائط الفلكية والخرائط الأرضية . إن أول طبعة للكتاب « الجغرافيا »

هذا ترجع إلى سنة 1475 تلك كانت بدون خرائط . أما أول طبعة للكتاب مزودة بالخرائط فترجع إلى سنة 1477 وهي طبعة إيطالية .

الخريطة التي أمامنا قد طبعت بأمستردام في كتاب « الجغرافيا » وهي طبعة قد غفلت عن ذكر التاريخ ولكن مؤرخ علم الخرائط « رونالد تولي » يرجح أن طبعها قد تم سنة 1695 . عنوان هذه الخريطة هو « خريطة آسيا وجزيرة العرب السعيدة والخليج الفارسي » . مساحة الخريطة 49 سم عرضاً و 31,3 سم طولاً . والمنطقة التي تمثلها محصورة بين خطي العرض 10 جنوباً و 30 شمالاً وبين خطي الطول 65 غرباً و 105 شرقاً . ليس هناك أي اسم من أسماء المدن والأماكن المذكورة على هذه الخريطة برغم عددها الكبير، يمكن التعرف عليه . فرغم أن الشكل العام للخليج يقترب إلى حد ما من الشكل الصحيح،إلا أن أسماء المدن على الرغم من كثرتها لاتقترب اطلاقاً من تسميتها الصحيحة والمتعارف عليها .

(III 8898; XIV – Turqie ĹEurope)

إن ثاني أقدم خريطة هنا يرجع تاريخها إلى سنة 1655 وهي تمثل الدول التي تحت السيادة العثمانية في أوربا وآسيا وأفريقيا . هذه الدول مقسمة هنا حسب اختلاف النظام السياسي في كل منهما .

واضع الخريطة هو عالم الخرائط الفرنسي نقولا سانسون (1600 – 1667) الجغرافي ورسام الخرائط الخاص بالملك لويس الرابع عشر .

إن تاريخ نشر هذه الخريطة ليس مدوناً عليها، كما هي العادة، ولكن يقترح أن تكون قد نشرت بين عام 1650 وعام 1655 ، إن فهرس خرائط المتحف البريطاني يعطي التاريخ الأخير . نفس الفهرس يعطي أيضاً عنوان 4 نسخ مختلفة لهذه الخريطة . على أي الحالات من رأيي أنه يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن تاريخ رسم هذه الخريطة قد كان بين عام 1630 ـــ وعام 1665 حيث أنه مذكور على الخريطة نفسها، ان سانسون يشغل منصب « جغرافي الملك » ونحن نعلم أنه شغل هذا المنصب من عام 1630 إلى عام 1665 .

إن الرقعة التي تمثلها هذه الخريطة تقع بين خطي عرض 15 جنوباً و 5 شمالاً وبين خطي طول 30 غرباً و 100 شرقاً . هذا يدل على أن سانسون قد اتخذ من جزر الكناري وبالتحديد من جزيرة خيرو، نقطة البداية لخطوط الطول أي خط الطول صفر، ثم تدرج منها إلى جهة الشرق .

أما بخصوص مقياس الرسم الذي طبقه سانسون فهو ماهو معروف باسم « المقياس العام الفرنسي » وحتى يتيح الفرصة لمشاهد الخريطة أن يقارن بين هذا المقياس والمقاييس الأخرى فإنه قد ذكر المقاييس الأخرى مثل المقياس الألماني والمقياس البولندي والمقياس الفارسي والمقياس المجري . ولما كان كل مقياس منها يختلف عن الآخر فإن سانسون قد حرص على إعطاء القيمة القياسية لكل منها .

إن وحدة القياس الفرنسي تعادل اليوم 4,444 كم، ووحدة القياس الألماني تعادل 7,407407 كم، بينما الفرسخ الفارسي يعادل 6 كم تقريباً . هكذا أعطى سانسون للقارئ غير الفرنسي أن يتوصل إلى تصور المساحة الحقيقية التي قام بوصفها على الخريطة وذلك بتحويل مقياس الرسم الفرنسي إلى مقياس بلد الشخص المشاهد للخريطة .

إن الكثير من الخرائط الأوربية تحمل مقاييس رسم مختلفة وذلك قبل توحيد المقاييس الأوربية وذلك بتطبيق النظام المتري على جميع الخرائط وفي مختلف البلاد .

مما يستدعي النظر في هذه الخريطة وجود، في جانبها الأيسر السفلي، مستطيل به خريطة مكبرة لمنطقة شمال أفريقيا . هذه الخريطة الجانبية تحدد المساحة التي تمثلها بين خطي عرض 30 جنوباً و 35 شمالاً وبين خطي طول 35 شرقاً و 15 غرباً . هذه الخريطة المكبرة تحتوي على التفاصيل الجغرافية لما كان معروفاً عندئذ بمملكة الجزائر ومملكة فز . إن هذا الاهتمام الخاص بشمال أفريقيا لدرجة أن سانسون يقوم بعزل المنطقة عن مجال الخريطة وتكبيرها داخل إطار خاص لدليل على اهتمام الفرنسيين بهذه المنطقة اهتماماً خاصاً . هكذا يكشف سانسون بدون قصد منه عن أهمية منطقة شمال أفريقيا لفرنسلهوذلك أكثر من مئتي عام قبل الاحتلال الفرنسي لدول المنطقة . إن الخليج العربي في هذه الخريطة يسمى « خليج البصرة » هذا دليل على أن مدينة البصرة في القرن السابع عشر كانت أهم مرفق على الخليج حتى أُطلق اسمها على الخليج بأكمله . من بين الأسماء العديدة للمدن والجزر المذكورة على هذه الخريطة لايمكن التعرف إلا على عدد قليل جداً منها مثل دبا (Doba)، القطيف (el Catif)، البحرين (Bahr al Bahrain)، البصرة (Basra al Bassara).

(BLAEU, J. **geographie Blauiane, Cantenant IAsia**, Amsterdam, Blaeu, 1663)

هذه الخريطة من رسم جون بلاو John Blaeu نشرها بمدينة أمستردام في مجلد واحد يشمل على خرائط قارة آسيا وذلك عام 1663 . إن هذه الخريطة نفسها قد نشرت بعد ذلك تحت عنوان آخر وهو خريطة « الامبراطورية التركية » ولكن إذا دققنا النظر وقارنا بين هاتين الخريطتين لوجدنا اختلافاً ظاهراً بينهما :

أولاً : تظليل الإطار الخاص بالخريطة وكذلك تظليل البحار والأنهار يختلف بين الخريطتين .

ثانياً : في الركن الأيمن السفلي من خريطة الامبرطورية التركية نستطيع أن نقرأ العبارة التالية « طبعت على نفقة يوهانس يانسونيوس وهي أكثر دقة مما سبقها من خرائط » هذه العبارة لا وجود لها على الخريطة التي أمامنا .

ثالثاً : على الخريطة التي أمامنا من الجانب الأيمن، شعار نسب رافيددي وهلم وتحته عبارة إهداء الخريطة إليه . لاشعار النسب ولا عبارة الاهداء يوجدان على خريطة الامبرطورية التركية المشار إليها .

هذه الخريطة من وضع عالم الخرائط الهولندي جون بلاو قام بنشرها في أمستردام عام 1663 . مساحة الخريطة كالآتي : 48 سم عرضاً و 36 سم طولاً . والرقعة المرسومة هنا يحدها خطا العرض 20 جنوباً و 45 شمالاً وخطا الطول 65 غرباً و 12 شرقاً .

من الواضح حسب المذكور في إطار عنوان الخريطة أن الموضوع الأساسي للخريطة هو « فارس أو الدولة الصفوية » ولكن رغم ذلك فإن الساحل العربي للخليج مرسوم بتفصيل ملحوظ مما يدل على أهميته في نظر الأوربين .

أما فيا يتعلق بمقياس رسم هذه الخريطة فإن بلاو يوضح ذلك في نص باللغة اللاتينية ترجمته الآتي :

« مقياس الرسم هو الفرسخ وهو يساوي 3000 قدم،بواسطته يقيس الفرس اليوم المسافات وكذلك العرب (Maures) الذين يحتلون جزءاً كبيراً من آسيا . إن وحدة القياس هذه وكذلك المصطلح « فرسخ » لها مرادفان للمصطلح القديم « بارسانج » أما باقي الآسيويين فيحسبون المسافات بعدد الأيام التي يقطعونها من مكان لآخر » .

جون بلاو يعطي هنا كلاً من مقياس الرسم بالفرسخ ومقياس الرسم بالقياس الألماني ويضع الواحد تحت الآخر لكي يتسنى للمطلع على الخريطة أن يقارن بين القياسين . هذا دليل على الدقة والعناية التي تميزت بها الخرائط الأوربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر وبوجه خاص الخرائط الهولندية والبلجيكية .

إن عدداً محدوداً جداً من المدن المذكورة على هذه الخرائط، فيما يتعلق بالخليج يمكننا أن نتعرف عليه : مسقط (Mascalla) . صحار (Soar) . دبا (Doba) . كلبا (Calba) . الكويت (Quezimi) . البصرة (Bacora al Balsera) .

هناك ثلاث ملاحظات على هذه الخريطة :

أولاً :

إن المدن والقرى يرمز إلى كل منها بعلامة خاصة تدل المطلع على الخريطة على مدى كبر كل منها وأهميتها .

ثانياً :

إن اسم الكويت، وهو محرف هنا إلى : Quezimi مكتوب على جزيرة بوبيان وليس على الشاطئ المواجه لها وهو الكويت حقيقة .

ثالثاً :

بجانب البحرين يحرص جون بلاو على كتابة الآتي : « البحرين حيث يوجد الكثير من اللؤلؤ » .

هذه خريطة أخرى لجون بلاو تمثل منطقة الخليج وعنوانها « شبه الجزيرة العربية » (Azabia) . نحن نرى حول الإطار الخاص بعنوان الخريطة تمثيل رمزي لسكان شبه الجزيرة وبعض نشاطهم .

الرقعة التي تمثل الخريطة محدودة بين خطي العرض 10 جنوباً و 30 شمالاً وبين خطي الطول 60 غرباً و 90 شرقاً . أما مقياس رسم الخريطة فهو الميل الألماني الذي يعادل 7,407407 كم مقابل كل درجة على الخريطة .

يصاحب هذه الخريطة نص يقدم فيه جون بلاو، الذي كان الجغرافي الرسمي لشركة الهند الشرقية،شبه جزيرة العرب . هناك بعض الملاحظات على هذا النص :

أولاً :

هذا النص دليل على اهتمام الجغرافيين وعلماء الخرائط الأوربيين بمنطقة الخليج . فحتى إذا كانت المعلومات التي ينشرها هنا جون بلاو معلومات مبتورة ومجزأة، إلا أنها في حد ذاتها ذات أهمية كبيرة للأوربي الذي يريد زيارة المنطقة لغرض تجاري أو دبلوماسي مثلاً .

ثانياً :

إن بعض المعلومات التي يقدمها بلاو على جانب قليل من الدقة مما يجعلنا نتسائل من أين تأتى له الحصول على هذه المعلومات؟فهو مثلاً يواظب على ذكر أسماء المدن والقرى بشكل منتظم بدون أن يراعي في ذلك مدى صحة هذه الأسماء ومطابقتها للواقع .

ثالثاً :

رغم هذا العيب فإن هناك بعض المدن التي يمكننا التعرف بسهولة على أسمائها بينما البعض الآخر من المستحيل التعرف عليه، سبب ذلك هو : إما أن نقل المعلومات بواسطة المسافرين والبحارة إلى الجغرافيين وعلماء الخرائط كان يتم بطريقة عشوائية أدت إلى تشويه أسماء المدن والقرى . وإما أن هذه الأسماء قد تغيرت في الخليج منذ القرن السادس عشر والسابع عشر حتى الآن مثال ذلك « جلفار » التي أصبحت اليوم « رأس الخيمة ». إذا كان الأمر كذلك فإنه يجب في كلا الحالتين دراسة أسماء مدن المنطقة وقراها وجزرها دراسة تاريخية طوبونيمية (toponymy) وتتبع التغيرات التي طرأت على هذه الأسماء وسبب هذه التغيرات وذلك بالرجوع إلى أقدم المصادر سواء مكتوبة أم شفهية من القدم وحتى الآن .

أسماء المدن التي يمكن التعرف عليها بالساحل العربي للخليج في هذه الخريطة هي :

مسقط (Mascate). صحار (Soaz). جلفار (Julfar) دبا (Doba).
القطيف (Katife). البصرة (Basora).

هناك ملاحظتان في هذا الصدد :

أولاً :

يحرص جون بلاو على تسمية المدخل الشرقي للخليج باسم « مضيق البصرة » (Basora Fzelüm) وليس « بمضيق هرمز » (Strait of Hormuz) كما هو الحال الآن .

ثانياً :

يعين بلاو موقع جلفار بداخل البلاد وليس على ساحل الخليج كما هو الحال .

هذه الخريطة « للامبرطورية العثمانية » كما يدل عنوانها من وضع عالم الخرائط

الهولندي يوهان ينسونيوس . مقياسها كالآتي : 50,3 سم عرضاً و 38,8 سم طولاً . الرقعة التي تمثلها الخريطة تقع بين خطي عرض 10 جنوباً و 45 شمالاً وبين خطي طول 30 غرباً و 100 شرقاً . مقياس رسم الخريطة هو الميل الألماني .

في الركن الأيمن السفلي للخريطة مذكور باللغة اللاتينية ما مؤداه أن هذه الخريطة قد طبعت على نفقة يوهان ينسونيوس وأنها أكثر دقة مما سبقها من خرائط هذه المنطقة . يوهان ينسونيوس ولد ومات بهولندا بين عامي 1588 و 1668 . نشر مجموعة من الأطالس بالاشتراك مع عالم الخرائط هنري هونديوس . ثم نشر بمفرده بعد ذلك خرائط لفرنسا وإيطاليا سنة 1616 . بعد ذلك قام بنشر أطلسه الكبير في أحد عشر جزءاً .

إن الأسماء الوحيدة التي يمكننا التعرف عليها من بين الأسماء العديدة لمدن الخليج التي يذكرها ينسونيوس هي اسم دبا (Doba) واسم البحرين (Baharem) أما باقي الأسماء فهي محرفة لدرجة لاتسمح لنا بمعرفة أصلها العربي .

هناك ملاحظات يمكننا ذكرها بهذا الصدد :

أولاً :

بجانب اسم البحرين يذكر ينسونيوس العبارة الآتية : « هنا كمية كبيرة من اللؤلؤ » وذلك إشارة منه إلى شهرة البحرين باللؤلؤ واشتهارها بتجارته حتى في أوربا إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر .

ثانياً :

إن الخليج العربي مذكور في هذه الخريطة تحت اسم « بحر القطيف » وهذا دليل آخر على شهرة المنطقة حول البحرين وقوة نفوذها في القرن السابع عشر لدرجة أن الجغرافيين الأوربيين يطلقون اسم أحد موانئ هذه المنطقة على الخليج بأكمله .

ثالثاً :

إن اسم البحرين الذي كان يطلق أصلاً على الجزء الشرقي من ساحل الخليج المقابل لجزيرة البحرين وأيضاً على الجزائر المجاورة لها نجده قد أطلق هنا على جزيرة البحرين فقط، ولم يطلق كما هي العادة في خرائط هذه الفترة على الساحل وعلى الجزائر المقابلة له أيضاً .

رابعاً :

إن ينسونيوس قد حرص على بيان مدى انتشار التجارة بين أوربا ومنطقة الشرق الاوسط عموماً، ولذلك رسم سفينتين أوربيتين في بحر العرب وسفينة عربية بالقرب من الشاطئ الغربي لجزيرة قبرص .

(Turcieum Imperium, 41 ter)

هذه الخريطة للامبراطورية التركية من رسم عالم الخرائط الهولندي فردريك دي ويت ولد عام 1610 ومات عام 1698 . من بين العديد من خرائط دي ويت نجد الأطلس الذي نشره عام 1670 وكذلك أطلس البحار عام 1675 وأطلس بلجيكا عام 1666 – 1667 والأطلس الكبير 1690 .

الخريطة التي أمامنا هنا تغطي المساحة بين خطي العرض 10 جنوباً و 48 شمالاً وخطي الطول 21 غرباً و 105 شرقاً .

فردريك دي ويت حرص على تلوين الحدود السياسية التي تفصل بين الدول المختلفة كذلك قد لون دي ويت مختلف الجزائر .

بالعكس من ذلك نحن نجد أن لا التضاريس المختلفة ولا البحار قد لونت . جميع التلوين هنا هو تلوين باليد وليس بالمطبعة وهذا التلوين لاحق لنشر الخريطة وكذلك نحن نجد أن بعض نسخ نفس هذه الخريطة ليست ملونة . المكتبة الملكية ببروكسل تمتلك نسختين أخريين من خريطة دي ويت خاليتين تماماً من كل تلوين .

إحدى هاتين النسختين، وهي الموجودة بمجموعة الخرائط المجلدة المسجلة تحت اسم رقم الايداع (Bibliathique Royale, Brussels, II 89/87 D) والتي تحمل رقم 62 ــ في الجانب الأيمن السفلي من هذه الخريطة مكتوب الآتي : « من نقش يوانس لويليه بأمستردام » .

لويليه هو النقاش الذي قام بنقش هذه الخريطة على لوح النحاس حتى يمكن طبعها وذلك بأن يمسح الوجه المنقوش بالمداد ثم توضع عليه صحيفة الورق حتى ينطبع عليها النقش الموجود على اللوحة النحاسية . كانت هذه هي طريقة طبع الخرائط في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر .

من بين الخرائط التي قام لويليه بنقش لوحاتها النحاسية خريطة شبه جزيرة العرب

(1655) رسم عالم الخرائط سانسون، خريطة أمريكا (1655) من وضع عالم الخرائط الفرنسي دوفال، كذلك خريطة جزر الهند الشرقية (1662) من وضع دي ويت وكلا الخريطتين الآتيتين لعالم الخرائط ماريت : خريطة ترانسلفانيا (1664) وخريطة روسيا (1682) .

في نفس هذه المجموعة من الخرائط المجلدة في مجلد واحد والموجودة بالمكتبة الملكية ببروكسل (رقم الايداع II 89/87,D) خريطة لفردريك دي ويت عنوانها « وصف جديد لفارس وأرمينا وأناطوليا وشبه جزيرة العرب ».

في الجانب الأيمن السفلي دي ويت يعين مقياس رسم الخريطة وذلك باللغتين اللاتينية والهولندية . مقياس الرسم هنا هو الميل الألماني وكل 15 ميل، أي كل مايقرب 111 كيلو متر، ممثلة على الخريطة بدرجة واحدة.مساحة هذه الخريطة لدى دي ويت هي الآتي : 55 سم عرضاً و 47 سم طولاً .

من بين أسماء المدن التي يمكننا التعرف عليها في هذه الخريطة المدن الآتية مسقط (Moschetto)، صحار (Soar)، خورفكان (Ozfacan)، رأس الخيمة (Roccalima)، دبا (Doba)، البصرة (Bassora)، البحرين (Baharem) .

(XVI Turqui ĹAsie, 1686, Du vol. III 9643)

هذه خريطـة الجزء الآسيوي من الامبراطورية التركية في القرن السابع عشر من رسم عالم الخرائط الفرنسي بيير دوفال . عرض الخريطة 52,4 سم وطولها 36,08 سم هذه المساحة من الدولة العثمانية تقع بين خطي عرض 20 جنوباً و 50 شمالاً وبين خطي الطول 35 غرباً و 100 شرقاً .

عنوان الخريطة كما هو موضح في المربع الخاص بذلك هو الآتي : « امبراطورية الترك في أوربا وآسيا وأفريقيا موضح عليها بعض الطرق الرئيسية للقوافل من رسم ب. دوفال جغرافي الملك، تباع في باريس عند المؤلف على رصيف الساعة بجانب القصر (قصر الملك). صاحب الامتياز هو جلالة الملك 1686 ».

بيير دوفال ولد بمدينة ابي فيل عام 1618 ومات بباريس عام 1683 . كان جغرافياً لملك فرنسا لويس الرابع عشر . تتلمذ على عالم الخرائط سانسون . من بين الخرائط التي رسمها بيير دوفال نجد خرائط قد رسمها للأطلس القديم ليانسون (1633)، خريطـة أمريكا (1655)، خريطة العالم (1662)، ألف باء العالم (1670) خريطة المقاطعات المتحدة، أي هولندا وبلجيكا معاً، (1672) هذا بجانب خرائط أخرى عديدة . في هذه الخريطة جزء من الساحل العربي للخليج ليس ظاهراً بالمرة لذلك ستقتصر دراستنا للخريطة على الجزء المرسوم من الخليج فقط .

أهم ما نلاحظه هنا هو اسم الخليج مذكور كالآتي : « خليج البصرة بمعنى آخر بحر القطيف فيما سلف خليج فارس ».

إننا نجد في خرائط أخرى نفس التسمية للخليج كخليج البصرة مثلاً أو خليج القطيف ولكن مما يستدعي النظر هنـا هو أن بيـير دوفال قال يذكر أن الاسـم السالف للخليج هو خليج فارس، هذا بالطبع دليل على مدى أهمية الساحل العربي وبلدانه في نظر الأوربيين لدرجة أن عالم خرائط كبير في مرتبة دوفال يطلق اسم

مدينتين عربيتين على الخليج عامة .

نفس هذه التسمية ربما تدل أيضاً على أن أهمية فارس في نظر الأوربيين في القرن السابع عشر قد تدهورت لدرجة أن بيير دوفال يشير إلى أن اسم « خليج فارس » هو الاسم السالف للخليج أما الآن فالاسم هو اسم لإحدى المدن العربية .

ودليل آخر يمكن استنتاجه من هذه الخريطة على الأهمية الخاصة التي بدأت البلاد العربية تحتلها في نظر الأوربيين ابتداء من القرن السابع عشر هو أن بيير دوفال أطلق على الجزء المواجه للساحل المصري من البحر الأبيض المتوسط اسم « بحر مصر » هاتان الملاحظتان يجب أن تسندا بدراسة تفصيلية للعلاقات السياسية والتجارية بين الشرق العربي والدولة الفرنسية في النصف الثاني من القرن السابع عشر،حتى يتاح لنا معرفة الدوافع التي دفعت عالم خرائط فرنسي في مكانة بيير دوفال ليطلق هذين الاسمين على ممرين مائيين لهما أهمية الخليج.وهذا الجزء من البحر الأبيض المتوسط دليل آخر على اهتمام الدول الأوربية، ومنها فرنسا، بمنطقة الدول العربية، كما نستطيع أن نستنتجه من هذه الخريطة، هو أن دوفال قد عزل منطقة شمال أفريقيا في إطار خاص أسفل الخريطة من جهة الشمال، حيث يعطينا تكبيراً خاصاً للمنطقة ـــ هذا طبعاً دليل على الاهتمام الخاص الذي تقله فرنسا لشمال أفريقيا وبالتحديد لتونس والجزائر والمغرب .

في هذه الخريطة لشمال أفريقيا يطلق دوفال على الجزء المواجه للجزائر من البحر الأبيض المتوسط اسم « بحر الجزائر ».

هناك أهمية خاصة لهذه الخريطة بوجه عام وهو أنها تعطي لنا طرق القوافل، أي الطرق التي اتخذتها قوافل التجارة والحج والزيارة في الشرق الأوسط عموماً،وكذلك من الشرق الأوسط إلى مختلف بلاد أوربا وبعض من بلاد الشرق الأقصى .

بيير دوفال عين طرق القوافل على هذه الخريطة بواسطة خطوط توصل المدن

والقرى ومحطات القوافل كل منها بالآخر . هذه المدن والقرى والمحطات ممثلة كل منها على الخريطة بدائرة صغيرة . شبكة القوافل هذه تصل أفريقيا وآسيا وأوربا معاً . طرق القوافل المتجهة إلى أو من، الشرق الأقصى للأسف غير كاملة على هذه الخريطة،السبب في ذلك أن الخريطة محدودة من جهة الشرق بخط طول 90 .

هذه الخريطة لبيير دوفال كانت جزءاً من مجموعة خرائط المؤسسة الجغرافية لعالم الخرائط البلجيكي فيليب فاندر مالن قبل أن تصبح اليوم جزءاً من مجموعة خرائط المكتبة الملكية ببروكسل .

(No. 165. Turquie No. 41)

هذه الخريطة من وضع عالم الخرائط الألماني جان باتست هومان رسمها بناء على تقارير جغرافية لعالم الخرائط الفرنسي دي ليل . مؤدى عنوان هذه الخريطة هو الآتي : خريطة الإمبراطورية التركية في أوربا وآسيا وأفريقيا التي تظهر فيها الأقاليم التي ترجع إلى الإمبراطورية التركية ذاتها، وكذلك الأقاليم التي تدفع الجزية للإمبراطورية والأقاليم الموالية لها، وجميع الأقاليم التي ترجع إدارتها إلى الإمبراطورية التركية .

واضع الخريطة جان باتست هومان ولد عام 1663 كان جغرافياً وعالم خرائط كذلك كان جغرافياً خاصاً عام 1715 للإمبراطور الألماني وعضو بأكاديمية العلوم الروسية،مات نبورمبرخ عام 1724 . قام بنقوش اللوحة النحاسية لخريطة بريطانيا . أنشأ عام 1702 مؤسسة لنشر الخرائط كما نشر عام 1704 أطلساً، وكرة أرضية عام 1705 ثم أطلساً آخر عام 1716 ، ثم أطلساً فلكياً للنجوم . هومان قد قام بحفر مايقرب من 200 خريطة، كذلك كرات أرضية وكرات فلكية .

مساحة هذه الخريطة التي أمامنا 57,7 سم عرضاً و 48,5 سم طولاً وهي تشمل المنطقة بين خطي العرض 15 جنوباً و 45 شمالاً وبين خطي الطول 25 غرباً و 85 شرقاً .

إن نقطة البداية لخطوط الطول هنا، أي خط الطول صفر، هو خط طول مدينة باريس، أما فيا يتعلق بمقياس الرسم الذي استعمله هومان في القرن السابع عشر في وضع هذه الخريطة فيجب أن نتذكر هنا أن نظام القياس المتري لم يكن قد اكتشف بعد، ولذلك قد اختلف مقياس الرسم من بلد لآخر، كان عمل وضع الخرائط عملاً مرهقاً . في هذه الخريطة التي أمامنا يوضح هومان مقياس الرسم الذي اختاره بمقارنته بمقياسات رسم أخرى، فهو لذلك يذكر أنه بمقارنة وحدة القياس

التي اختـارها بالميل الألماني (7,407407كم) فإن كل 15 ميلاً تعادل درجة واحدة وبالنسبة للميل التركي الأرضي فإن كل 40 ميلاً يعادل درجة واحدة . أما بالنسبة للميل الإيطالي، وهو الميل البحري التركي، فإن كل 60 ميلاً تعادل درجة واحدة .

أما في ما يتعلق بالجزء الخاص بالخليج العربي في هذه الخريطة فإننا يمكن أن نشير إلى الملاحظات الآتية :

أولاً :

بخصوص الساحل العربي من الخليج فإن عدد المدن التي يذكر هومان أسماءها محدود ، من بين السبعة مدن المذكورة هنا يمكننا التعرف على الأربعة الآتية :

جلفار (Julphar)، الشارقة (Cataragade)، القطيف (Elcatif)، البحرين (I Behrien) .

هذا دليل على أن هذه الخريطة من القرن الثامن عشر، فهي دقيقة إلى درجة معقولة بالنسبة للخرائط الأخرى من القرن السابع عشر والتي تناولناها حتى الآن بالرغم من أن عدد المدن المذكورة محدود .

من الجدير بالذكر هنا أن المكتبة الملكية ببروكسل تملك نسخة أخرى من هذه الخريطـة (P.F. Turquie, 46). هذه النسخـة الثـانيـة ملونة تلوينـاً مختلفاً عن النسخة التي أمامنا هنا . بجانب ذلك هي أنها أوضح من النسخة التي أمامنا . هذا دليل على أن هذه النسخة الثانية أحدث من نسختنا هنا، وذلك لأن نقش الخريطة على اللوحة النحاسية استعداداً لطبعها كانت قد بهتت قليلاً من كثرة الاستعمال نتيجة طبع نسخ متتالية من الخريطة التي أمامنا .

(II 47595 D, Carlés of Plums)

هذه الخريطة من وضع عالم الخرائط الفرنسي جيوم دي ليل قام بنشرها سنة 1733 في أطلسه الذي ظهر في أمستردام والذي يحمل العوان الآتي : « أطلس جديد يحتوي على جميع أجزاء العالم يذكر بدقة الإمبراطوريات والممالك والدول والجمهوريات . »

عنوان الخريطة التي نحن بصدد دراستها هو الآتي : « خريطة مصر والنوبة والحبشة من عمل جيوم دي ليل عضو الأكاديمية الملكية للعلوم بباريس ». مقياس الخريطة هو 58 سم عرضاً و 54 سم طولاً . المساحة التي تغطيها الخريطة تقع بين خطي عرض 5 جنوباً و 35 شمالاً وبين خطي طول 30 غرباً و 70 شرقاً .

أما فيما يتعلق بمقياس رسم الخريطة فإن جيوم دي ليل يعطي المقاييس الآتية :

1 ـــ لكل 20 ميل بحري (5,555 كم) مايقابل درجة واحدة .

2 ـــ لكل 25 ميل عادي (4,444 كم) مايقابل درجة واحدة .

واضع هذه الخريطة جيوم دي ليل ولد سنة 1675 ومات سنة 1726 حظي على مرتبة جغرافي أول لملك فرنسا لويس الخامس عشر سنة 1718 . تتلمذ على يد عالم الخرائط الفرنسي الشهير كاسيني . عين عضواً بأكاديمية العلوم سنة 1702 . من بين الخرائط الهامة التي وضعها دي ليل نجد الآتي : خريطة العالم والقارات الأربع سنة 1700 ، الأطلس الجغرافي الذي نشر سنة 1700 إلى سنة 1712 ، خريطة الميسيسبي عام 1701 ، ثم الأطلس الجديد سنة 1730 .

مدن الساحل العربي من الخليج التي يذكرها دي ليل في هذه الخريطة هي الآتي : مسقط (Mascate)، عُمان (Oman)، صحار (Isle de Sohar)، أطلال صحار (Ruines of Sohar)، جلفار (Julphar or Giolffar)، تاروت (Tarout)، القطيف (El _ Catif)، البحرين (I.de Bahrein)، شط

العرب (le Shatel Azab R.)، البصرة .

هناك أربع ملاحظات على الخارطة :

أولاً :

جيوم دي ليل قد كتب على سطح الخليج في مواجهة الساحل العربي العبارة « صيد اللؤلؤ » هذا طبعاً لشهرة المنطقة ونشاطها كمصدر أساسي من مصادر الحصول على اللؤلؤ .

ثانياً :

كذلك كتب على الساحل الفارسي للخليج العبارة الآتية : « ساحل مسكون بالعرب ».

ثالثاً :

إن خريطة جيوم دي ليل هذه لتعتبر أكثر الخرائط التي تعرضنا لتحليلها حتى الآن دقة . رغم قلة عدد المدن التي يذكرها في الساحل العربي للخليج .

رابعاً :

أن مجموعها أسماء صحيحة ومطابقة للواقع .

(Turquie, Empire, Turquie en genaral 33)

واضع هذه الخريطة غير معروف فهي لاتحمل أي اسم لعالم خرائط ما كان . وأيضاً لاتحمل تاريخ وضعها . لذلك فهذه الخريطة من المهم دراستها لعلنا نستطيع أن نحدد هنا ولو بالتقريب تاريخ وضعها، وهذا ما سنحاول أن نقوم به هنا .

مساحة الخريطة هنا هي : 46,3 سم عرضاً و 34,5 سم طولاً . وهي محصورة بين خطي العرض 10 جنوباً و 50 شمالاً وبين خطي الطول 40 غرباً و 100 شرقاً .

فيما يتعلق بمقياس رسم الخريطة فإن واضعها يعطينا المعلومات الآتية :

1 ــ كل 90 ميلاً ألمانياً (7,407407 كم) ممثلة على الخريطة بدرجة واحدة .

2 ــ كل 360 ميلاً إيطالياً ممثلة بدرجة واحدة كذلك .

فوق مقياس الرسم نجد صورة للسلطان التركي محمد . النص المصاحب للصورة لا يحدد بالضبط أياً من السلاطين الأتراك الذين حملوا هذا الاسم . أهو السلطان محمد الأول (1696 – 1754) أم السلطان محمد الثاني(1784 – 1839)؟.

هناك دليل على هذه الخريطة يسمح لنا أن نحدد أياً من السلطانيين كان في الحكم وقت وضعها . هذا دليل مستمد من عبارة مكتوبة على الجزء الخاص باليونان من هذه الخريطة والذي مؤداه أن اليونان مستقلة عن تركيا . وإذا علمنا أن استقلال اليونان عن الإمبراطورية العثمانية كان قد تم عام 1829 لاستنتجنا من ذلك أن السلطان محمد الذي نرى صورته هنا هو السلطان محمد الثاني . أي أن تاريخ هذه الخريطة يرجع إلى ما بين عام 1829 وعام 1839 ، أي إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

هذا مثل للمنهج العلمي المستعمل في علم الخرائط لمحاولة تحديد تاريخ الخرائط التي غفل واضعوها عن ذكر تاريخ نشرها .

عنوان هذه الخريطة يشير إلى أنها تتعلق بجزء من مملكة فارس ويشير كذلك إلى

دور ملك هرمز في الخليج كممثل لملك البرتغال .

هناك بعض الملاحظات التي يمكننا الإشارة إليها بصدد هذه الخريطة :

أولاً :

إن طول الخليج من الجهة الغربية مبالغ فيه . طبقاً لهذه الخريطة يتوغل في الأراضي العراقية أكثر مما هو الواقع بكثير .

ثانياً :

اسم البحرين مكتوب في هذه الخريطة على جزيرة البحرين فقط وليس على كل من الجزيرة والساحل المواجه لها، كما هو الحال في معظم الخرائط التي درسناها هنا .

ثالثاً :

اسم الخليج على هذه الخريطة هو الآتي : « بحر القطيف أو الخليج العربي » .

رابعاً :

من الواضح أن هذه الخريطة هي نسخة مطابقة لخريطة أقدم منها ربما ترجع إلى القرن السابع عشر أو حتى أقدم من ذلك . سبب ذلك أن الخريطة التي أمامنا لها نفس الهيئة العامة للخرائط السابقة عن القرن التاسع عشر وخصوصاً خرائط القرن السابع عشر وما سبقه . سبب آخر يدفعنا إلى هذا الفرض هو أن مدن الخليج المذكورة على هذه الخريطة تطابق من حيث العدد والاسم معظم خرائط القرن السابع عشر وما قبله فهي في ذلك مختلفة عن عدد وأسماء مدن الخليج التي تظهر في خرائط القرن التاسع عشر، والتي تتميز عند مقارنتها بما سبقها بالدقة والمطابقة للواقع .

(Orient, A.F., 1802, Turqui Europe)

هذه الخريطة من وضع العالم الألماني فرانز لودفج جوسيفيلد . مساحتها 54 سم عرضاً و 44,4 سم طولاً وهي محصورة بين خطي العرض 15 جنوباً و 45 شمالاً وبين خطي الطول 25 غرباً و 85 شرقاً .

أما عن واضع هذه الخريطة جوسيفيلد فنحن نعلم أنه ولد سنة 1744 ومات سنة 1807 وأنه عمل مساعداً لعالم الخرائط هرمان هيرز . جوسيفيلد قد وضع الخرائط الآتية : براند نبرج عام 1774 ، الولايات المتحدة الامريكية عام 1784 ، القارة الامريكية عام 1796 ، فيمار عام 1800 ، جوسيفيلد عمل أيضاً مساعداً لعالم الخرائط جسباري .

عنوان الخريطة التي أمامنا هنا هو الآتي : « خريطة الإمبراطورية العثمانية في أوربا وآسيا وأفريقيا . »

أما بخصوص مقياس الرسم في هذه الخريطة فإن جوسيفيلد يذكر الآتي :

1 ـــ إن كل 80,15 ميل ألماني ممثل بدرجة واحدة على الخريطة .

2 ـــ إن كل 200,66 ميل تركي ممثل بدرجة واحدة .

3 ـــ إن كل 100 ميل أرمني وكل 25 فرسخ وكل 200,56 ميل عربي أيضاً ممثلة بدرجة واحدة على الخريطة ما يعادل مسافة عشرة أيام، التي تقطعها قوافل الجمال وهي ماتعادل $4\frac{1}{5}$ ميل .

إن أول خطوط الطول التي استعملها جوسيفيلد في هذه الخريطة يقع على بعد 20 درجة شرق مدينة باريس .

فيما يتعلق بمدن الساحل العربي للخليج نحن نجد أن عدد المدن التي يذكرها جوسيفيلد في هذه الخريطة محدود إذا قارنا خريطته هذه بالخرائط السابقة لها والتي عرضناها في غضون هذا البحث . هذه المدن هي :

مسقط (Moscat)، فحل (Fahl)، بركة (Burka)، صحار (Sohar)، عُمــان (Oman)، جزيرة صري (Souadi Island)، كلبا (Kalba)، دبا (Dobba)، جلفار (C. Dslartfaar)، الشارقة (Scharedsje)، حوار (Huale)، البحرين (Island of Bahrejn)، تاروت (Tarut)، القطيف (Katif)، الكويت (Kouet)، صفوان (Zofan)، الزبير (Zobeyr)، البصرة (Basrah) .

هناك بعض الملاحظات التي يمكن أن نذكرها بصدد هذه الخريطة :

أولاً :

مكتوب على جزء من الشاطئ العربي للخليج « ساحل غير معروف ».

ثانيا :

على جزء آخر من الساحل مكتوب « شاطئ اللؤلؤ ».

ثالثاً :

إن اسم الكويت يظهر أول مرة على خريطة من ضمن الخرائط التي درسناها طوال هذا البحث .

يتضح مما ذكرناه بخصوص خريطة جوسيفيلد المعروضة هنا أن هذه الخريطة على درجة كبيرة من الدقة والعناية.وأن الساحل العربي للخليج ليس مليئاً بأسماء مدن وأماكن ليس لها مقابل في الواقع هنا، بالعكس من معظم الخرائط السابقة، عدد المدن والقرى والجزر محدود للغاية ولكن برغم ذلك كل منها يحمل اسماً حقيقياً واقعياً . أما بخصوص المنطقة التي لم يعلم عنها جوسيفيلد الكافي من المعلومات فإن أمانته العلمية أملت عليه أن يكتب على هذه المنطقة العبارة « ساحل غير معروف » بدلاً من أن يكتفي بنقل أسماء تقريبية أو محرفة أو شبه صحيحة كما هو الحال في معظم خرائط القرنين السابع عشر والثامن عشر .

(VANDERMAELEN, Ph. ,**Atlas Universal**, VOL II, Bruxelles, 1827)

هذه الخريطة من وضع عالم الخرائط البلجيكي فيليب فاندرمالين نشرها في المجلد الثاني من « الأطلس الجامع » الذي قام بنشره في ستة مجلدات من عام 1825 إلى عام 1827 .

الساحل العربي للخليج يحتل ثلاث خرائط في هذا الأطلس هي الخريطة رقم 78 التي عنوانها (جزء من بلاد نجد)والخريطةرقم 79 وعنوانها (الخليج الفارسي) ثم الخريطة رقم 80 وعنوانها (بيلوشستان).

. هذه الخريطة رقم 80 تحتوي على المدخل الشرقي للخليج وكذلك على جزء من خليج عُمان . بجانب ذلك بعض الجزر غير البعيدة من مدخل الخليج من ناحية الساحل العربي، في هذه الخريطة رقم 80 ليس هناك أي اسم لأي من المدن أو الجزر مذكور . هنا كل من الساحل العربي والجزائر ملون باللون الأخضر .

في الخريطة رقم 79 فيليب فاندرمالن يعطي الجزء الأكبر من الخليج مع أسماء البعض من مدنه :

دبا (Deba Baic)، الرمس (Rumss)، رأس الخيمة (Khyma)، عجمان (Aymaun)، الشارقة (Shurga)، البحرين (I. Bahreyn)، القطيف (El Qatif)، تاروت (I. Tarout)، سيهات (Syahale) .

في الخريطة رقم 78 فندرمالين يعطي الطرف الغربي من الخليج ويذكر اسمين من مدنه :

الفنيطيس (.Felandj I)، والكويت (El Koueyt) .

يجب أن نذكر هنا أن جميع خرائط « الأطلس الجامع » في أجزائه الستة بما فيها من خرائط الخليج، مرسومة حسب مقياس رسم واحد . أي بعكس ما سبقه من

أطالس، جميع خرائط هذا الأطلس موحّدة من ناحية مقياس الرسم . هناك خاصية أخرى لهذا الأطلس هي أن خرائطه ليست منقوشة على لوحات نحاسية ثم مطبوعة بعد ذلك . وإنما هي منقوشة على حجر حسب طريقة الليتوجرافيا، ثم مطبوعة بعد ذلك على الورق . هذه الطريقـة أقل نفقـة واسـرع بكثير من طريقة النقش على اللوحات النحاسية .

فيليب فاندرمالين أرفق مع هذه الخرائط الثلاثة للخليج نصاً جغرافياً من وضع ديلافو يعدد فيه الصفات الجغرافية والنشاط التجاري وثروة اللؤلؤ بالخليج .

هذه الخرائط الثلاثة للخليج تمتاز بالدقة المتناهية من جهتين :

1 ــ من جهة رسم الساحل والجزر .

2 ــ من ناحية العناية في نقل أسماء المدن والأماكن عناية كبيرة .

(Tarquie 1859)

هذه الخريطة لعالم الخرائط والجغرافي الألماني كارل فرديناند فايلاند (1847 – 1782) مساحتها 5802 سم عرضاً و 4609 سم طولاً وهي محدودة بخطي العرض 10 جنوباً و 50 شمالاً وخطي الطول 15 غرباً و 70 شرقاً .

عنوان الخريطة كالآتي : « الإمبراطورية العثمانية، وكذلك ممتلكات باشا مصر في أوربا وآسيا وشبه الجزيرة العربية تشتمل جزءاً من النمسا وروسيا وما قبل الهند ». هذه الخريطة قد نشرت في فيمار عام 1839 وقد قام بنشرها المعهد الجغرافي هناك .

أما فيما يتعلق بمقياس الرسم فإن فايلاند يذكر أن : فيما يتعلق بالميل الجغرافي الألماني فإن كل $\frac{1}{11,200000}$ من الميل يعادل درجة واحدة من درجات الطول، ونفس المقياس فيما يتعلق بدرجات العرض .

بجانب ذلك فإن فايلاند يزودنا بقائمة تتكون من اثنتي عشرة وحدة سياسية، كل وحدة منها ممثلة على الخريطة بلون خاص . هذه القائمة تبدأ بممتلكات الإمبراطورية العثمانية في أوربا وآسيا ثم بمصر والممتلكات التابعة لباشا مصر وتنتهي القائمة بالمقاطعات النمساوية .

كارل فرديناند فايلاند يذكر المدن الآتية من مدن الساحل العربي للخليج : مسقط (Maskat)، سيب (Sib)، بركة (Barka)، السويق (Suweik)، صحم (Soham)، صحار (Sohar)، لوى (Luwa)، شناص (Schinas)، المحرق (Maharac)، خورفكان (Kharfakan)، دبا البيعة (Dibbah)، مسندم (Mussendam)، دبي (Debai)، رأس المشعاب (Ras Matscherib)، خور العديد (Khor Alladied)،رأس المطبخ (Ras Mutbutsew)، البحرين (I. Bahrein)، القطيف (El Khatif)، رأس تنورة (Ras Tanurah)، الكويت (El Koweit)، بوبيان (I. Babia)، الدوحة

(Dorah)، البصرة (Basra) .

من الواضح أن هذه الخريطة على درجة عالية من الدقة . الدليل على ذلك أن أسماء المدن والجزر التي يذكرها هنا فايلاند تتطابق مع الغالبية العظمى منها الأسماء الحقيقية لتلك الأماكن . من البين أن عالم الخرائط قد اعتمد على مصادر يمكن التعويل عليها فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة بالخليج . هذه المصادر تتفق تماماً مع شروط المنهج العلمي الحديث .

إن نتيجة هذه الدراسة التي قمنا بها الآن والتي اشتملت مدة مئتي عام من تاريخ علم الخرائط في أوربا لتطلعنا على تطور واضح لاشك فيه : في القرن السابع عشر كانت الخرائط في أغلبها غير دقيقة . عالم الخرائط في ذلك العصر كان شغله الأساسي هو تقديم أكبر كمية ممكنة من المعلومات بدون أن تتاح له الفرصة أن يمتحن مصادر هذه المعلومات . تلك المصادر التي كانت في أغلب الأحيان غير دقيقة، في ذلك العصر كان عالم الخرائط يذكر أكبر عدد ممكن من أسماء المدن والجزر والأماكن بدون تحرٍّ . ليس إلا عدداً قليلاً منها، مثل المدن الشهيرة، كمسقط ودبي والبصرة كانت تسميته صحيحة أما الباقي منها فهي أسماء محرفة أو مخترعة .

ليس قبل القرن الثامن عشر، عندما ظهر النقد العلمي للمصادر، عندئذ ترك عالم الخرائط أماكن خالية من الأسماء بالمرة على خرائطه معترفاً بذلك أن هناك مناطق مازالت غير معروفة له، أو حتى مجهولة بالنسبة له كلية .

هذا الموقف الإيجابي من جانب عالم الخرائط في القرن الثامن عشر قد سمح بدون شك، لعلم الخرائط أن يتقدم تقدماً مطرداً حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما بدأت تظهر في الخرائط معلومات صحيحة ودقيقة وموثوق بها .

آمل أن يكون هذا البحث قد أثبت لنا أهمية دراسة الخرائط الأوربية القديمة كوسيلة علمية دقيقة لمعرفة مكانة العالم العربي عامة والخليج خاصة في تاريخ العلوم في أوربا .

ابن ماجد والبرتغال

الدكتور : أنور محمد عبد العليم

البرتغال وتجارة الهند :

خـلا ل القـرن الخامس عشـر الميـلادي، كانت تجارة الهند في أيدي العرب، والطريق إليها عبر الثغور المصرية والشامية في البحر الأحمر في قبضة المسلمين . ولما كانت حاجة أوربا إلى توابل الشرق ماسة للغاية، فقد سعى الإسبان والبرتغال بصفة خاصة إلى البحث عن طريق آخر يوصلهم إلى الهند اعتماداً على فكرة كروية الأرض واتصال بحر الظلمات بأرض الهند . أما كريستوفر كولمبس الإيطالي الجنسية فقد أبحر بأسطول جهزه له ملك إسبـانيـا في 3 أغسطس سنة 1492 غرباً في بحر الظلمات فاكتشف نصف الكرة الغربي الذي ظن أنه الهند في أول الأمر وعادت مراكبـه إلى إسبانيا في 15 مارس سنة 1493 دون أن يدري أنه اكتشف الدنيا الجديدة .

وأما البرتغـال فقد سـلكوا سبيـلاً آخر، إذ قاموا بعدة محاولات ملاحية منذ منتصف القرن الخامس عشر حول الساحل الغربي لأفريقيا بغية الوصول إلى الهند . واكتشف ربانهم المسمى برتليميو دياز رأس العواصف (الذي الرسمي رأس الرجاء الصالح فيما بعد). في عام 1487 – 1488 أي قبل أن يبحر فاسكو دي جاما إلى الهند بعشر سنوات . وفي نفس الوقت كانوا يرسلون الجواسيس لجمع المعلومات عن الهند، عن طريق السفر عبر البحر الأحمر متظـاهرين بالتجارة . ومن هؤلاء بعثة الفونسو دي بايقا وبيرو دي كوفيلهام وقد سافرا إلى مصر سراً قبل كولمبس بعشر سنوات أيضاً متظاهرين بالإسلام وأخذا مركباً عربياً من القلزم إلى عدن ومن ثم إلى الهند حيث زار دي كوفيلهام ميناء قاليقوط على الساحل الغربي للهند وهو أول ميناء نزل به دي جاما فيما بعد،ثم عبر دي كوفيلهام المحيط الهندي على سفينة هندية من الشرق إلى الغرب،ونزل بميناء سفلة على ساحل أفريقيا الشرقي على خط عرض 20 درجة جنوب خط الاستواء . وعاد إلى مصر عن طريق النيل ومعه ذخيرة من

المعلومات عن تجارة التوابل والطريق إلى الهند . كل هذا جرى قبل أن يبحر دي جاما من البرتغال لأول مرة بعشر سنوات تقريباً .

ومن ثم يمكن القول بأن بعثة دي جاما إلى الهند قد أحسن تخطيطها والاعداد لها وكان البرتغال على علم بما يجري في المحيط الهندي في ذلك الوقت .

دي جاما يبحر إلى الهند :

أبحر دي جاما من ميناء صغير بالبرتغال في يوم 25 مارس سنة 1497 ميلادية على أسطول من ثلاث سفن،هي سان جبرائيل وهي سفينة القيادة وسان رافائيل بقيادة باولو شقيق دي جاما، وسان ميجيل وتولى قيادتها الربان نيقولا كولخا وكان جملة بحارة الأسطول مائة وخمسين فرداً .

احتضن فاسكو دي جاما الساحل الغربي لأفريقيا طول الوقت حتى وصل إلى رأس الرجاء الصالح في أقصى الجنوب من القارة الأفريقية، فاجتازها في يوم 22 نوفمبر من نفس السنة وواصل رحلته إلى الساحل الشرقي لأفريقيا فوصل إقليم ناتال في عيد الميلاد وسميت الأرض بهذا الإسم تيمناً بالمناسبة (كلمة ناتال تعني الميلاد وهي مناسبة ميلاد المسيح).

وفي شهر يناير سنة 1489 ، فقد دي جاما السفينة سان ميجيل نتيجة العواصف وحمل بحارتها إلى السفينتين الباقيتين وواصل الملاحة شمالاً على الساحل الشرقي لأفريقيا حتى بلغ ثغر ماليندي في مملكة كامبيا (كينيا الآن) على خط عرض 3 درجة جنوب خط الاستواء وذلك في شهر مارس سنة 1498 . وهناك ألقى مراسيه لبضعة أسابيع للاستجمام والإعداد لرحلة عبور المحيط . كما عرف أن الهند تبعد عن ماليندي بنحو 1600 فرسخ . وفي تلك المدة تصادق الربان البرتغالي مع ملك ماليندي وطلب إليه أن يوفر له مرشداً يعينه على معرفة الطريق إلى الهند، فأرسل إليه الملك « رباناً مسلماً من جوزرات » . وأبحر دي جاما يوم 24 أبريل سنة 1498

بإرشاد الربان المذكور شرقاً إلى الهند فوصل ميناء قاليقوت بعد 22 يوماً دون عناء . وتجمع المصادر البرتغالية ــ كما سنرى عما قليل ــ على أن اسم الربان المذكور هو المعلم « كانا » أو « كاناكا » . ومن المعلوم أن مقاطعة جوزرات كانت ولاتزال تابعة للهند وتقع في الركن الشمالي الغربي لشبه القارة الهندية على ساحل المحيط جنوب السند ومن موانيها المشهورة ديو وسورات وبين سكانها مسلمون منذ القرن الأول للهجرة .

الملاحة عبر المحيط الهندي :

والواقع أن الملاحة عبر المحيط الهندي من الساحل الأفريقي إلى الساحل الهندي مع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية صيفاً (من شهر مارس أو أبريل إلى شهر سبتمبر) كانت معروفة لربابنة المحيط الهندي من العرب والعجم والهنود والزنوج من قبل عصر دي جاما وابن ماجد بقرون طويلة . وتعكس هذه الرياح اتجاهها في فصل الشتاء فتسير الملاحة في الطريق المضاد أي من الهند وجنوب الجزيرة العربية نحو ساحل الزنج . وفي ذلك يقول ابن خرداذبة في كتاب « المالك والممالك » الذي يرجع زمن تأليفه لعام 846 ميلادية (القرن الثالث الهجري) :

« وسئل اشتيامو البحر عن المد والجزر فذكروا أنه يكون في بحر (فارس) على مطالع القمر وأنه لايكون في البحر الأعظم (المحيط الهندي) إلا مرتين في السنة مرة يمدّ البحر في شهور الصيف شرقاً بالشمال ستة أشهر ... ومرة يمدّ في شهور الشتاء غرباً بالجنوب ستة أشهر (يعني التيار البحري) ».

وفي كتاب « عجائب الهند » للربان بزرج بن شهريار الرامهرمزي (القرن الرابع الهجري) يرد ذكر ربابنة هنود وعرب وعجم كانوا يسافرون بين موانئ الخليج العربي والهند وساحل الزنج باستمرار .

وفي عصر ابن ماجد كانت قوانين الملاحة مدونة ضمن قوانين الدول المطلة على

المحيط الهندي مثلما في قوانين مملكة الملايو بأمر الأمير محمود شاه، وابن ماجد نفسه كانت له مساجلات في علم البحر مع ربابنة عجم وعرب وزنوج وهنود وقد قرأ مؤلفاتهم . وفي ذلك يقول في « حاوية الاختصار »[1]:

قد راح عمري في المطالعات وكثرة التساؤل في الجهات
وكم رأيت من خطوط الشول ونظمهم والنثر والفصول
وكم نظرت في الحساب العربي وحسبته الهند مذ كنت صبي
....
وفي جنوبي جاوة والصين والفال علماً صادقاً يقيني

كما يقول في أرجوزته المسماة « ميمية الإبدال » في معرض انتصاره على قرنائه من الربابنة الآخرين :

وألقوا سلاح الجهلة لما تحققوا مقالي في عرب وعجم وديلم .

مرشد سفينة دي جاما في المصادر البرتغالية :

تجمع المصادر البرتغالية ومنها يوميات الرحلة وأقوال المؤرخين البرتغال الذين أرخوا لحملات البرتغال في المحيط الهندي[2] ولعصر الملك مانويل الثاني الذي حكم البرتغال بين سنوات 1495 – 1521 م وتمت الكشوف الجغرافية الكبرى في المحيطات على عهده (وتوافق هذه الفترة حكم السلطان الغوري في مصر 1501– 1516م) على أن مرشد فاسكو دي جاما في رحلته الأولى إلى الهند كان رباناً هندياً مسلماً من جوزرات بالهند (وقد خلط البعض بين كلمة مسلم وكلمة بربري التي كانت تطلق على مسلمي الأندلس وقتئذ) كما أن كلمة معلم أو « معلمو » بالسواحلية تعني الربان أو الحاذق في صنعته، وهي كلمة كانت شائعة الاستعمال

بين ربابنة المحيط الهندي في ذلك الوقت على اختلاف جنسياتهم .

يقول المؤرخ البرتغالي خوادي باروس[3] :

في هذا الصدد « في أثناء وجود فاسكو دي جاما في ماليندي تقابل مع جماعة من الهنود على ظهر سفينته وكان بينهم أحد « البربر » (يعني مسلماً) من الجوزرات يدعى معلمو « كانا » جرت بينه وبين مواطنينا (يقصد البرتغال) محادثات . ورغبة منه (من الربان المذكور) في إرضاء ملك ماليندي قبل أن يتوجه بهم إلى الهند . وبعد محادثات بينه وبين دي جاما رضي الأخير كل الرضى عن معلوماته[5] ووجد فيه « كنزاً » ثميناً وخشية أن يفقده، أمر على الفور بالإبحار إلى الهند، في 24 أبريل وصل إلى قاليقوت في 20 مايو أي في أقل من شهر، وأرسل الربان البرتغالي معلمو كانا إلى اليابسة ليبلغ ملك البلاد بوصول سفنه ».

ويقول المؤرخ البرتغالي لوبيز دي كاستنهيدا[4]

« وصل دي جاما إلى ماليندي في 15 مارس سنة 1498 م وفي 22 أبريل أرسل إليه ملك ماليندي ملاحاً من جوزرات يدعى المعلم « كاناكا » وفي 24 أبريل أبحر دي جاما بإرشاد هذا الملاح إلى قاليقوط متجهاً صوب الشرق فوصلها في 20 مايو بسلام وهي على الضفة الغربية للهند[6] ».

وحتى شاعر البرتغال العظيم في القرن السادس عشر واسمه لويس كاموس لم يذكر مطلقاً في ملحمته الشعرية اسم ابن ماجد على الإطلاق . ويقول المؤرخ البرتغالي دامايو دي جويس الذي أرخ لعصر الملك مانويل الثاني ملك البرتغال عن ملاح فاسكو دي جاما في مذكراته ما نصه « أعطى ملك ماليندي فاسكو دي جاما ملاحاً ماهراً هو « مسلم » (والنص الأصلي يعني بربرياً) من الجوزرات يعرف باسم معلمو كانا ».

ويتضح من هذه النصوص السابقة كلها والتي يؤيد اتفاقها وصحتها اتفاق

التواريخ واسم الملاح المرشد وموطنه الأصلي على أنه ربان هندي مسلم من مقاطعة الجوزرات . ثم إن تواريخ هذه النصوص أقرب ما يكون لرحلة فاسكو دي جاما إلى الهند، وما جاء من نصوص بعدها متعلقاً بجنسية المرشد متأخر في الزمن عنها .

ويحق لنا أن نتساءل إذن عمن أقحَم ملاحنا العربي القدير أحمد بن ماجد النجدي في هذه القضية وتحت أية ظروف . وهل يعقل أن يحرف اسم المعلم « كانا » أو « كاناكا » إلى أحمد بن ماجد . وهل كانت مقاطعة جوزرات الهندية موطناً لملاحنا العربي بحال من الأحوال ؟

المستشرق الفرنسي جابرييل فران وابن ماجد :

جابرييل فران مستشرق فرنسي ألمعي أجاد اللغات الشرقية كالعربية والفارسية والتركية إجادة تامة، كما ألم بلغات شرقية أخرى كالسواحلية والأزدية والهندية ولغة الملايو وقد عمل في السلك السياسي الفرنسي لفترة طويلة في بلاد الشرق، وأغلب إنتاجه العلمي يتصل بالملاحة العربية ولا يمكن بحال من الأحوال إلا أن ندين له بالفضل في هذا المجال، وليس معنى هذا أن نأخذ كل ما يقول قضية مسلمة لا تقبل المناقشة .

في الثلث الأول من القرن العشرين عثر فران في أرشيف المكتبة الأهلية بباريس على مخطوطين هامين عن الملاحة العربية الأول منهما تحت رقم 2292 والثاني تحت رقم 2559 . ويتكون المخطوط الأول من 181 ورقة تحتوي على تسع عشرة أرجوزة تصف الطرق البحرية وأصول الملاحة الفلكية في البحر الأحمر والخليج والمحيط الهندي للربان العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي بن أبي الركائب النجدي حاج الحرمين الشريفين المكنى بالمعلم العربي وناظم القبلتين (مكة وبيت المقدس) وبشهاب الدنيا والدين وبأسد البحر وليث الليوث . أما المخطوط الثاني فيتكون من

187 ورقة تحتوي على خمس أراجيز في علم البحر، اثنتان منهما لابن ماجد وتكرر تدوينهما في المخطوط الأول . أما ثلاث الأراجيز الباقية فلربان عربي ماهر آخر عاصر ابن ماجد هو سليمان المهري من عرب الشجرة وهذه المصنفات الأخيرة تحمل عناوين : العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، والمنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر، وتحفة الفحول في تمهيد الأصول، وهي مرشدات ملاحية لا تختلف كثيراً عما ورد في مؤلفات ابن ماجد، والمرجح أن سليمان المهري توفي بعد ابن ماجد بسنوات وذلك في حوالى عام 1511 م .

درس فران المخطوطات الملاحية الآنفة الذكر، كما اطلع على كتاب ملاحي هام كتبه باللغة التركية الأميرال التركي سيدي علي حسين المعروف باسم كاتب رومي وسماه باسم « المحيط في علم الأفلاك والأبحر » عام 1557 م . وكان لهذا الملاح شرف قيادة حملة بحرية كبرى قامت من السويس في عام 1554 وقوامها عشرون سفينة لمحاربة البرتغال في المحيط الهندي، وتقابل في بحر العرب مع 43 سفينة برتغالية وجرت بين الأسطولين معركة حامية زاد من قسوتها هبوب العواصف التي شتتت مراكب الفريقين فلجأ الأميرال التركي بما تبقى من أسطوله، وقوامه تسعة سفن، إلى ميناء ديو وسورات بالهند وقضى الأميرال قرابة سنتين في الخليج العربي وقف فيهما على مؤلفات الشيخين أحمد بن ماجد وسليمان المهري وضمنها كتابه الآنف الذكر .

وقد ربط فران بين كتاب « المحيط » هذا وبين المصادر العربية لابن ماجد والمهري ونقد المؤلف التركي نقداً مراً إذ ظن أنه ترجم ترجمة حرفية أعمال الشيخين(5) . وللإنصاف نقول أن فران قد غالى في نقده، فقد أشار الأميرال التركي إلى أعمال الشيخين كما احتوى كتابه على معلومات وخرائط جديدة . ومما تجدر الإشارة إليه أن كتاب « المحيط » لا ترد فيه أية إشارة لقصة إرشاد ابن ماجد

لفاسكو دي جاما إلى الهند، علماً بأن الربان التركي قد عاش قرابة سنتين في الخليج العربي واختلط بربابنته واطلع على المؤلفات العربية وأشاد بأصحابها وبابن ماجد كمؤلف وربان قدير بصفة خاصة، ولو أنه سمع من الربابنة العرب شيئاً عن قصة الإرشاد المزعومة لما تردد في إثباتها . هذا وقد عاد الربان التركي إلى القسطنطينية عن طريق السند وخرسان وقوبل في مدينة أحمد أباد عاصمة « جوزرات » بترحاب كبير وكان كاتباً وشاعراً وأديباً له مكانته، وتوفي هذا الربان في عام 1559 ميلادية ودفن في ديار بكر .

وفي عام 1922 م نشر جابرييل فران في حوليات الجمعية الجغرافية بباريس عجالة بعنوان « الربان العربي لفاسكو دي جاما في القرن الخامس عشر الميلادي »(6) ذكر فيها ابن ماجد بالاسم على أنه الربان المعني الذي أرشد سفينة البرتغال وقد اعتمد فران على نص عثر عليه في مخطوط تاريخي لمؤرخ يمني هو قطب الدين النهروالي . وقد ولد هذا المؤرخ في سنة 917 هـ وتوفي في سنة 990 هـ ويوافق هذا التاريخ سنوات 1511 – 1582 م . وبمعنى آخر لم يكن النهروالي قد ولد بعد يوم حضر فاسكو دي جاما إلى الهند، كما أن تاريخ ميلاد النهروالي يوافق السنة التي توفي فيها سليمان المهري وبالتالي يكون قد مضى على وفاة ابن ماجد سنوات . وقد لقي مخطوط النهروالي الذي يحمل عنوان « البرق اليماني في الفتح العثماني » عناية في القرن الماضي (1894) من المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي كما اشرف على تحقيقه وطبعه مؤخراً المؤرخ السعودي حمد الجاسر بمدينة الرياض .

ماذا قال النهروالي عن ابن ماجد :

يقول النهروالي تحت باب « في ذكر انتقال الدولة باليمن من بني طاهر إلى الأمير حسين من الحراكسة » : « وقع في أول القرن العاشر (الهجري) من الحوادث الفوادح والنوادر دخول الفرتقال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند

وكانت طائفة منهم يركبون زقاق سبتة (مضيق جبل طارق) في البحر ويلجون في الظلمات (أي في بحر الظلمات وهو المحيط الأطلسي) ويمرون خلف جبل القمر ـــ بضم القاف وسكون الميم وجمع أقمر أي أبيض وهي مادة أصل بحر النيل ـــ ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق، أحد جانبيه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج لاتستقر به سفائنهم وتتكسر ولاينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ولايخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند، إلى أن خلص منهم غراب (سفينة) إلى بحر الهند فلازالوا يوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد، صاحبه كبير الفرنجة وكان يقال له الأملندي (يعني الملندي أي الأميرال) وعاشره في السكر فعلمه الطريق في حال سكره، وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا في بحر الهند وبنوا في كوه ـــ بضم الكاف العجمية وتشديد الواو بعدها هاء اسم لموضع من ساحل الركن هو تحت الإفرنج الآن (يقصد جوا) ـــ من بلاد الركن قلعة يسمونها كوتا (اسم القلعة بالبرتغالية) ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ويأخذون كل سفينة غصباً إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسلمين ».

تعقيب على رواية النهروالي :

واضح أن قطب الدين النهروالي لم يكن قد ولد بعد يوم أن دخل فاسكو دي جاما إلى بحر الهند ولا في السنوات التي تعاقبت فيها حملات البرتغال على المنطقة، واستطاعوا فيها السيطرة على ساحل الهند الغربي . ثم أن كتابه الآنف الذكر يرجع تاريخ تأليفه لعام 1577 م أي بعد دخول البرتغال إلى المحيط الهندي بنحو ثمانين سنة

فمن أين استقى معلوماته عن ابن ماجد وإرشاده لأسطول البرتغال، وروايته تخلو من أي مصدر يمكن الاعتماد عليه . ولو كانت هذه الرواية صحيحة ومتداولة لكان الأجدر بالربان التركي مؤلف كتاب « محيط » أن يذكرها، وهو الذي كان أقرب في تسلسل الحوادث عن النهروالي بنحو ربع قرن .

فأما الحملة التي يشير إليها النهروالي بقيادة الأمير حسين الكردي فكانت بحرية مصرية أرسلها السلطان قانصوه الغوري في عام 1505 م الموافق 911 هـ، أي قبل دخول الأتراك العثمانيين مصر، وأبحرت من السويس وبصحبتها جماعة كبيرة من البنائيين والنجارين مع الجنود، لتحصين ميناء جتو وإنشاء الأبراج اللازمة للدفاع عنها إذا ما فكر البرتغال في مداهمتها . وفي نفس الوقت، كان أسطول البوكيرك البرتغالي قد غادر المياه الهندية واستولى على جزيرة سوقطرة وأغار على عدن وعبر باب المندب بقصد الاتصال بملك الحبشة للتحالف معه ضد المسلمين، فتصدى له الأسطول المصري وطارده وتمكن من إنزال الهزيمة به على سواحل الهند في موقعة شوال، وظل البحر الأحمر منيعاً على الأسطول البرتغالي لايستطيع دخوله . وواضح من رواية النهروالي أيضاً أن ابن ماجد دل البرتغال على الطريق إلى الهند من رأس الرجاء الصالح وهي المنطقة التي تتطلب التوغل في البحر أثناء الدوران حول الرأس، وابن ماجد كما هو معلوم لم يكن له خبرة ولا علم بسواحل أفريقيا إلى الجنوب من سفلة .

أما التهمة التي ألصقها هذا المؤرخ اليمني بالربان العربي الورع الفاضل والتقي الأمين وهي أنه « عاشر الربان البرتغالي في السكر ودله على الطريق في حال سكره » فضربة كبرى تجافي الحق والمنطق وتتنافى مع ما اتصف به هذا الربان من أخلاق فاضلة وما كان عليه من ديانة وورع وخشية لله وهو القائل :

خف من الله ولا تؤذ أحد　　　هذا طريق الحق لاتخشى أحد

وهو الذي كان لايخرج إلى البحر قبل أن يسجد شكراً لله وفي ذلك يقول في قصيدته الملكية :

ركبت على اســم الله مجري سفينتي   وعجــلت فيهــا بـالصــلاة مبــادراً

ولطالما كان يحض الربابنة الآخرين على دوام النظافة والطهارة في البحر وفي ذلك يقول في كتاب االفوائد :

« ينبغي أنك إذا ركبت البحر تلزم الطهارة فإنك في السفينة ضيف من أضياف الباري عز وجل فلا تغفل عن ذكره ».

أو قوله : « كن حازماً قوياً في أقوالك وأفعالك، ولا تصحب من لا يعطيك في ما يفيد وكن شجاعاً عارفاً ذا بأس، قليل الغفلة كثير الهمة »

« واترك مالا يعنيك وانه جميع الركاب عن كثرة المزاح في البحر، فما ينجم عنه إلا الشر والبغض والعداوات . ولا تركب سفينـة الهداية والدلالة وأنت فيها غير مطا ع ».

ثم تأمل قوله : « ولا تكن ذا غفلة فإن الخطأ (في البحر) فعل داعٍ لتلف الأرواح والأموال ». فهل يتفق كل ذلك والتهمة الشنيعة التي ألصقها النهروالي بربابننا الحازم الوارع ؟ ثم أن ابن ماجد، وقت وصل دي جاما إلى المحيط الهندي، كان قد جـاوز السبعـين من عمره وأغلب الظن أنها سن لا تسمح بعبور المحيط بمركب شراعي في ذلك الوقت .

وأخيراً وليس آخراً فهل كان الربان البرتغالي من السذاجة ــ إذا صدقنا كلام النهروالي ــ بحيث يسلم قيادة سفينته لرجل لعبت الخمر برأسه .

وهـل كان ابن ماجد وهو الربان المثقف الواعي الذي يعرف جيداً بأن تجارة التوابل كانت في أيدي العرب ــ ليسمح للبرتغال بانتزا ع هذه السيادة منهم فيدلهم على الطريق إلى الهند بهذه البساطة . اللهم اشهد .

ماذا يقول علماء السوفيت ؟

توجد في مكتبة الاستشراق في مدينة لينغراد مخطوطة تحتوي على ثلاث أراجيز في علم البحر لم تنشر من قبل ومصنفها هو الملاح العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد . وقد نوه بهذه المخطوطة المستشرق السوفيتي الشهير أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه المنشور عام 1945 بعنوان « مع المخطوطات العربية ». هذا وقد كلف هذا العالم تلميذه ثيودور شوموفسكي بتحقيق هذه المخطوطة والتعليق عليها في رسالة قدمها أخيراً للحصول على درجة الكانديدات(7) .

وقد قام شوموفسكي بتصوير الأراجيز في رسالته، ولم يقم بطبعها بحروف المطبعة ربما لصعوبة فك رموزها . واهتم بتقطيع الأوزان االشعرية، وهو يعترف بصعوبة المادة التي احتوتها الأراجيز .

والغريب في الأمر أنه لاتوجد إشارة واحدة في هذه الأراجيز التي توحي للقارئ بأن ابن ماجد أرشد أو قاد سفينة للبرتغال أو حتى جرت محادثة على أي شكل كائناً ماكان بين الربان العربي والبرتغالي . بل على النقيض من ذلك تتضح في أرجوزته المسماة بالأرجوزة السفالية (نسبة إلى ثغر سفلة على الساحل الشرقي لأفريقيا)، ثورة عارمة على البرتغال المستعمرين المستبدين الذين كانوا يضمرون الشر والبغض للإسلام والمسلمين .

ومع ذلك فقد جرى كراتشكوفسكي ومن بعدِهِ شوموفسكي على سنة جابرييل فران في نسبة قصة إرشاد ابن ماجد لسفينة فاسكو دي جاما . بل إن رسالة شوموفسكي تعتمد اعتماداً كبيراً على مؤلفات فران ومراجعه، وتحاول هي الأخرى تطويع النصوص البرتغالية لخدمة نفس الغرض .

إن المرء ليعجب حقاً إن كان شوموفسكي قد فهم الأبيات الآتية لابن ماجد، التي وردت في أرجوزته السفلية التي صورها في رسالته، فكيف تسول له نفسه أن

يلصق بابن ماجد تهمة هو منها بريء، بل ويتشدق بمثل قوله :

« ولأول مرة في التاريخ البشري وبفضل أستاذية الملاح العربي في فنه يمهد الطريق البحري من أوربا إلى ثروات الشرق الاوسط، التي كان الغرب يتحرق شوقاً إليها »، « والطريق إلى الهند من أفريقيا لم يكن يحتاج إلى أستاذية بل كان مطروقاً لجميع الربابنة كما أشرنا من قبل ».

أو قوله : « إن الربان العربي قد قاد السفينة، ثم ندم وأنبه ضميره وهبطت حالته المعنوية » أو قوله أن ابن ماجد قَبِل أن يعمل مرشداً للبرتغال نظير أجر كبير يناله . أما الأبيات المشار إليها، فتتعلق بقدوم البرتغال من الغرب في عام 900 هـ واستغرقت رحلتهم سنتين، ومالوا للهند على اليقين ثم رجعوا مرة أخرى لساحل الزنج . وبعد ذلك بست سنوات جاؤا الهند مرة أخرى، واشتروا البيوت وصاحبوا السوامر حكام الساحل الغربي للهند وأعملوا القتل والنهب في سفن التجار المسلمين، فانقطعت رحلاتهم (المسلمين) عن هذا الساحل . يقول ابن ماجد في الأرجوزة الغالية :

جاءتها في عام تسعماية ... مراكب الإفرنج يأخاية
فجروا عامين كاملين ... فيها ومالوا الهند باليقين
وبعد ذا في عام تسعمائة ... وست جاءوا الهند يأخاية
واشتروا البيوت ثم سكنوا ... وصاحبوا وللسوامر ركنوا
والناس تضرب فيهم الظنونا ... ذا حاكم أو سارق مجنونا .

وفي موضع آخر من الأرجوزة يقول :

وجا الكاليكوت خذ ذي الفائدة ... لعام تسعماية وست زايدة
وباع فيها واشترى وحكما ... والسامري يرطله وظلما
وصار فيها يبغض الإسلام ... والناس في خوف واهتمام

وانقطع المكي عن أرض السامري   وشد جردفون للمسافري

هل توحي هذه الأبيات لأي إنسان بأن ابن ماجد قد سافر فوق سفينة برتغالية أو أرشد ربانها إلى الهند ؟

إن ابن ماجد رجل عليم صادق مع نفسه وكان على معرفة بنوايا البرتغال الاستعمارية، ولو كان مرشد سفنهم فلن يتردد في ذكر ذلك، فهو لايعرف المداراة والمداورة ولا يبيع ضميره نظير أجر مرتفع يناله كما يقول شوموفسكي . ولا يجب أن نستبعد وجود هدف سياسي من وراء تبني المستشرقين لفكرة إرشاد ابن ماجد لسفن البرتغال لإظهاره بمظهر البطل المغوار القدير بقصد استمالة العرب إلى جانبهم . ويفصح عن ذلك قول شوموفسكي نفسه في رسالته المطبوعة عام 1957 .

« وقد أخذ المبادرة منا (أي من السوفيت ويعني بالمبادرة موضوع الملاحة العربية في المحيط الهندي) فران وزملاؤه من العلماء الممثلين للإمبراطورية الفرنسية، والذين ساعدوا على تغلغل نفوذها إلى الشرق . وعلمنا بحركة غرض نبيل نحو شعوب الشرق، ويجب أن نسمع صوته وتعلى كلمته في مجال أدب الملاحة البحرية ».

كلمة أخيرة :

بقيت كلمة أخيرة لابد من ذكرها وهي أنه عندما قمنا بتقديم ابن ماجد لقراء العربية لأول مرة في كتابنا المنشور في سلسلة « أعلام العرب »[8] سنة 1967 كان يخامرنا الشك في صحة قصة إرشاد ابن ماجد لسفينة فاسكو دي جاما إلى الهند وقلنا بالحرف الواحد (ص 56) :

« وإذا كان ابن ماجد قد دون هذه الوقائع (عن البرتغال) في أراجيزه فلا يتضح من كلامه أنه أرشد البرتغال إلى الهند مما يجعلنا نشكك في صحة الرواية التي أوردها فران وأقرها العلماء السوفيت . وعلى أي حال فإن هذا الأمر يحتاج إلى مزيد من التحقيق، وربما أفردنا له بحثاً مستقلاً ».

وبالفعل قطعنا الشك باليقين في كتابنا بعنوان « الملاحة وعلوم البحار عند العرب » المنشور في سلسلة عالم المعرفة عدد يناير 1979 ، وفي بحث آخر قدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ علوم البحار، الذي عقد في وودزهول بالولايات المتحدة سنة 1980 .

الهوامش

(1) في هذه الأبيات يقصد ابن ماجد بالشول طائفة الشوليان من الهند ويسكنون ساحل كروماندل، وجزر الفال هي جزر الملاديف واللكاديف .

(2) توالت حملات البرتغال في المحيط الهندي بعد رحلة فاسكو دي جاما الاستكشافية التي تمت في السنوات 1497 – 1499 فخرجت حملة من البرتغال بقيادة ديجودياز سنة 1500 واكتشفت جزيرة مدغشقر، وفي أواخر هذه السنة نفسها خرجت حملة أخرى في ست مراكب بقيادة الفاريز كابوال وكان معه يهودي يدعى جاسبار للتفاوض مع ملك السامريين، وهم سكان الساحل الجنوبي الغربي للهند ومقره ميناء قاليقوت في احتكار تجارة التوابل . وتصدى له التجار العرب فضرب كابوال مراكبهم بالمدافع وأحرقها، ثم وصلت حملة أخرى عام 1501 من البرتغال بقيادة جان دي نوفا . وفي عام 1502 عاد فاسكو دي جاما مرة ثانية إلى الهند حاكماً عاماً عليها بأمر الملك مانويل الثاني، وتوافق سنة 1501 م سنة 906 هـ التي وردت في أراجيز ابن ماجد، متعلقة بعودة البرتغال إلى الهند وإعمالهم القتل والحرق واحتلالهم قاليقوت، وفي ذلك يقول ابن ماجد :

وجاء لكاليكوت خذ ذي الفائدة　　لعام تسعمائة وست زائدة
وباع فيها واشترى وحكما　　والسامري برطله وظلما
وصار فيها مبغض الإسلام　　والناس في خوف واهتمام

(3) – Joao da Barros (1553). Decada da Asia. Lisbon.

(4) – Fernando Lopez da Castanheda (1554). Historia _ Lisbon.

(5) _ Damiao da Goes (1566). Chronica do Rei D. Manuel. Lishon.

(6) – G. Ferrand (1922) Le pilote arabe de Vasco da Gama. Ann. Geogr. 31: 289 – 307 .

(7) ثيودور شوموفسكي (1957) ـــ ثلاث راهمنجات مجهولة لأحمد بن ماجد ربان فاسكو دي جاما ـــ منشورة باللغة الروسية في لينتغراد ـــ ترجمها إلى اللغة العربية وعلق عليها الدكتور محمد منير مرسي ـــ طبع القاهرة سنة 1969 .

(8) أنور عبد العليم (1967) ـــ ابن ماجد الملاح ـــ الكتاب رقم 63 في سلسلة أعلام العرب دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـــ القاهرة .

(9) أنور عبد العليم (1979) ـــ الملاحة وعلوم البحار عند العرب ـــ الكتاب رقم 13 في سلسلة عالم المعرفة الناشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـــ الكويت .

الدكتور

أنور محمد عبد العليم

استاذ كلية العلوم ـــ جامعة الاسكندرية

ابن ماجد وإرشاد البرتغاليين إلى الهند

رؤية جديدة

الدكتور : طارق نافع الحمداني

يعد ابن ماجد من أبرز الملاحين العرب على الاطلاق في أواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة . ويحتل ملاحنا العربي مثل هذه الاهمية لكونه استطاع أن يجمع بين الخبرات الملاحية العملية والنظرية، ويصوغها في مؤلفاته العديدة لتكون نبراساً يهتدي به غيره من الملاحين، ممن تنقصهم الخبرة في معرفة الطرق الملاحية ومسالكها .

لقد انتبه الأوربيون، ومن بعدهم العرب، إلى التراث الضخم الذي تركه ابن ماجد، فراحوا يدرسونه منذ أوائل القرن العشرين، ويبينوا أهميته في علم الملاحة . إلا أن هناك شيئاً مهماً كان ومايزال يثير كثيراً من التساؤلات، ويضع ابن ماجد أحياناً موضع الاتهام، ألا وهو مسألة اتصاله بالبرتغاليين وإرشادهم إلى الهند .

لقد عالج كثير من الباحثين الأوربيين والعرب هذه المسألة في كتبهم وبحوثهم، وحاولوا أن ينفوا أو يثبتوا كون ابن ماجد هو الملاح العربي الذي قاد البرتغاليين من الساحل الافريقي الشرقي إلى الهند . إلا أن الدلائل التاريخية حتى هذا الوقت، تستبعد إمكانية الجزم القاطع في هذا الأمر، إلا إذا توفرت أدلة جديدة، وهذا أمر مايزال غير معروف في الأوساط العلمية .

على أن هدفنا في هذا البحث هو ليس متابعة هؤلاء الباحثين في هذا المنحى، بل النظر إلى جانب آخر من المسألة، يتعلق بنظرة ابن ماجد نفسه إلى مسألة إرشاد البرتغاليين، يعدها عملية طبيعية في تقديره ليس فيها أي نوع من أنواع الاساءة لمكانته العلمية ولا لمصالح بلاده الخاصة . وبلاد الشرق عامة، ولكن العكس قد يكون هو الصحيح لاعتبارين :

أولهما : إن عملية الإرشاد تدل على تفوق العرب الملاحي على أقرانهم الأوربيين آنذاك .

وثانيهما : أن الإرشاد قد تم دون علم ابن ماجد بأن هذا الأمر ستعقبه عملية

الاستعمار البرتغالي للشرق .

وقبل أن نناقش هذا الأمر، نرى من الضروري إلقاء الضوء على معرفة العرب والبرتغاليين الملاحية في أواخر العصور الوسطى، والتفاف الأخيرين حول رأس الرجاء الصالح، ووصولهم إلى المياه الشرقية، ومن ثم معالجة مسالة اتصالهم بابن ماجد وأبعاد هذا الاتصال الفكرية والسياسية .

1 ـ معرفة العرب والبرتغاليين الملاحية :

أ ـ معرفة البرتغاليين الملاحية وتطورها :

كانت مراكز الحضارة العربية الإسلامية في الشرق حلقة اتصال بين الشرق والغرب، ونقطة التقاء السياسة والحضارة منذ قرون طويلة . وكان هذا الملتقى خاضعاً في العصور الوسطى لنفوذ العرب، الذين ينسب إليهم كثير من أصول الاكتشافات العلمية الأولى، التي عرفت في أوربا فيما بعد . وتشير الدلائل الكثيرة إلى أن الملاحين العرب في أواسط القرن العاشر الميلادي، كانوا يعرفون المرشدات الملاحية والخرائط البحرية، التي وإن كانت وقتئذ بدائية ناقصة، إلا أنها تطورت بفعل تجاربهم الشخصية الواقعية، حتى وصلت ذروتها على أيام ابن ماجد، في القرن الخامس عشر الميلادي . وقد تم ذلك كله قبل أن يعرفها أقرانهم الأوربيون بعدة قرون[1] .

ويرجع إلى الفترة نفسها تصميم جهاز على جانب عظيم من الأهمية في تاريخ الملاحة، وهو البوصلة ـ جهاز ضروري لتتبع الخرائط البحرية ـ ويبدو أن العرب عرفوا البوصلة في القرن الحادي عشر، ولكنهم احتفظوا بسر تركيبها الذي كان يسمح لهم بمزاولة التجارة البحرية دون غيرهم . ولكن الظاهر أن النصوص لم تشر إلى البوصلة حتى الثلث الأول من القرن الثالث عشر، وذلك عندما شاع استعمالها في المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط . وقد أدى استعمال البوصلة إلى تأمين

سلامة الرحلات البحرية، وإدخال التحسينات في تصميم الخرائط البحرية[2] وهذا ما يدل على علو الثقافة البحرية عند العرب حتى قيام حركة الكشوف الجغرافية الأوربية في مطلع العصور الحديثة .

سعى الأوربيون بعامة، والبرتغاليون بخاصة، إلى الإفادة في علوم العرب الملاحية في العصر الوسيط، حتى أوائل القرن الخامس عشر، وقد مهدت لهم هذه المعلومات ــ ولاشك ــ السبيل للكشوفات الجغرافية، التي قاموا بها بعد ذلك فخلال القرن الخامس عشر، بذل ملوك البرتغال جهوداً كبيرة في الإفادة من كل الرسومات والخرائط المعروفة في عصرهم، بخاصة تلك التي وصفها الإيطاليون الذين جعلوا من الملاحة علماً بفضل القواعد والأسس التي توصل إليها العرب وغيرهم من شعوب الشرق . ومن المعروف جيداً ــ كما يقول شوموفسكي ــ أن رجال البحر الأوربيين في القرن الخامس عشر كانوا في كثير من الأحيان تلامذة للبحارة العرب . فالبحار البرتغالي انفانت انريكو، وهو الذي يرتبط اسمه بحملات البرتغاليين الملاحية . قد استفاد من خبرة البحارة العرب في شمال أفريقيا . وبفضلهم استطاع البرتغاليون أن يتوصلوا إلى عمل خرائط (مما يطلق عليه اسم البورتولانات) وأدوات الملاحة وأن يحسّنوا طاقم سفنهم . وبفضل تأثير العرب أيضاً استطاع البرتغاليون ــ على مايبدو ــ أن يبنوا خطاً جديداً من السفن، له نظام جيد لشد القلاع والتحكم فيها[3] .

تزايد اهتمام البرتغاليين بالملاحة، بحيث اتخذ هنزي الملاح في مدينة ساجرس مركزاً لدراسة أحوال الملاحة البحرية، واجتذب إليه كل الملاحين والتجار من كل حدب وصوب، ومن أجل الاستماع إلى أحاديثهم والانتفاع من معلوماتهم وتجاربهم في هذا المضمار[4] .

وفي عهد جون الثاني (1455 - 1495) أنشأ مجلساً لوضع قواعد جديدة

يستعين بها الملاحون على قياس خط العرض، عندما يتعذر رصد نجم القطب مباشرة . وقد انضم إلى هذا المجلس عدد من المختصين بأمور الفلك، الذين توصلوا إلى أن الاستغناء عن النجم القطبي مباشرة، يمكن أن يكون بواسطة الاسطرلاب، ومنذ ذلك الحين شرع أعضاء المجلس في تدريب جميع الربابنة البرتغاليين على طريقة استعمال هذا الاكتشاف الجديد(5).

وبينما كان علماء الفلك ماضين، بأمر الملك جون الثاني، في ضبط وسائل الاستعانة بهذا العلم في البحر، نشط الملاحون البرتغاليون للتعمق في سفنهم باتجاه الجنوب، مستعملين في ذلك الاسطرلاب في أثناء رحلاتهم على الساحل الغربي الأفريقي، كما استعمل ملاحهم (ديكو كوميز) ربع الدائرة في عام 1462 . وهذا الاستعمال الأخير (الكواردنت QURARDANT) كان بمثابة آلة تمثل قوساً قدره 90 درجة من الاسطرلاب، وتقيس ارتفاع النجوم فوق الأفق(6) . وهكذا تمكن البرتغاليون بفضل الرحلات البحرية، والطواف حول أفريقيا في تطوير وسائل الملاحة البحرية وأدواتها، بحيث لم يعد الغرب — كما يقول كراتشكوفسكي — تلميذاً للشرق كما كان عليه الحال من قبل، بل أخذ يسير في اتجاهه الخاص به(7) .

وعلى الرغم من تطور معلومات البرتغاليين الملاحية، فقد أجهدوا أنفسهم في التعرف على علوم الملاحة العربية والإفادة منها في مشروعاتهم الملاحية المتتابعة، وقد اتبعوا في ذلك شتى الطرق، وكان من بينها إرسال البعوث الاستطلاعية إلى الشرق . وكان الهدف الأساسي لتلك البعوث هو العثور على مملكة القديس يوحنا (برسترجون)، واكتشاف مواطن التوابل التي يبيعها الإيطاليون في الأسواق الأوربية، والتعرف على طريق الملاحة الذي يقود إلى الهند، عن طريق الدوران حول أفريقيا(8)

كانت رحلة بيرو دي كوفلهام (Covilham) وألفونسودي بايفا في السابع من

شهر أيار سنة 1487 أولى البعثات البرتغالية لتحقيق الأغراض المشار إليها آنفاً عن طريق البر، بينما كانت رحلة دياز في السنة نفسها قد أرسلت للغرض نفسه، ولكن عن طريق البحر، وذلك بالدوران حول أفريقيا .

أبحر كوفلهام وبايفا من برشلونة قاصدين إيطاليا، ثم واصلا السفر إلى رودس، ومنها أبحرا إلى الاسكندرية فالقاهرة، ثم خرجا منها مع بعض القوافل التجارية المتوجهة إلى عدن، حيث افترقا هناك، فاتجه بايفا صوب الحبشة، بينما رحل كوفلهام على ظهر سفينة عربية إلى الهند، وقبل أن يفترقا تواعدا على اللقاء بمدينة طيبة، قرب القاهرة .

وصل كوفلهام بعد شهر من مغادرة عدن إلى كانا نور، ثم زار كاليكوت وكدا في الهند، ومن ثم استقر رأيه على العودة منها إلى شرق أفريقيا، وفي خلالها استطاع أن يتعرف من البحارة العرب على ظهر السفينة، مبادئ الإبحار في المحيط الهندي، وذلك قبل عشر سنوات من زيارة فاسكودي غاما .

سافر كوفلهام من شاطئ مليبار إلى هرمز، ومنها واصل سيره إلى عدن ثم عبر منها إلى زيلع، ومن ثم واصل السفر جنوباً بمحاذاة ساحل أفريقيا الشرقي، فزار مقاديشو وممباسة وزنجبار وسفالة، ولاحظ عن كثب طبيعة الملاحة في تلك الجهات، معتمداً في ذلك على الملاحين العرب هناك(9).

اغتبط كوفلهام بالنتيجة التي حصل عليها واستبد به الشوق إلى لقاء زميله، فاستقر عزمه على العودة إلى مصر، وحين وصلها وجد أن بايفا قد مات منذ فترة غير طويلة . وبينما كان يتأهب للعودة إلى البرتغال، توجه لمقابلة يهوديين، كلفهما الملك جون الثاني بإبلاغ كوفلهام العودة إلى هرمز في مهمة خاصة فعاد إليها .

وقبل مغادرته القاهرة، أرسل كوفلهام تقريراً للملك عن رحلته إلى الهند وسواحل شرق أفريقيا، وقد نقل لنا فرانسسكو الفارز مضمون هذا التقرير، الذي أشار فيه

إلى شهادة كوفلهام بإمكانية الإبحار، ما بين موانئ الهند شرق أفريقيا، والدوران حول رأس الرجاء الصالح، كما أكد فيه أن البحارة العرب يعرفون تلك البلاد معرفة تامة(10) .

ولما كان كوفلهام يعتقد أن برثلميو دياز مايزال ماضياً في البحث عن الطريق إلى المحيط الهندي، لذلك كتب إلى الملك لإبلاغ دياز الآتي :

« إذا واصلت السير في البحر جنوباً، فلا بد لك من أن تصل إلى نهاية القارة، وحينئذ تكون قد أشرفت على المحيط الهندي، وفي هذه الحال، مر رجالك أن يسألوا عن بلاد سفالة، وعن جزيرة القمر، فسوف يجدون فيها ربابنة يقودون سفنك إلى الهند(11) ».

هذا مع العلم بأن دياز قد عاد إلى لشبونه، بعد مغادرة هذين الشخصين بستة أشهر .

والظاهر أن هذا التقرير قد وصل إلى الملك البرتغالي فعلاً، وكانت الآراء الواردة فيه مطابقة لاستكشافات دياز، الذي عاد إلى بلاده قبل وصول تقرير كوفلهام، إلا أنه أصبح أساساً لخط السير، الذي التزمه فاسكودي غاما في رحلته إلى الهند .

ب ـــ معرفة ابن ماجد الملاحية ومكانتها في عصره :

يعد ابن ماجد من كبار ربابنة البحر في عصره، إذ كان خبيراً بالبحار الشرقية وشواطئها، وقد تولد ذلك لديه نتيجة لخبراته الشخصية من جهة، والخبرات السابقة التي اكتسبها من جهة أخرى . وعلى العكس من الجغرافية الوصفية، التي مارسها المؤلفون العرب في العصور الوسطى، حيث كانت لا تتطلب بالضرورة رؤية المناطق التي يجري وصفها، فإن الجغرافية الملاحية كانت تتطلب التفاعل الحي، الخلّاق بين العموميات النظرية والمجهودات العلمية،وتظهر هذه الخاصية بوضوح شديد في أعمال ابن ماجد(12) .

ورث ابن ماجد المهنة أباً عن جد، حيث يقول في ذلك : « وقد كان جدي محققاً فيه ومدققاً .. فزاد عليه الوالد بالتجريب والتكرار، ففاق علمه علم أبيه . فلما جاء زماننا جربنا هذا، وكررناه قريباً من أربعين سنة، وقد حررنا وقررنا علم الرجلين النادرين، وأرخناه وفهمنا جميع ما جربوه »(13).

تحدث ابن ماجد كثيراً عن المعلومات التي أضافها إلى أسلافه في علم الملاحة البحرية، وتوضح أوصـــافه لجميع الأجزاء المهمة في المحيط الهندي، أنه كان سيد الموقف . فلقد عرف بتعمق الطرق البحرية عبر هذا المحيط، إذ أعطته تجاربه الطويلة خبرة وشهرة، جعلته يعترف بأنه من أفضل الملاحين الذين سبقوه، وليس هناك من يضاهيه في عصره، وهو القائل عند حديثه عن الإبحار في البحر الأحمر والبحار المرتبطة به : « لم يجزها في زماني غيري ... ولم أذكرها في هذا الكتاب خوفاً من أن يقع عليها السفهاء، ويجادلون بها العلماء، فيسبرون في معرفة القياسات في هذا البحر وجزره، فتركناها كي لا يدركه إلا من أكثر السفر فيه »(14). وهكذا لم يستطع ابن ماجد إلا أن يعترف بأنه من أبرز الملاحين الذين يمرون في المحيط الهندي، بحيث قال عن نفسه أيضاً : « وأما معرفة البحر وجزره، ففي الآفاق من هو أخبر مني موجود »(15).

لم تقتصر معرفة ابن ماجد الملاحية على خبرته الشخصية، وتجاربه في البحار، بل أنه طور بعض الآلات الملاحية التي تعين في هذا المجال، ونعني البوصلة . لذا لا نستغرب إن سمعناه يتحدث عن اختراع هذه الآلة بقوله : « ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس، الحقه بنفسه، ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب . فإذا كان أحد يعرف فنحن مسبوقون كذلك، ورتبنا المنكاب وأدركناه في الذهبية وشرحها، وكفى بمقدار معرفتنا للعارفين بعد موتنا »(16).

وعلى الرغم من ذلك، فهناك ما يشير إلى أن العرب اخترعوا حكّاً ذا إبرة، بدل

السمك الحديدي الصيني، ولكن لم يذع استعماله في المحيط الهندي إلا في نهاية القرن الثالث عشر . فقد كتب المقريزي سنة 845 هـ / 1442 م في حفظ مصر الآتي :

« عندما يصعب على المسافرين في بحر الهند الاهتداء بالنجوم في الليالي المظلمة الحالكة، ولا يمكنهم الاطلاع على الجهة المقصودة، يلجؤون دائماً إلى استعمال حديد مجوف مصنوع بشكل السمك ويجعلونه ضئيلاً . وفي فم السمك يتخذون شيئاً من المغناطيس، وعندما يوضع هذا السمك في الماء، يدور ويتجه دائماً إلى القطب الجنوبي، ولكن ذنبه إلى القطب الشمالي »(17).

وكان هذا الحك عبارة عن نوع من الإبرة المغناطيسية، التي كانت تطفو على الماء، أو بواسطة خشبة ذات طرف حاد، وقد ذكره كل من شهاب الدين أحمد بن ماجد، والشيخ سليمان المهري، مما يدل على أن استعماله في المحيط الهندي، بدأ في أواخر القرن الخامس عشر . ولا يكتفي ابن ماجد بذكره فحسب، بل أنه أشار ــ كما أسلفنا ــ إلى اختراع هذا الحك بنفسه . ولكن الذي يبدو، أن الذي يعنيه أنه طوّره ورقّاه، وحوّله إلى شكله الحالي . واخترع له صندوقاً وضع فيه الإبرة التي لا تستقر إلا من جهة الشمال بفعل مغناطيسي . ومن أجل ذلك سماه (بيت الإبرة)(18).

لم يتوصل الأوربيون إلى معرفة الحك المغناطيسي، إلا بعد القرن الخامس عشر . وأطلقوا كلمة (كمباس ــ قنباص COMPASS) على هذا الحك بدل الخرائط، ولا توجد في الكتب الأوربية شهادة علمية تثبت إلمامهم بذلك من قبل، ويشير ابن ماجد إلى ذلك في كتابه « الفوائد » بقوله :

« لنا ترفات وأزوام وقياسات، لا يقدرون عليها وليس هي عندهم، ولا يقدرون أن يحملوا دركنا، ونحن نحمل دركهم، وندرك معرفتهم، ونسافر بمراكبهم، لأن البحر

الهندي هو متعلق بالبحر المحيط، وله علم في الكتب والقياس،وعلمهم ليس له قياس ولا كتاب، إلا في (قنباص))[19].

ومن المعروف أن ابن ماجد أراد أن يضع دليلاً بحرياً، للأنهار والجبال والسواحل والجزر، وطول البلد وعرضه، وأسماء النجوم ومعرفتها والهداية بها، وذكر الرياح الموسمية وأوقات هبوبها وسكونها، وتحديد طريق سير السفن في السواحل العربية وساحل الهند وشرق أفريقيا، وهذا ما نلمسه في مؤلفاته العديدة، بخاصة كتاب « الفوائد » . ففي هذا الكتاب الذي يقسمه المؤلف إلى اثني عشر قسماً، يطلق على كل منها اسم « فائدة »، كأنما يريد بهذا، التذكير بعنوان الكتاب . وفي هذه الفوائد أوصاف مفصلة لطرق الملاحة المختلفة، في المحيط الهندي وبحاره وخلجانه، أي أنها أشبه ما تكون بمرشدات بحرية بالنسبة لعصرها .

ويستشهد كراتشكوفسكي، برأي فران، المستشرق الفرنسي الذي اهتم بهذا النوع من الأدب العربي، حيث يرى أن كتاب « الفوائد » أثر يدعو إلى الإعجاب، وعدّه ذروة التأليف الفلكي الملاحي لعصره، كما عد ابن ماجد أول مؤلف للمرشدات البحرية الحديثة .. كما أن معلوماته عن الرياح الموسمية والرياح المحلية، وطرق الملاحة الساحلية والبعيدة المدى، تتميز بأقصى درجة في الدقة والتفصيل، يمكن أن نتوقعها في ذلك العصر[20].

ومن الواضح أن معلومات ابن ماجد الملاحية كانت مستندة إلى من سبقوه في هذا المضمار من جهة، وعلى تجاربه الشخصية بخاصة من جهة أخرى . وقد استفاد البرتغاليون منذ لحظة دورانهم حول رأس الرجاء الصالح من التجربة الملاحية العربية، بل إن أقدم ما دوّنوه في هذا المضمار، كما يقول كراتشكوفسكي، يحمل آثار النفوذ العربي بوضوح، أضف إلى هذا أن بعض الاصطلاحات الفنية البرتغالية ليست سوى ترجمة صرفة لمثيلاتها العربية . وإذا كان تأثير أدب الجغرافية الملاحية العربية

على أهل الغرب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر جلياً بهذا القدر، فقمين أن يكون تأثيره على أهل الشرق أوسع وأعمق[21].

وعلى هذا كله، فقد كان من الصعوبة بمكان أن يبحر المرء في المحيط الهندي ــــ كما يقول جبران فران ـــ دون الاستعانة بمؤلفات ابن ماجد وتوجيهاته البحرية . وقد كان الربابنة الأجانب والقواد والملاحون لا يعرفون كيف يبحرون فيه، ومن ثم كانوا دائماً لا يستغنون عن ربان يرشدهم، إذا لم تكن لديهم المعلومات الضرورية[22].

2 ـــ التفاف البرتغاليين حول أفريقيا :

آ ـــ النشاطات البرتغالية حول أفريقيا حتى اكتشاف رأس الرجاء الصالح :

تؤكد البحوث الحديثة على أن السفن الأوربية، عند عهد الإمبراطور الروماني أوغسطس، قد طرقت طريق رأس الرجاء الصالح، قبل بارثيملو دياز بقرون طويلة . إذ تشير هذه البحوث إلى وصول بعض المراكب إلى السواحل الأفريقية من الغرب إلى الشرق، للاتجار مع بلاد الصومال وبلاد العرب . هذه الإشارات المتقدمة تحملنا على الظن بأن معلومات ملاحي المحيط الهندي على السواحل الأفريقية (الشرقية والغربية) لا ترجع فقط إلى المعلومات التي أمدهم البرتغاليون بها بعد فاسكودي غاما، وإنما من الممكن أن السفن الأوربية في العصور القديمة ـــ كما يقول ابن ماجد ـــ مخرت عباب المحيط الهندي بعد أن مرت برأس الرجاء الصالح، وزارت سفالة في بلاد الزنج، التي تقترب نسبياً من الطرف الجنوبي لأفريقيا، حيث يقول في ذلك :

وقيـــــل كان في قـــديم الدهـــر مـــراكب الإفـــرنج تـــأتي القمـــر
أيضـــــاً ويـــأتـــون لبر الزنج والهنــــد نقـــلاً عن ذوي الإفـــرنج[23]

انقطعت ملاحة هذه السفن بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي، حيث أعقبتها عصور الظلام، التي عاشت أوربا خلالها في حالة من

الفوضى والجهل وإراقة الدماء . ولم تصل بعد ذلك سفينة من أوربا إلى الشرق حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حيث بدأت حركة الكشوف الجغرافية الأوربية .

ومن جهة أخرى، فقد كانت السفن الشرقية، وبالذات العربية، تتردد على الموانئ الشرقية لأفريقيا، ومن بينها ميناء سفالة، منذ القرن التاسع الميلادي على الأقل . والأهم من هذا أن فرامورا Fra Maura عندما وضع مصوره الجغرافي عام 1475 ذكر أن ملاحاً عربياً أبحر حوالى العام 1420 من المحيط الهندي، إلى القارة الأفريقية، فظهر في المحيط الأطلسي[24] . وهو ما يشير إلى معرفة الملاحين العرب بتلك الجهات معرفة جيدة .

وعلى أية حال، فقد حاول الملاحون البرتغاليون، خلال القرن الخامس عشر، البحث عن طريق بحري إلى الهند والشرق الأقصى، بالدوران حول أقصى نقطة جنوبية في أفريقيا . ولم يأت هذا الأمر عن طريق الصدفة، وإنما جاء نتيجة لجهود متواصلة استمرت أكثر من سبعين سنة من الزمن، وإن كانت المعرفة البرتغالية خلال هذه الفترة مقتصرة على أن السفن إذا أبحرت إلى ساحل أفريقيا، ودارت حول نهاية القارة، فإنه يمكن عندئذ أن تصل إلى الهند بالإبحار شرقاً عبر المحيط الهندي، دون أن تكون لديهم الخبرة الملاحية الكافية في ذلك المحيط .

بدأت الخطوة الأولى في الكشوف الجغرافية على عهد هنري الملاح، الذي عرف بشغفه الشديد بالملاحة، وبنائه أسطولاً حربياً لهذا الغرض، وتشجيعه العميق للرحلات البحرية طوال حياته حتى توفي عام 1463 . وفي خلال ذلك أبحرت السفن البرتغالية لاستكشاف سواحل أفريقيا الغربية، حيث وصلت عام 1418 إلى « بورتوسانتو » أي ثغر السلامة . وتقدمت السفن البرتعالية عام 1429 إلى جزيرة (ماديرا)، ولكنها لم تحقق تقدماً ملموساً، إلى أن تمكن (جيل إينز) من الطواف

حول (رأس بوجا دور) عام 1434 . وقال أن الملاحة سهلة في ما وراء هذه النقطة . وأخذت الحملات البرتغالية تترى الواحدة إثر الأخرى فاكتشفت السنغال عام 1446 ، ووصلت سيراليون عام 1460 (25) . وعبر الملاحون البرتغاليون خط الاستواء عام 1471 ، ووصلوا إلى مصب نهر الكونغو عام 1483 (26)

خطت الكشوف الجغرافية البرتغالية خطوة مهمة على عهد الملك جون الثاني، الذي اعتزم مواصلة الجهود حتى يبلغ بلاد الهند براً وبحراً في آن واحد . فكان أن أرسل كلاً من كوفلهام وبايفا براً إلى أفريقيا وآسيا، لكي يصلا إلى الهند، وجهز من جهة أخرى حملة بارثلميو دياز بحراً .

أقلعت حملة دياز في آب 1486 ووصلت إلى موقع رأس الرجاء الصالح، وعادت إلى البرتغال في كانون الأول 1487 . وتعد هذه الحملة أول حملة ناجحة في طريق الكشوف الاستعمارية، ذلك لأنها لم تصل إلى أقصى الطرف الجنوبي لأفريقيا فحسب، وإنما عبرت باتجاه الساحل الشرقي، ولكن دياز لم يستطع المضي في رحلته، لأنه واجه تمرداً خطيراً من الرحالة البرتغاليين، فقطع الرحلة وعاد إلى بلاده . وعلى هذا كان دياز أول من اجتاز رأس العواصف، الذي سمي فيما بعد برأس الرجاء الصالح، وبوصوله إلى تلك المنطقة، يكون قد مهد الطريق للوصول إلى الهند(27).

ب ـــ حملة فاسكودي غاما نحو الهند :

لقد انقضت ثماني سنوات ما بين رحلتي دياز وفاسكودي غاما، وكانت هناك حاجة لتنظيم المعلومات الكثيرة التي جمعها كوفلهام، والتي كان من الصعوبة جعلها في متناول اليد قبل عام 1491 ـــ 1492 . وعندما بدأت رحلة فاسكودي غاما في 8 تموز عام 1497 ، كان من أهم مازود به نسخة من تقرير كوفلهام وخرائطه التي رسمها للأماكن التي زارها على شواطئ شرق أفريقيا(28).

وفضلاً عن ذلك، فقد عمل الملك عمانوئيل الثاني على تجهيز هذه الحملة بما تحتاج إليه من علماء فلك، وبحارة ذوي خبرة، وسفن تصلح لمثل هذه الرحلة، إذ دعى الفلكي العجوز زاكوت لتدريب مرشدي السفن ومساعديهم على استعمال الأسطرلاب، ليكونوا أكثر استعداداً من الوجهة الفنية، لمواجهة ما قد يطرأ على الحملة من تقلبات جوية في أثناء الرحلة، وأعطى زاكوت لكل مرشد خريطة كبيرة، بها خطوط بألوان مختلفة تبين أسماء الرياح واتجاهاتها . كما زُود المرشدون بكل أنواع الآلات التي لا يستغنى عنها في الملاحة . وفحوى القول، وضع تحت تصرف دي غاما كل ما يحتاج إليه، وما تمخضت عنه الكشوف الجغرافية من معلومات ومقترحات[29] .

انقضت خمسة أشهر على مغادرة فاسكودي غاما للشبونة، وعندها قرر الإرساء عند شواطئ أفريقيا الغربية لمعرفة المنطقة التي وصل إليها . فقد حال تأرجح السفن دون إمكانية الاستفادة من الأسطرلاب الذي زود به . ولما كان يريد أن يقيس ارتفاع الشمس بالأسطرلاب، فقد وجد نفسه مضطراً للنزول إلى البر ليقوم بالرصد اللازم لمعرفة درجة خط العرض . وفي خلال ذلك، وعندما أشرفت سفن دي غاما على طريق رأس الرجاء الصالح، تعرضت تلك السفن لرياح عاتية، كما تمرد عليه بحارته، الذين أرادوا العودة إلى البرتغال، ولكن هؤلاء لم يدركوا أنهم عبروا هذا الرأس إلى المياه الهادئة الدافئة في الساحل الشرقي لأفريقيا[30] .

وعندما استطاعت رحلة فاسكودي غاما عبور رأس الرجاء الصالح، لم يخاطر فاسكودي غاما بالإبحار في المحيط الهندي الذي لا يحده شاطئ، واتجه بحذاء الشاطئ الشرقي لأفريقيا، وتوقف في موزمبيق في الثاني من آذار 1498 . وقد أبصر هناك بعض السفن العربية، التي يستخدم ملاحوها آلات الاهتداء في البر كالبوصلة (بيت الإبرة)، وهو يذكر ذلك حرفياً بقوله : « ويحمل الربابنة لتوجيه السفن

وآلات للرصد وخرائط بحرية »[31].

احتلت جزيرة موزمبيق أهمية كبيرة نظراً لموقعها، ولكونها أحد مراكز تجارة سفالة ــ موطن الذهب ــ وكانت مقراً للتجار العرب والهنود . وكان اسم الوالي وقتئذ زاكويجة (وأحياناً يسمى كويلو) . وقد ظن أهل هذه الجزيرة في أول الأمر أن البرتغاليين مسلمون، وقد جاؤوا من بلاد المغرب، فقابلوهم بمظاهر الود والإكرام، فلما عرفوا أنهم غير ذلك سعوا في إبعادهم بشتى الطرق[32]. من دلك، أن فاسكودي غاما طلب من حاكم موزمبيق بعض الربابنة ليوصلوه إلى كاليكوت، فأنفذ معه اثنين منهما . ولكن الرسالة التي حملها هذان الدليلان إلى ملك ممباسة، وكان صهراً لحاكم موزمبيق، كانت تحمل تحذيراً من هؤلاء البرتغاليين، حيث أن فاسكودي غاما الذي كانت تساوره الشكوك والريبة من أمر الدليلين، قد أرغمهما على إفشاء أمر الرسالة، ولذلك قرر التوجه نحو مالندي دون الرسو في ممباسة[33].

ولما وصل البرتغاليون إلى مالندي ــ الواقعة حالياً في كينيا ــ لقي دي غاما فيها ترحيبا من ملكها، الذي تصفه المصادر بأنه كان كهلاً رقيق الجانب كثير العطف نحو الأجانب[34]. فلما طلب منه القائد البرتغالي ملاحاً يرشده إلى الهند، وعده بتلبية طلبه هذا، وقام الملك فعلاً بتهيئة أحد الملاحين، الذي يدور الخلاف كثيراً حول هويته، ويذكره البعض بأنه ابن ماجد، حيث وقعت على عاتق ذلك الملاح مهمة إرشاد الأسطول البرتغالي إلى الهند . وعندها غادر الأسطول البرتغالي في الثاني والعشرين من نيسان، ووصل كاليكوت في الثامن والعشرين من مايو عام 1498 .

3 ــ علاقة ابن ماجد بالبرتغاليين وأبعادها :

آ ــ ابن ماجد والبرتغاليون في رواية النهروالي :

أثارت مسألة اتصال البرتغاليين بابن ماجد، وماتزال تثير كثيراً من

التساؤلات التي ليس بالمستطاع الإجابة عنها بسهولة . ترى هل حدث هناك اتصال فعلي بين ابن ماجد وفاسكودي غاما ؟ وأين تم هذا الاتصال ؟ وماذا كانت نتيجته ؟ هل ترتب عليه قيادة ابن ماجد للبرتغاليين إلى الهند ؟ أم اكتفى بمجرد توجيههم إلى الطريق نحو الهند ؟ وفي مقابل ذلك، فإن هناك تساؤلات أخرى تقول بأن ابن ماجد لم يكن قد اتصل نهائياً بالبرتغاليين، وكان بعيداً عن شرق أفريقيا ساعة وصول فاسكودي غاما إليها، فكيف تم له إرشادهم وتوجيههم ؟ على أن هذا الافتراض الأخير لوتم إثباته فعلاً، لكان أمراً علمياً مهماً، غير أن الأدلة على ذلك غير موجودة، ولكن لو صح عكس ذلك، فهل يعد ابن ماجد خائناً لوطنه وأمته ؟

والواقع أن هذا البحث لا يهدف إلى نفي أو إثبات هذه التهمة الملصقة بابن ماجد، بقدر ما هو نظرة جديدة إلى الروايات المتعلقة باتصاله بالبرتغاليين من جهة، ونظرته إلى هذه المسألة الحيوية، بما تحمله من معانٍ إنسانية وعلمية من جهة أخرى، وذلك وفقاً لما نقلته آثاره العلمية المعروفة .

والمعروف أن أول، بل وآخر، من أشار صراحة إلى ابن ماجد واتصاله بالبرتغاليين هو قطب الدين النهروالي، في كتابه « البرق اليماني في الفتح العثماني » حيث جاء فيه :

« وقع في القرن العاشر، من الحوادث الفوادح النوادر، دخول الفرنقال (البرتغال) اللعين، من طائفة الفرنج الملاعين، إلى ديار الهند، وكانت طائفة منهم يركبون زقاق سبتة في البحر ويلجون في الظلمات، ويمرون بموضع قريب في جبال القمر، وهي مادة أصل بحر النيل، ويصلون إلى المشرق، ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق، أحد جانبيه جبل، والجانب الثاني بحر الظلمات، في مكان كثير الأمواج، لا تستقر به سفائنهم، وتنكسر، ولا ينجو منهم أحد، واستمروا على ذلك مدة، وهم يهلكون في ذلك المكان، ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند، إلى

أن خلص منهم غراب (نوع من السفن) إلى الهند، فلازالوا يتصلون إلى معرفة هذا البحر، إلى أن دلهم شخص ماهر، يقال له أحمد بن ماجد، صاحبه كبير الفرنج، وكان يقال له (الملندي) وعاشره في السكر، فعلمه الطريق في حالة سكره، وقال لهم : لا تقربوا الساحل في ذلك المكان، وتوغلوا في البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند، وبنوا في كوه من بلاد الركن، قلعة يسمونها كوتا، ثم أخذوا هرموز، وتقووا هناك، وصارت الأمداد تترادف عليهم في البرتغال، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً، ويأخذون كل سفينة غصباً، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين، وعمّ أذاهم على المسافرين »[35].

وقبل أن ننظر في رواية النهروالي هذه، نرى بضرورة التعرف على هوية النهروالي وشخصيته . فهو الشيخ محمد بن أحمد النهروالي (917 ــ 990 هـ / 1511 ــ 1582 م) ، نسبة إلى نهروالة، وهي بلدة صغيرة من كجرات، تسمى اليوم « بتن » . وقد ولد وتربى في الهند، ثم هاجر إلى الحجاز وهو مايزال صغيراً، وتعلم على والده، ثم اتصل برجال الدولة العثمانية، وكانت قد استولت على الحجاز بعد هجرته إليها، ووثقت صلته بهم، وتعلم التركية وأتقنها، حتى صار يؤلف وينظم بها، وتعددت أسفاره إلى مصر والشام والدولة العثمانية . وكانت صلاته بالحجازيين في الغالب، لذلك نرى بأن مؤلفاته، بخاصة « البرق اليماني » مليئة بالإشادة بالعثمانيين، في حين أنها كانت زاخرة بالتحامل الشديد على العرب وذمهم في أغلب الأحيان[36].

وعلى الرغم من علاقة النهروالي السيئة بالعرب، إلا أن التساؤل الذي يثار هنا هو هل كانت هناك علاقة عدائية بين ابن ماجد والنهروالي ؟ ولماذا ذكر النهروالي ابن ماجد بالاسم ولم يذكر غيره من الملاحين العرب، كسليمان المهري مثلاً، أو أحد

ملاحي الهند مع العلم أن المصادر البرتغالية أشارت إلى شيء من هذا القبيل باسم (المعلم كانا أو كاناكا)، سواء قبل رحيل فاسكو دي غاما إلى الهند أو ربما معه .

الحقيقة أن المصادر التاريخية لاتزودنا بشيء عن هذه التساؤلات، وهي في الوقت نفسه لاتشير إلى وجود علاقة سيئة بين النهروالي وأحمد بن ماجد . لذلك فمن غير المعقول أن يكون النهروالي قد اخترع اسم هذا الملاح العربي المشهور دون غيره — في هذا الموضوع من أجل التشهير به الذي كتب مؤلفه « البرق اليماني » بعد حوالي خمسين سنة من ذلك الحادث الخطير — أي كشف البرتغاليين لطريق الشرق — كان أقرب إلى مايدور بين المتقدمين في السن في عهده، أو ربما اطلع على مخطوط أو إشارة معينة، قد تكون مفقودة الآن، هي التي دعته إلى أن يحدد ابن ماجد بالذات بكونه هو الذي ساعد البرتغاليين في الوصول إلى الهند .

ومهما يكن من أمر، يعد النهروالي أول من أشار من المؤرخين العرب إلى هوية ابن ماجد، وقد اعتمد على نصه المستشرق الفرنسي فران، وتابعه في ذلك المؤرخون الروس أمثال كراتشكوفسكي وشوموفسكي . إذ حمل هؤلاء جميعاً ابن ماجد مسؤلية قيادة الأسطول البرتغالي إلى الهند، حيث ترتب على ذلك العمل لتثبيت الوجود البرتغالي في الشرق، والإضرار بالمصالح العربية والإسلامية في المنطقة . وقبل أن نناقش هذا الأمر، نعود إلى رواية النهروالي لمعرفة فحواها ومقدار المساعدة ونوعيتها، التي قدمها ابن ماجد للبرتغاليين .

يكتنف رواية النهروالي الكثير من الاضطراب والتشويش والخلط، فضلاً عن الأخطاء الجغرافية والتاريخية . وإذا ما طرحنا جانباً هذه الأخطاء الصغيرة في الوقائع التاريخية، وطرحنا « قصة السكر » التي أراد المؤلف بها، على مايبدو، إيجاد تبرير لمواقف ابن ماجد على أن يرشد سفن البرتغاليين، عند ذلك تصبح الرواية انعكاساً للوقائع التاريخية والملاحية، التي كانت عليها منطقة المحيط الهندي، فضلاً عن أنها

أشارت بالذات إلى اسم ابن ماجد .

تشير الوقائع التاريخية والملاحية، كما صورها النهروالي، إلى المتاعب التي تعرض البرتغاليون لها، وقيامهم بعدة محاولات لم يكتب لها النجاح، قبل أن تصل سفينة شراعية كبيرة إلى الهند، « واستمروا على ذلك مدة » . وبينما لايحدد النهروالي هذه المدة، فإن ابن ماجد يحددها بسنتين حين يقول :

جــازتهــا في عــام تســعــمــايــة مــراكب الافــرنج يــاخــايــة
تجيز عــــامــــين كامــــلين فيهــا ومــالوا الهنــد بــاليقــين(37) .

إن وصول البرتغاليين إلى الهند، كما يشير ابن ماجد، أصبح يقيناً وهذا يعني أنهم استعانوا بمرشدين ملاحيين عارفين بالطريق إلى تلك البلاد بعد سنتين من الضلال في البحر المفتوح ـــ ويذكر النهروالي في هذا المجال بالذات أحد هؤلاء المرشدين، ويجعله ابن ماجد . ولكن عندما ننظر إلى نص النهروالي بدقة، فلا نجد في ثنايا هذا النص ما يشير إلى مرافقة ابن ماجد للبرتغاليين، بقدر مايعني أنه وصف لهم الطريق، وقال لهم : « لاتقربوا الساحل (أي الساحل الشرقي لأفريقيا) في ذلك المكان، وتوغلوا بالبحر ثم عودوا، فلاتنالكم الأمواج، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند » .

وبهذا يتحدد دور ابن ماجد في هذه الناحية ـــ طبقاً لنص النهروالي ـــ في تعليم البرتغاليين قولاً ووصفاً . وليس عملاً وقيادة، ولو فعل لما قال : « وتوغلوا في البحر ثم عودوا »، أي أن الأمر لم يتعدَّ مجرد إسداء النصح وتقديم المشورة التي من شأنها تسهيل مهمة وصولهم إلى الهند(38) .

ب ـــ ابن ماجد في الروايات البرتغالية :

لاتهدف هذه الناحية في البحث إلى تقصي المعلومات الواردة في المصادر البرتغالية عن الملاح الذي قاد البرتغاليين إلى الهند، ذلك لأن معظم الباحثين، عرباً

كانوا أم أجانب، قد تناولوها بالبحث والدراسة والاستقصاء ولكن الذي أردت معالجته هو مسألة اللقاء الذي تم بين فاسكو دي غاما والملاح المسلم الذي تشير إليه المصادر البرتغالية بصورة مضطربة ومتضاربة، فاحياناً باسم « ماليموكانا » وأخرى باسم « كاناكا » وتعني استدلالاً « الخبير بالشؤن الملاحية » على أن ذلك اللقاء يدل على أن البرتغاليين، وبعد محاولاتهم الفاشلة للاقلاع من الشاطئ الشرقي لأفريقيا، قد استعانوا بمرشد بحري على درجة كبيرة من الكفاءة، فمن هو المرشد ؟ وما هي أهميته بالنسبة للبرتغاليين ؟.

وإذا عدنا إلى وصول البرتغاليين إلى مالندي، نرى بأنهم اتصلوا بحاكم هذه المدينة، وطلبوا منه مرشداً بحرياً، فاستجاب لطلبهم على الفور وأمدهم بملاح ذي خبرة ملاحية واسعة بالبحار الجنوبية[39] . ودعا فاسكو دي غاما هذا الملاح إلى سفينة القيادة البرتغالية الضخمة، وهنا نعطي الكلمة لباروس BARROS المؤرخ البرتغالي في القرن السادس عشر، حيث يقول في كتابه (آسيا البرتغالية) : « في أثناء وجود فاسكو دي غاما في مالندي زاره جماعة من الهنود توجهوا إلى أمير البحر على ظهر السفينة الرئيسية، ومن بينهم مسلم من الجوزرات (كجرات) يدعى « ماليموكانا » ... بغية إرضاء ملك مالندي الذي كان يبحث عن ملاح للبرتغاليين »[40] . والمهم في الأمر ان باروس يؤكد أن هذا الشخص الذي حضر إلى سفينة القيادة، هو نفسه المرشد البحري الذي اختاره فاسكو دي غاما بعد ذلك ليقوم بالرحلة مع البرتغاليين إلى الهند .

وفي أول مقابلة تمت بين فاسكو دي غاما وبين أحمد بن ماجد، وقد تولى الترجمة بينهما مترجم برتغالي ممن يعرفون العربية، دار الحديث ـــ بلا شك ـــ حول الآلات الملاحية التي كان البرتغاليون يستخدمونها، أو تلك التي كانت مستعملة في البحار الشرقية، وكيفية استخدام تلك الآلات للوصول إلى الهند . لقد كان ذلك

اللقاء ـــ كما يقول شانوا ـــ مثمراً، « إذ حدث فيه الاتصال بين معلومات العرب الملاحية في المحيط الهندي، وبين معلومات البرتغاليين البحرية، وبرهن اللقاء أيضاً بأنه مفتاح التغيرات المهمة التي طرأت على الملاحة والتجارة في هذه المياه، إذ لم يدرك البحارة الأوربيون إلا بعد بضع سنوات على وصولهم إلى الشرق، طريقة هبوب الرياح الموسمية وأوقاتها، وهذه المعرفة كانت محصورة بصورة خاصة بيد الملاحين العرب ومعلوماتهم التجريبية »(41) .

وفي خلال اللقاء عرض أحمد بن ماجد على فاسكو دي غاما خريطة كاملة للشواطئ الهندية، وكانت هذه الخريطة قد أعدت بصورة مفصلة حيث رسمت عليها خطوط الطول والعرض، وفي غاية الوضوح، غير أنها كانت تشمل إشارات عن اتجاهات الرياح، كما كانت توجد في الخرائط البرتغالية(42) . وعلى اية حال « فقد كانت مفاجأة كبرى ـــ كما تقول سونيا هاو ـــ للبرتغاليين أن يجدوا في حيازة هذا العربي خريطة للهند »(43) .

وأطلع الأميرال البرتغالي بدوره المرشد على أسطرلاب كبير من الخشب وآخر من المعدن، لقياس الشمس والنجوم، ولم يبد ابن ماجد ـــ كما يقول باروس ـــ أية دهشة كانت لرؤية هذه الآلات من النحاس من شكل مثلث أو مربع لقياس ارتفاع الشمس والنجوم، بخاصة النجم القطبي الذي يسترشدون به في الملاحة، وأضاف قائلاً أنه هو نفسه وبحارة كمباية Cambay في الهند يبحرون على هدي النجوم الشمالية والجنوبية، ونجوم أخرى خاصة، توجد عادة في وسط السماء وتجري من الشرق إلى الغرب، غير أنهم لايقيسون ارتفاع الشمس بآلات مثل هذه التي اطلع عليها فاسكو دي غاما، بل يقيسونه بآلة أخرى استخدمها هو نفسه ثم أحضرها في الحال ليريه إياها، وهي آلة تتألف من ثلاثة ألواح(44) .

وقصارى القول أن هذا الحديث الطويل الذي تم بين ابن ماجد وفاسكو دي

غاما، جعل الأخير ــ كما يقول باروس ــ يخرج بانطباع بأنه لم يكسب رجلاً ماهراً في الملاحة، شأواً عن الملاحين البرتغاليين في فنه فحسب، بل إنه عثر على « كنز عظيم »[45] . وعند هذا الحد، كما يلاحظ من نص النهروالي، تتوقف مهمة ابن ماجد حيث قدم المعلومات التي تفيدهم في الإبحار إلى الهند .

جـ ــ ابن ماجد والإرشاد البحري :

لم تكن مسألة إرشاد (لا قيادة) ابن ماجد للبرتغاليين إلى الهند جناية، أو « تهمة فظيعة، ترقى إلى مستوى الخيانة العظمى »، كما يقول الاستاذ علي التاجر[46] بل إنها كانت في ــ نظر ابن ماجد نفسه ــ طبيعية وذلك لعدة اعتبارات :

1 ــ اعتبارات إنسانية :

تتعلق بطبيعة الإنسان الشرقي عامة، والعربي خاصة، فهو حينما يطلب منه العون، أو الإرشاد إلى مكان ما، بعد فترة من الضلال والتيه، فإنه لايبخل على سائله بشيء . وهي تصرفات عادية وطبيعية، يعرفها كل من له صلة بمثل هذه المجتمعات الشرقية، إذ يلقى فيها الغرباء الحفاوة والتقدير، وتقدم لهم كل المساعدات الممكنة طيلة إقامتهم في هذه المجتمعات .

ومما له صلة بهذا الاعتبار أن ابن ماجد لم يكن على علم مسبق بطبيعة النوايا والأهداف الاستعمارية البرتغالية في الشرق، وما ستلحقه به من أضرار سياسية واقتصادية، ولو عرف ذلك لما قام بالإرشاد أصلاً . إلا أنه، وفي المنطق الإنساني الذي أشرنا إليه، أظهر ابن ماجد استعداده لتوجيه السفن الضالة، برتغالية كانت أم عربية . لقد كان ابن ماجد صادق النية في إرشاده، ولم يكن ينوي إيذاء أحد أو ضرره، ففي نصيحته لقواد السفن البرتغالية المتوجهين نحو الهند يقول : « عندما تبلغون الهند يجب أن تستعملوا الرقة في حديثكم، وألا تؤذوا أحداً إلا دفاعاً عن النفس، وإن عليكم أن تحافظوا على مستوى الأسعار في معاملاتكم التجارية »[47] .

2 ــ اعتبارات علمية :

لم تكن الاعتبارات العلمية لتمنع ابن ماجد في أن يسدي نصيحته للبرتغاليين، وأن يتبادل المعلومات والخبرات الملاحية معهم . ففي أثناء لقائه بهم على ظهر سفينة القيـادة البرتغالية ــ كما أشرنا ــ أطلع ابن ماجد فاسكو دي غاما على الآلات والخرائط البحرية التي كان يستخدمها العرب في البحار الشرقية، كما أطلع الأخير ابن ماجد على الآلات التي يحملها البرتغاليون معهم .

إن لقاء ابن ماجد مع فاسكو دي غاما كان من قبيل الفضول العلمي، حيث أراد الملاح العربي ــ كما يبدو ــ أن يتعرف على معلومات البرتغاليين الملاحية، وهو ما أشـار إليه في مؤلفاته . أما فاسكو دي غاما، فقد أراد الإفادة من معلومات الأول، وذلك استكمالاً لمشروعات البرتغاليين الاستعمارية . ومهما يكن من أمر فإن الدوافع العلمية كانت هي الحافز الأساسي لقبول أحمد بن ماجد اللقاء بالبرتغاليين وتوجيههم، ولو لم يكن من حقه كملاح، ذا عزة وأنفة عربية، أن يستكشف نوايا الآخرين، سواء أكانوا برتغاليين أم غيرهم .

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن ابن ماجد كان يؤمن بحرية الملاحة في البحار كلها، لأنها ليست ملك أي قوة تتسلط على العالم، حيث يقول في ذلك « واعلم أيها الطالب أن كل أحد صانع في بره خابر به، أهل الصين في الصين، وأهل سفالة في سفالة، وأهل الهند في الهند، وأهل الحجاز في الحجاز، وأهل الشام في الشام، ولكن البحر ليس هو بحر أحد من هؤلاء الطوائف(48)».

وفي مجالات الاعتبارات العلمية يجب أن لانظن أن أحمد بن ماجد كان جاهلاً لدرجة أنه كان يقبل بإفشاء أسرار الملاحة العربية إلى البرتغاليين بسهولة، بخاصة وأنه يدعو باستمرار إلى المحافظة على هذه المعلومات، وعدم البوح بها للعدو حيث يشير إلى ذلك صراحة بقوله :

« والحذر كل الحذر إذا استشارك عدوك في السفينة، فإنه لم يستشرك إلا عند فساد الأمر، مقصوده يشركك في الشر والتعب والامتحان، والمعلم، الكلمة عليه سابقة، فهذب الرأي واصمت، أو أجب جواباً لايضرك في العواقب ولايلزمونك به »(49).

د ــ البرتغاليون في مؤلفات ابن ماجد :

تعد القصيدة (السفالية) المصدر الوحيد المعاصر الذي أشار فيه ابن ماجد إلى أخبار البرتغاليين في شرق أفريقيا والمحيط الهندي، وهي بذلك بمثابة حجر الزاوية في كل مايمس هذا الموضوع . ومع أن شوموفسكي قد درس هذه القصيدة وكتب كثيراً من التعليقات والهوامش عنها . إلا أنها ماتزال بحاجة إلى المزيد من الدراسات والتمعن. إذ لو قرأت هذه القصيدة بتمعن لأوحت إلى القارئ بأمور جديدة، بخاصة فيما يتعلق بصلة ابن ماجد بالبرتغاليين . لقد كان شوموفسكي صريحاً مع نفسه ومع زملائه عندما اعترف بأن « السفالية » لم تحلل تحليلاً دقيقاً، وأنه (أي شوموفسكي) إنما قصد أن يدفع بالبحث خطوة إلى الأمام .

لقد تتبع ابن ماجد أخبار البرتغاليين وأشار إليهم أربعة عشرة مرة، ويبدأ قبل كل شيء بوصف بلادهم، حيث يقول :

وهو الذي قد قهر المضاربة وأندلس في حكمه مناسبة

وصفتهم حقاً وهذا جهدي وليس أدرى ما يكون بعدي(50).

ثم يتحدث عن تحرك الفرنجة (يعني البرتغاليين) عبر « المدخل » أي رأس الرجاء الصالح، إلى أفريقيا الشرقية، ثم إلى المحيط الهندي عام 900 هـ/ 1415 م، وفي هذا الحديث إشارة واضحة إلى معرفة ابن ماجد بهذا الطريق إذ يقول :

مدخلها للبحر في المغارب قد صح هذا عن ذوي التجارب

جازتها في عام تسعماية مراكب الإفرنج ياخاية(51).

وتدل إشـارات أخرى إلى أن ابن ماجد كان على علم برحلات البرتغـاليين الاستطلاعية، الذين وصلوا الحبشة براً وأخذو معلومات وصفية عن كل قادم من بلاد الهند، بحثاً عن الطريق إلى الشرق، وفي ذلك يقول :

فيــقــصــدون البر ذاك الحــين ـــر الحبش يـرســون بــالتمكــين
ويــدخــلون هنــاك في الجبــال ويكتبــون أوراق بــــالأحــوال
لكـــل من يــأتي من أرض الهنــد وذا المــكـــان أفهــمــن رشــدي
فتـــارة قـــد يــلتــقــون فيـــه وتــارة يخــالفــوا عــليـــه(52).

وعلى الرغم مما حصـل عليه البرتغاليون من معلومات، إلا أنهم ظلوا يجهلون مواعيد هبوب الرياح الموسمية في المحيط الهندي وشرق أفريقيا، مما أدى إلى إلحاق الكوارث بسفنهم . ويشير ابن ماجد إلى هذا كله عند وصفه للرياح الموسمية التي تهب على شرق أفريقيا في منطقة كلوة، مؤكداً أهمية التعرف على الرياح الموسمية لهذه المنطقة بقوله :

زلوا بهــا الإفــرنج عــلق المــوســم في عيــد مكيــال بــالتــوهــم
قــام عــليهــم موج تـلك الروس في ســفـــالة بقـــي معــكـــوس
وانقـــلبت أدفـــالهـــم في المـــاء والســـفــن فـوق المـــا يــاخـــايّ
غــرقـــاً يــرون بعـضهــم لبـعـض كن عــارفـاً موسـم تلك الأرض(53).

ويعطينـا ابن ماجد وصفـاً لسنتي التيـه، اللتين عرفهما البحارة البرتغاليون في البحار المجهولة، قبل أن يحط ركابهم بأرض الهند على نحو ماذكره النهروالي، ثم عادوا بعد ذلك إلى منطقة الزنج في شرق أفريقيا، إذ يقول :

تجيز عــــامــــين كامــــلين فيهـــا ومـــالوا الهنـــد بـــاليــقـــين
ورجعـــوا في هنـــدهـــم للزنج في هـــذه الطـــريق الإفـــرنج(54).

وهذا التلميح على مايبدو يتعلق بالدور الحاسم لرحلة فاسكو دي غاما عام

1498، ولكن كيف يمكننا التوفيق بين التاريخ الأول (عام 900 هـ / 1495) الذي ذكره ابن ماجد عن اجتياز البرتغاليين حول رأس الرجاء الصالح، وبين التاريخ الثاني الذي وصلوا فيه الهند، ألا وهو عام (906 هـ / 1500 - 1501 م)، بعد الإبحارات الفاشلة طيلة سنتين متتاليتين (901 - 902 هـ / 1496 - 1497 م)، فهو يقول :

وبعد ذا في عام تسعماية وست جاؤا الهند ياخاية
واشتروا البيوت ثم سكنوا وصاحبوا وللسواحر ركنوا(55).

والحقيقة أنه من الصعب تقدير سبب إغفال ابن ماجد للسنوات الواقعة بين التاريخين المذكورين، ولكن من المعروف أن كثيراً من الأحداث الواردة في « السفالة » تفتقر إلى تثبيت تواريخها، ومع ذلك فهي تحمل معلومات مهمة عن وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية، ومعرفة ابن ماجد بذلك، حيث يقول :

يخالط البحر في المغارب هذا الذي حكوا
لم أعتبر إلا بعلم واكد يسنده الطالب بعلم واكد
أما الفرنج بعد أن أدنوا في ذي الطريق بعدما تمكنوا
أول مايجرون في خروجهم من الفرنج ــ قيل لي ــ ولوجهم(56).

والأهم من ذلك كله، يشير ابن ماجد بأنه أعظم ربان في تلك البحار وأنه من الصعب على غيره الإبحار فيه، وتأتي هذه الإشارة في نفس الوقت الذي يتحدث عن البرتغاليين، وكأنه أراد ربط معرفته الملاحية بشرق أفريقيا بما أسداه لهم من نصيحة، حيث يقول :

دقق وحقق إن أخذت منها خلاص ياربان ثم صنفها
ثم تأمله بذي السفالية تهديك في الجنوب خذ فعالية
لاغيرها في هذه الطريق نعم، منها علم بالتحقيق

وســـــوف تـــزداد بهـــذي الطـــر ق من الفــــرنج معـــــرفــــة وحـــدق
عـــرفتهـــا حـــتى بقـــي ربـــانهـــا يســـألني عنهـــا وعن شعبـــانها[57].

وإلى جانب النصوص السابقة، يمكننا أن نضيف أخرى أكثر قيمة للباحث، فيما يتعلق بمعرفة ابن ماجد الملاحية، واعتماد الملوك عليه، وتكليفه في المهمات الملاحية الصعبة، إذ يشير :

أنفـقت عمـري على عـلم عرفت بـه فـازددت بـالعـلم توفيراً على كبري
لالم أكن أهـــلاً لمـــا عنـــيت بي المـلوك، وهـذا غـايـة الوطر[58].

ويعزز ابن ماجد إشارته السابقة بقوله :

وخصـــني والي البـــلاد بـالسـفـر من دون غـيري بـــالهدى والظـفـر
لاشـــك أن من يـــرى بـــالعـــين تـركن إليـــه النـــاس بـــاليقــين[59].

على أن أهم بيت شعر يرد في « السفالية »، ويتضمن الاشارة إلى إرشاد ابن ماجد للبرتغاليين قوله :

وقـــالت الإفـــرنج بـــالتحـــقـــيـــق إنـــا كشـــفـنـــاهـــا على الطـريق[60]

على أن هذه الصورة لايمكن أن توحي للقارئ أبداً أن ابن ماجد قد ارتضى لنفســه أن يسـاعد البرتغـاليـين في الوصول إلى الهند لو علم طبيعة مقاصدهم الاستعمارية . بل يفهم من إشارات كثيرة أوردها في سفاليته، أنه لاحاجة عليه في الاعتماد على المعلومات البرتغالية، وتوجيه القارئ بصراحة إلى الاستفادة من تلك المعلومات أيضاً بقوله :

مـــا في ســـــودانك والمـــغـــاربـــة انقـــل ذا عن خـــابـر قـد جـربـه
وزادنـــا بعـــلمـنـــا الفـــرنجي وصـــار يحكـمهـم بذاك النهج[61].

وتندرج تحت هذا النوع من المعلومات الإشارات الآتية :

وســـــوف تـــزداد بهـــذه الطـــرق من الفــــرنج معـــــرفــــة وحـــذق

وقوله :

عنـــد المـــراح والمجيء يـــاصـــــاح « خذ منهم ذا النهج بالإيضاح »[62].

وإذا تركنا جانباً هذه الإشارات، التي يبدو أنها كانت بداية اتصال ابن ماجد بالبرتغاليين، وانتقلنا إلى معلومات تالية، أصبح فيها ابن ماجد شاهد العيان لوقائع الاستعمار البرتغالي، نجده يذكر ذلك بأسى كبير في أراجيزه، حيث يقول :

وجـاء لكـاليكـوت خذ ذي الفـايدة لعـــام تسـعـمـايـة وست زائـدة
وبـــاع فيهـــا واشـــترى وحكـمـــا والســـامـري بـرطـله وظـلمـــا
وســـار فيهـــا مبـغـض الإسـلام والنــــاس في خـــوف واهتمام
وانقـطـع المـكي عن أرض الســامري وجـد « جردفون » للمســافري[63].

ويكرر ابن ماجد مثل هذا الشعور عندما يعود لأحداث سنة 1500 – 1501، ولكن بصورة أكثر لما شاهده من سياسة البرتغاليين، التي أصبحت قائمة على إفناء الحكام العرب في شرق أفريقيا وتدعيم قبضتهم على الهند، إذ يقول :

يــاليت شـعـري مـا يكـون منهـم والنـــاس معجبـين من أمـرهـم[64].

وتبرهن لنـا الإشـارات السـالفة، على أن ابن ماجد أخذ ينظر إلى السيطرة البرتغالية على الطرق في المحيط الهندي، على أنها حالة حرب، وهو يريد أن يحيا لزمن يوضع فيه حد لمثل هذه الحالة، إذ يقول :

لو كنت أحيـا « لزمـان الصـلح » كتبت عـلمـــاً يستحـق المـدح[65]

وهكذا تبين لنا مقدار الشعور المعادي للبرتغاليين الذي أظهره ابن ماجد في سفاليته، وهو شعور لم يكن موجوداً في بداية تأليفه لها، مما يدل على تغير شعوره نحوهم تماماً، إذ لم يكن بخلده أن هؤلاء سيستفيدون من إرشاده لهم لدرجة أنهم يعودون بالضرر على الملاحة العربية وتدميرها .

وصفوة القول أن ابن ماجد، إذا كان قد اتصل بالبرتغاليين، كما أشار إلى ذلك

النهروالي، وكما نلاحظ في بعض الإشارات العابرة في سفاليته، فإن اتصاله لم يكن إلا من قبيل الاتصال العلمي المحض، يدفعه في ذلك غرض إنساني يهدف إلى إرشاد السائل، مهما كان أصله وجنسه، للوصول إلى الهدف الذي يرميه، مع العلم أنه كان غير عارف بطبيعة نوايا ذلك السائل ــ حتى وإن كان برتغالياً .

إن حرص ابن ماجد على مهنته وعدم الإفشاء بأسرارها، أمر لاغبار عليه، وكذلك هو الشأن في حبه لبلاده وأمته واستقلالها . وعلى ذلك تسقط الاعتبارات التي تعد ابن ماجد مسؤولاً عما لحق ببلاد الشرق من مساوئ الاستعمار البرتغالي، إذ من يدري هل كان البرتغاليون يقفون مكتوفي الأيدي تجاه عملية الوصول إلى الشرق، مع العلم أن هذا الأمر كان يشغل بالهم، ويمثل أهم تطلعاتهم طوال القرن الخامس عشر .

هوامش البحث

1 ــ خوان بيرنيط، هل هناك فن عربي اسباني لفن الخرائط البحرية ؟ تعريب الأستاذ مختار العبادي، **مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد**، العدد الأول السنة الأولى (1953)، ص 80 – 1 .

2 ــ المصدر نفسه، ص 86 – 88 .

3 ــ أحمد بن ماجد، ثلاث أزهار في معرفة البحار، تحقيق ونشر ثيودور شوموفسكي، ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسي (عالم الكتب، القاهرة، 1969) ص 60 .

4 ــ سونيا . ي . هاو، في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، (مكتبة نهضة مصر بالفجالة، 1957) ص 105 .

5 ــ المصدر نفسه، ص 122 .

6 ــ الدكتور أنور عبد العليم، ابن ماجد الملاح ــ أعلام العرب 63 ، (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967) ص 34 .

7 ــ أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم (مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، 1965) ج 2 ص 564 .

8 ــ سونيا هاو، المصدر السابق، ص 123 ، انظر أيضاً حنفي هند ابن اسماعيل، المصابيح المنيرة في تواريخ القرون الأخيرة (بولاق، القاهرة، 1266) ص 303 .

9 ــ

Francisco Alvares, The Praster John of the Indies, being the narrative of the Portuguese embassy to Ethiopia in 1520 A.D. by C.F. Beckingham and W.B. Hunting Ford (Cambridge Hakl, Soc.

1961), No.2. P.375.

IBID, P.374.

10 ـــ انظر أيضـــاً السيوجيان، ربان سفينة، وثائق تاريخية وجغرافية عن أفريقيا الشرقية . نقله إلى اللغة العربية ملخصاً يوسف كمال (القاهرة، ط 1927) ص207.

11 ـــ سونيا هاو، المصدر السابق، ص 152 .

12 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 88 .

13 ـــ أحمد بن ماجد، كتاب الفوائد في أصول علم البحار والقواعد، تحقيق ابراهيم خوري وعزة حسن (دمشق، 1971) ص 443 .

14 ـــ المصدر نفسه، ص 235 .

15 ـــ المصدر نفسه

16 ـــ المصدر نفسه، ص 192 .

17 ـــ نقلاً عن : أبو ظفر الندوي، أسطول كجرات، تعريب عميد الزمان القاسمي الكيرانوي، **مجلة ثقافة الهند**، المجلد 17 ، العدد 3 (يوليو، 1966) ص 87 .

18 ـــ ابن ماجد، الفوائد، ص 114 ، الندوي، المصدر السابق، ص 88 .

19 ـــ ابن ماجد، الفوائد، ص 114 .

20 ـــ كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج 2 ص 577 .

21 ـــ المصدر نفسه، ج 2 ص 581 .

22 ـــ دائرة المعارف الإسلامية، مادة : شهاب الدين أحمد بن ماجد، كتبها فران ونقلها إلى العربية محمد ثابت أفندي وأحمد الشنتاوي، ج 13 ص 400 .

23 ـــ نقلاً عن بيرنيط : المصدر السابق، ص 82 – 3 .

24 ـــ كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج 2 ص 562 .

25 ـــ جيمس دفي، الاستعمار البرتغالي في أفريقية، ترجمة الدسوقي حسنين المرامبي (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963)، ص 33 .

26 ـــ المصدر نفسه، انظر أيضاً : جيان المصدر السابق، ص 204 .

27 ـــ أحمد حمود المعمري، عُمان وشرقي أفريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله (مطابع سجل العرب، 1980) ص 48 .

28 ـــ سونيا هاو، المصدر السابق، ص 177 ، انظر أيضاً :

Pierre channu , European expansion in the latter Middle Ages (North Holland Publishing Campany Amsterdam, 1979). P.132.

29 ـــ سونيا هاو، المصدر السابق، ص 177 .

30 ـــ

Fernandez de Figueroa Aspaniard in the Portuguese Indies,ed. by James B.Mc Kenna, Harvard University Press, Cambridge. Massachusetts, 1967) p.23.

31 ـــ انظر جيان، المصدر السابق، ص 207 ، كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج 2 ص 562 ، ابن اسماعيل، المصدر السابق، ص 305 .

32 ـــ المصدر نفسه .

33 ـــ سونيا هاو، المصدر السابق، ص 195 ، جيان المصدر السابق، ص 209 .

34 ـــ سونيا هاو، المصدر السابق، ص 196 ، ابن اسماعيل، المصدر السابق، ص 306 .

35 ـــ قطب الدين النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرف على طبعه حمد الجاسر (منشورات اليمامة للبحث والترجمة، الرياض، ط 1، 1967) ص18 – 19 .

36 ـــ علي التاجر، الربان أحمد بن ماجد ـــ الحلقة الثالثة ـــ، **مجلة العرب**

(السعودية) الجزء الخامس، السنة الخامسة (كانون الثاني، 1971) ص458 – 9.

37 ــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 45 .

38 ــ لقد ناقش الدكتور محمد عبد العال أحمد هذه القضية في بحثه المرسوم فاسكو دي غاما : أضواء وملامح، المناهل، العدد 20 ، السنة 8 (مارس، 1981) ص342.

39 ــ

40 ــ نقلاً عن شوموفسكي، المصدر السابق، ص 85 ، أيضاً بحث الدكتور حسام الخادم ابن ماجد : دوره في اكتشاف طريق الهند البحري ومظاهر التفكير العلمي في كتاباته، **مجلة الوثيقة**، العدد الثاني عشر، السنة السادسة (يناير، 1988) ص 30 .

41 ــ Enropean expansion P.P 133 – 5

42 ــ الندوي، المصدر السابق، ص104 .

43 ــ في طلب التوابل، ص 197 .

44 ــ للتفاصيل انظر ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 85 ، الخادم، المصدر السابق ص 31 ، دائرة المعارف الإسلامية، أحمد بن ماجد، ج 13 ص 398 – 9 .

45 ــ الندوي، المصدر السابق، ص 104 .

46 ــ أنا وابن ماجد وآخرون، أبحاث الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية المنعقد في أبو ظبي، نوفمبر 1979 ، ص 174 .

47 ــ سونيا هاو، المصدر السابق، ص 198 .

48 ـ ابن ماجد، الفوائد، ص 286 .

49 ــ المصدر نفسه، ص 245 .

50 ــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 43 .

51 ــ المصدر نفسه، ص 45 .

52 ــ المصدر نفسه، ص 47 .

53 ــ المصدر نفسه، ص 40 .

54 ــ المصدر نفسه، ص 45 .

55 ــ المصدر نفسه،

56 ــ المصدر نفسه، ص 47 .

57 ــ المصدر نفسه، ص 51 ــ 52 .

58 ــ ابن ماجد، الفوائد، ص 247 .

59 ــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص ٥٢ .

60 ــ المصدر نفسه، ص 50 .

61 ــ المصدر نفسه، ص 41 .

62 ــ المصدر نفسه، ص 51 ــ 52 ، ص 47 .

63 ــ المصدر نفسه، ص 43 .

64 ــ المصدر نفسه، ص 45 .

65 ــ المصدر نفسه، ص 48 .

ابـن مـاجـد وشـرق أفـريـقـيـا
دراسة من خلال مؤلفاته

الدكتـورة : صبـاح إبراهيم الشيخلي

علاقات عُمان بشرق أفريقا حتى بداية القرن 10 هـ / 16 م

لا أريد بهذه المقدمة أن أؤرخ العلاقات العمانية الأفريقية، وإنما الهدف هو تقديم موجز عن علاقات عُمان بشرق أفريقيا، من حيث دوافعها وأسبابها وطبيعة هذه العلاقة، ولكي أصل منها إلى طبيعة اهتمام ابن ماجد الكبير بشرق أفريقيا وصلته بها . والواقع أنني لاآتي بشيء جديد إذا ماقلت أن علاقة العرب بشرق أفريقيا بدأت منذ وقت مبكر قبل الإسلام، وكان العمانيون « فضلاً عن اليمنيين والحضارمة »، أول رواد لساحل أفريقيا الشرقي، وأكثر تأثيراً في المنطقة من أي فريق آخر .

وقد ساعدت عوامل عدة على الاتصال بين العمانيين وسكان شرق أفريقيا، يأتي في مقدمتها العلاقة المكانية المتأتية من موقع عمان الجغرافي المهم، فهي تمتد مواجهة للخليج العربي والمحيط الهندي، وتقع على طريق التجارة البحرية التي تأتي في أسواق المحيط الهندي، وهذا ماجعلها مركزاً لتجميع السلع الآتية من أفريقيا ومن الهند والصين، إلى أنحاء العالم المعروف آنذاك[1] فالتجارة هي التي حملت العمانيين إلى أفريقيا، وبحكم نمو التبادل التجاري بين الطرفين، وصلت مراكب العمانيين إلى مناطق سفالة (موزمبيق) والواق واق ــ آخر أرض الزنج[2] .

إن ارتباط الشاطئ العماني بالبحر، منذ وجوده، جعل من شعبه ملاحين مهرة وأصحاب سفن، قاموا برحلات خطيرة عن طريق المحيط إلى الأراضي في شرق أفريقيا . فقد ذكر المسعودي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، أن « أهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج (خليج بربري) إلى جزيرة قنبلوا في بحر الزنج، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار الزنج، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب، يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري، وهم يعرفونه ببحر بربري .. موجه عظيم كالجبال الشواهق ... وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد .. وينتهي هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قنبلوا على ماذكرنا،

وإلى بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج وأسافل من بحرهم ... وقد ركبت هذا البحر من مدينة سنجار إلى بلاد عُمان »[3].

إن إشارة المسعودي هذه لتقدم دليلاً قاطعاً على وجود ملاحة مباشرة ونشطة بين عمان وشرق أفريقيا، وأن أصحاب السفن العمانيين يسيرون بمراكبهم إلى أقصى جهات الساحل الشرقي لأفريقيا .

ومما ساعد عرب عمان في التوجه البحري والتجاري نحو شرق أفريقيا، معرفتهم الجيدة بالبحر وطرق الملاحة وقوانينها، ولاسيما الرياح الموسمية التي تهب على منطقة المحيط الهندي، والتي مكنت سفنهم الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود ـــ ففي الخريف تندفع الرياح نحو الجنوب الغربي، فتخرج السفن من خليج عمان إلى المحيط الهندي، ثم تسير بمحاذاة الساحل الأفريقي . وفي الربيع تندفع الرياح باتجاه شمال شرقي بحيث تمكن السفن من العودة إلى قواعدها في ساحل عمان . وهكذا استغل أهل عمان مهارتهم البحرية فاندفعوا إلى الشرق الأفريقي خدمة لأغراضهم التجارية[4].

وفضلاً عن ذلك فقد اسهمت الأوضاع السياسية والدينية بعد تكوين الدولة العربية في عمان، في هجرة الكثير من العمانيين إلى شرق أفريقيا والاستقرار فيها، لبعد هذه المنطقة عن الأحداث في الخليج العربي . ففي النصف الأول من القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد، وبعد انتفاضة حكام عمان الأزديين من آل الجلندي على حكم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، هاجر سليمان وسعيد ابني الجلندي مع بني قومهم إلى شرق أفريقيا، بعد هزيمتهم على يد جيش الخليفة الذي أرسله إلى عمان بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، عاملة على العراق من أجل إخضاع عمان لسلطة الخلافة أولاً ومن أجل السيطرة على الطرق التجارية البحرية التي تربط عمان بالشرق الأقصى من جهة، وشرق أفريقيا من جهة أخرى[5].

ويعتقد أن هذه هي أول هجرة عربية إلى مناطق الساحل الشرقي لأفريقيا وهذا يعني أن العمـانيـين أول من أقام مستقرات لهم في كل الجهات(6) ولا نعرف، على وجه الدقة، المكان الذي استقر فيه هؤلاء الأزد، ولكن المعروف أنهم أقاموا في باتا (إحدى جزر أرخبيل لامو) شمالي كينيا، بل تذهب الروايات إلى أنهم أسسوا مدينة باتا(7).

أما الهجرة العمـانيـة الأخرى المهمـة إلى شـرق أفريقيـا، فهي هجرة الأسـرة النبهـانية . والمعروف أن القبائل النبهانية كانت قد فرضت سيطرتها على عمان في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. وبعد خلافاتهم مع اليعاربة وانهيار دولتهم، هاجر النبهانيون (عام 601 هـ / 1203 م)، بزعامة سليمان النبهاني إلى شرق أفريقيا واستقروا في مدينة باتا . وقد تزوج الحاكم النبهاني من ابنة حاكم باتا العربي البتـاوي، وأصبح حاكماً على المنطقـة، كما أن باتا نفسها أصبحت مركزاً للسـلطة النبهانية التي استحوذت على ساحل أفريقيا الشرقي . وغدت باتا في القرن الثامن الهجري / الرابع عشـر الميـلادي أقوى دولة على السـاحل، وانتعشت فيها حركة التجارة، وظلت هكذا حتى القرن التاسع عشر الميلادي(8)،وبذلك يكون العمانيون قد نجحوا في مد سلطانهم على ساحل أفريقيا الشرقي، وإقامة إمارات تابعة لهم .

وفي ضوء العلاقات الوثيقة لعمان بشرق أفريقيا، يبدو طبيعياً أن يكون لرجل البحـار ابن ماجد العماني اهتمام كبير بها، وهذا ما سنحاول بحثه في الصفحات التالية .

ابن ماجد وشرق أفريقيا :

دفع اهتمام العمـانيـين بإقامة علاقات بحرية وتجارية وسياسية مع شرق أفريقيا، البعض من رجالها لدراسة قواعد وأصول الإبحار إليها، بل وتأليف مجموعة كبيرة أو صغيرة من المقالات عنها، وإلى هذه المجموعة ينتسب ابن ماجد .

ولا نجد صعوبة في التعرف على ابن ماجد، فهو يعرف بأصله ونسبه وثقافته

ونتاجه العلمي، الذي يعد إسهاماً مهماً في مجال الحضارة الإنسانية . فاسمه الكامل شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي[9]. ويدل نسبه على أن أصل أسرته في وسط الجزيرة العربية من نجد في الحجاز . أما هو نفسه، فمدينته جلفار (عُمان سابقاً ورأس الخيمة حالياً).[10].

وينحدر ابن ماجد من أسرة ربابنة، ورث العمل في البحر من جده وأبيه، فقد كان جده ملاحاً مشهوراً، أما أبوه فقد كان يلقب بـ(ربان البرين)، وقد دوَّن تجاربه الملاحية في مصنف ضخم هو (أرجوزته الحجازية)[11]. ونشأ ابن ماجد وترعرع في بيئة بحرية، وأسرة اهتمت بالبحر، فأثر ذلك في اختيار مهنته كملاح يركب البحر إلى آخر أيام حياته، التي عاشها في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، مع العلم أننا نجهل تاريخ ميلاده أو وفاته .

كانت شرق أفريقيا واحدة من الجهات التي قصدها ابن ماجد، وهو يقود مركبه في البحار[12]. أما متى بدأت علاقته بشرق أفريقيا، فليس لدينا أي إشارة عن ذلك، ولكن من الواضح أنها بدأت مع بداية اهتمامه بالبحر وركوبه فيه . والمعروف أن ابن ماجد كان قد تولى قيادة المراكب وهو بعد حدث صغير مع أبيه، وهو في سن العاشرة من عمره، وعند بلوغه سن العشرين تولى مسؤولية المركب مسؤولية تامة[13]. فقاد سفر المسافرين والتجار من عُمان إلى شرق أفريقيا .

إن زيارات ابن ماجد إلى شرق أفريقيا التي لا تعد ولا تحصى، ولمدة تزيد عن نصف قرن، قد أكسبته تجربة عميقة عن المنطقة وسكانها، وحكامها، ومنتجاتها، وجغرافيتها، وفنون الملاحة البحرية في مياهها . كما أنها أطلعته على ما عند سكان المنطقة من معرفة ملاحية وجغرافية للمياه والسواحل، فأخذ منها الصحيح، وانتقد الخطأ وصوَّبه[14]

كانت تجربة ابن ماجد الشخصية الفنية في مسالك البحار (وضمنها مياه شرق أفريقيا)، فضلاً عن تجربة جده وأبيه التي أخذها، قد أغنتها اطلاعاته الواسعة على عدد من مؤلفات من سبقوه في ميدان اختصاصه[15]، فضلاً عن المؤلفات الأخرى في ميادين متعددة[16]. فقد واظب ابن ماجد على طلب المعرفة التي نذر نفسه لها، واجتهد في سؤال معاصريه طوال حياته[17].

بدأ ابن ماجد، و بما أحرزه من تجربة شخصية طويلة، بتحبير مؤلفاته شعراً ونثراً عن المناطق التي رحل إليها، ومن بينها شرق أفريقيا، والتي أثبت فيها مقدرة نادرة في معرفة سواحل المحيط الهندي، ونال الحظوة عند بعض حكام شرق أفريقيا[18].

مؤلفات ابن ماجد عن شرق أفريقيا :

ذاع صيت ابن ماجد، ليس كملاح محنك، بل ككاتب كثير الإنتاج أيضاً . وقد بقي من مؤلفاته إلى اليوم ما يربو على الأربعين مؤلفاً شعراً ونثراً . والمهم في الأمر أن ابن ماجد قد خصص نصيباً مهماً في مؤلفاته عن شرق أفريقيا .

وفي كتابه « الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » يجد الباحث شذرا ت مهمة وطريفة عن شرق أفريقيا، وهو الكتاب الوحيد الذي كتبه بالنثر .

أما تاريخ تدوينه، فإن ابن ماجد في أثناء عرضه للكتاب يذكر عدة تواريخ[19]. مما يستدل منه على أن المؤلف قد أضاف عليه عدة مرات، وأعاد تنقيحه، بصورة يمكن القول بأن الكتاب قد كتب بين عامي 880 ــ 895 هـ / 1475 ــ 1489 م، يبدأ الكتاب بالتاريخ الأول .

ويعكس ابن ماجد في كتابه أحسن ما حصل عليه من خبرات علمية اكتسبها عبر عدة عقود كقائد بحري في أثناء رحلاته في المحيط الهندي . كما يستعرض فيه المعلومات الواسعة عندما ينقل عن عدد كبير ممن سبقوه في مضمار الجغرافية الملاحية والفلك، مبيناً ضعف تأليفهم، فيرى نفسه مدفوعاً إلى نشر ما عنده خشية

الضياع، ولكي تستفيد منه الأجيال بعده . ويحاول ابن ماجد أن يشعر القارئ بأن ما صنفه في كتاب « الفوائد » قد نال استحسان معاصرين من أهل مهنته، وعملوا به واعتمدوا عليه[20] . ويعد ابن ماجد على حق في ذلك، إذ أثار كتابه هذا ليس إعجاب معاصريه فحسب، بل الكتاب المحدثين أيضاً، الذين عدُّوه ذروة ما ألف في مجال الملاحة والفلك، وأول مؤلف للمرشدات البحرية الحديثة .[21] .

وكتاب « الفوائد » مبوب إلى اثني عشر قسماً، يطلق المؤلف على كل منها اسم « فائدة »، وتحتوي بعض هذه الأقسام على معلومات قليلة، غير أنها مهمة، عن شرق أفريقيا، يمكن حصرها بالآتي :

1 ــ في الفائدة الرابعة المخصصة للمنازل وورود الرياح وتسمى (الأخنان) المرتبطة بطلوع نجوم معينة ومغيبها، يشير ابن ماجد إلى (الأخنان) الخاصة بالساحل الأفريقي، التي يجب أن يعرفها ملاحو هذه المياه[22] .

2 ــ في الفائدة التاسعة التي تتعلق بدورة البحر على جميع الدنيا، فيها وصف للسواحل، ومنها ساحل أفريقيا الشرقي بأقسامه المتعددة (بربرا، الزنج، سفالة، وما بعدها) والمدن المنتشرة على ساحله[23] .

3 ــ والفائدة التاسعة تهتم أيضاً بوصف الجزر الكبار المشهورات والمعمورات، حيث نجد ذكراً لبعض جزر شرق أفريقيا، كجزر القُمر، وجزيرة زنجبار[24] .

4 ــ أما الفائدة الحادية عشرة التي يخص الكلام فيها عن مواسم السفر في البحر، فنجدها تتضمن السفر إلى شرق أفريقيا[25] . وسوف نفصل في قيمة هذه المعلومات وأهميتها في الصفحات التالية .

أما المصنف الثاني الذي خصه ابن ماجد عن شرق أفريقيا فهو أرجوزته المسماة بـ(السفالية)، نسبة إلى منطقة سفالة في ساحل أفريقيا الشرقي . إن هذه التسمية تعكس لنا مدى أهمية شرق أفريقيا عند ابن ماجد، وإن هذه الأهمية كانت حجر

الزاوية في العلاقات العربية الأفريقية، في الفترة التي عاشها ابن ماجد أيضاً.

وتعد « السفالية » صورة كاملة للساحل الأفريقي الشرقي، ودليلاً للملاحة فيه. وتنحصر أهميتها بالنسبة لموضوع بحثنا، في كونها تتضمن معلومات جغرافية وتاريخية، ودلالات سياسية في غاية الأهمية، وذلك فضلاً عن الجوانب الأساسية المختلفة للملاحة في مياه شرق أفريقيا.

ويبين ابن ماجد في سفاليته سبب تأليفه لها، والموضوعات التي كتبت فيها وأهميتها بقوله :

هي سبع ماية بيت تزيد عنها ... عن أحمد السعدي احفظها
وادع لي في الموت والحياة ... من الإله غافر الزلات
نظمتها ولم أر السؤال ... كلا ولا السؤال
شتان بين السائل المجود ... وبين من لم للسؤال يهتدي
عرفتها حتى بقي ربانها ... يسألني عنها وعن شعبانها
وخصني والي البلاد بالسفر ... من دون غيري بالهدى والظفر
لا شك أن من يرى بالعين ... تركني إليه بالناس باليقين
كفى بذا في جودة السؤال ... تصورت بالقلب بالكمال
شعبانها والبر والقياس ... والريح والموسم ثم الناس
ثم المطارح ودخول الجزر ... حققت بالتدقيق اسم شوري
وأعبر لها بالحزم والصلاة ... على النبي اتخذ وصاتي[26]

فابن ماجد لم يؤلف سفاليته المكونة من أكثر من سبعمائة بيت من الشعر، إلا بعد أن عرف شرق أفريقيا، وتخصص بالسفر إلى تلك البلاد، ونال الحظوة عند حكامها، إلى درجة أنه منح حق السفر إليها دون غيره، لأنه اهتدى إلى طرقها، ونجح في الوصول إليها دائماً. فكان ذلك سبباً في لجوء الناس وربابنة السفن عن

قناعة إليه، يسألونه أن يصف لهم شرق أفريقيا، تاركين غيره من الذين يؤمون تلك البلاد . عرف ابن ماجد تلك المنطقة بالعين المجردة، فكتب عن موضوعات متنوعة في سفاليته، فوصف تلك المنطقة وشعابها، وقياسات ومواسم السفر والرياح التي يجب أن يسافر الناس فيها، وناس تلك المنطقة، كما ذكر المطارح، ودخول الجزر، ولم يكتب ذلك كله إلا بعد التحقيق الدقيق، فحق له بعد ذلك أن يطلب ممن يقرأ قصيدته السفالية بأن يدعو له بالغفران .

أما الطريقة التي دوّن بها ابن ماجد معلوماته عن شرق أفريقيا، فقد اتصفت ـــ كما يذكر هو نفسه في (السفالية) ـــ بالشمول، والصدق، وصحة المعلومات، بسبب علمه الكبير بالمنطقة ومعرفته بها، كما سجل ما هو متفق عليه، وما يلائم المسافر إلى تلك المناطق ويهديه إلى نهايتها . فابن ماجد بعد ذلك محق بأن يعتبر هذه (الأرجوزة) الدليل الوحيد للطريق إلى جنوب الساحل الأفريقي الشرقي[27].

أما مصادر كتابته للسفالية، فلا نجد لها ذكراً في الأرجوزة بصورة صريحة . ولكن كثيراً ما نجده يشير إلى أنه أخذ (عن ذوي التجارب)[28]. ونقل (عن خابر قد جربه)[29]. (وقيل لي)[30]. و(ممن يصدق هذا الخبر)[31]. فهو إذاً لم يحدد مصادره، وهذا يعني أنه أخذ عمن سبقه في المهنة من الملاحين ذوي التجارب والمعرفة .

كما أنه قرأ المرشدات البحرية، ولكنه لم يعتمدها كمصدر من مصادر تدوينه للسفالية، لأنها عديمة الفائدة، بعد تبدل الأسماء وتغيرها في أيامه[32]. كما أنه أخذ بعض المعلومات عن الإفرنج (يعني البرتغاليين) بعد وصولهم الشرق[33]. أما المصادر المتعلقة بتجاربه الخاصة، فلها مكان واسع في سفاليته حيث يسجل ابن ماجد مرات عديدة أن الظواهر والموضوعات التي يصفها قد رآها وخبرها بنفسه[34].

فضلاً عن تجاربه وخبرته الطويلة في مهنته . حمل ابن ماجد ذلك كله في ذهنه

عندما بدأ يكتب عن شرق أفريقيا، فكان ما كتبه في مجموعه يمثل صورة كاملة للساحل الأفريقي الشرقي . ويمكن أن نقسم ما دوَّنه عن تلك المنطقة إلى قسمين : الأول جغرافي وملاحي، والثاني تاريخي .

معلومات ابن ماجد الجغرافية والملاحية عن شرق أفريقيا :

1 ــ المعلومات الجغرافية :

يعد الجانب الجغرافي الذي كتبه ابن ماجد عن شرق أفريقيا مبنياً على المعلومات المأخوذة والمنقولة عن الكتب الجغرافية الوسيطة للجغرافيين العرب، فضلاً عما عرفه عن جغرافية تلك المنطقة من خلال خبرته الشخصية .

قسم ابن ماجد الساحل الأفريقي الشرقي إلى أربعة أقسام : بربرا، والزنج، وسفالة، والمنطقة الرابعة ما يقع بعد سفالة من بلاد[35] . وهو نفس التقسيم الذي اتبعه الجغرافيون العرب مثل السعودي في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر »، والحموي في كتابه « معجم البلدان »، وابن سعيد في كتابه « الجغرافية » . ولكن مما يثير الانتباه أن الجغرافيين العرب يطلقون على المنطقة الرابعة في تقسيم ساحل أفريقيا الشرقي اسم (واق واق) بعدها أرض مجهولة غامضة لم يصلوها[36] . ولا ترد التسمية عند ابن ماجد بهذه الصورة، مما يشير إلى عدم استعمالها في أيامه . والسبب واضح في ذلك، وهو وصول العرب المسلمين إلى تلك المنطقة، فلم تعد المناطق بعد سفالة مجهولة غامضة عندهم . فقد ذكر ابن ماجد عدداً من مدنها وجزرها، منها ملبوني، وخور مومة، وملاتي[37]، وكلواني، ومن جزرها شربوه وجزيرة وازة، وهي آخر ما وصله العرب في أيام ابن ماجد[38] . وبهذا يكون ابن ماجد قد أضاف إضافة مهمة إلى معلومات الجغرافيين العرب الذين سبقوه ، بخاصة فيما يتعلق بتعريف المنطقة الرابعة، وتقسيمها للساحل الأفريقي الشرقي .

لانجد في تحديد المناطق الثلاث المتبقية (بربرا، والزنج، وسفالة) اختلافاً واضحاً

بين ابن ماجد والجغرافيين العرب الذين سبقوه . فبلاد بربرا وخليجها (الخليج البربري) تبدأ في أرض الحبشة وتنتهي ببلاد الزنج، سواء عند ابن ماجد (39) أم عند من سبقوه (40). باستثناء أنه أضفى مزيداً من المعلومات عند هذه المنطقة حيث يذكر مدنها . فبدايتها عنده بندر موسى وجردفون، ثم نجد حافون باتجاه الجنوب (41) .

أما أرض الزنج، فقد حددها الجغرافيون العرب بصورة دقيقة قبل أن يكتب ابن ماجد عن شرق أفريقيا بعدة قرون، وهي المنطقة الممتدة بين مدينة مقاديشو (في الصومال) إلى بلاد سفالة (42)، فقد قدر المسعودي مساحة هذه المنطقة بنحو سبعمائة فرسخ، بما فيها الأودية والجبال والرمال (43). أما ابن ماجد فقد أعطانا مزيداً من المعلومات عن مدن هذه المنطقة، والشريط الساحلي المتكون من عدد كبير من الجزر فيها . إذ يتكلم عن مقاديشو وبراوة ومنبسة وكلوة وعن الجزر الكبيرة مثل زنجبار والعديد من الجزر الصغيرة (44). ومما يثير الدهشة، أن ابن ماجد يضفي على منطقة الزنج الممتدة من مقاديشو إلى سفالة اسم أرض الحبشة الجنوبية الشرقية(45).

وهي تسمية لم ترد عند الجغرافيين العرب الذين سبقوه في وصف هذه المنطقة . ويبدو أنه أراد بهذه التسمية تحديد موقع المنطقة وكونها جزءاً من أرض الحبشة .

أما سفالة، القسم الثالث من الساحل الأفريقي الشرقي، فيسميها ابن ماجد سفال وسفالية وسفالة (46). وهي أرض الذهب عنده وعند من كتب قبله عن (سفالة) (47). وقد فصل ابن ماجد في ذكر موانئها وجزرها بشكل لم يسبقه إليه أحد .

وتتضح معلومات ابن ماجد الجغرافية، عندما يصف مدن الساحل الأفريقي الشرقي، فهو يحدد الموقع، والمسافات بين المدن، وطبيعة الأرض والمياه، فضلاً عن

حديثه أحياناً عن المزروعات والحيوانات والثروة المعدنية .

كذلك نجده يصف جغرافية الشريط الساحلي المتكون من الجزر، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة .

وعندما يتكلم ابن ماجد عن مدن بلاد الزنج يبدا بمقاديشو، ثم ينتقل إلى مدينة مركة وبراوة، حيث نجده يقدر المسافة بينهما بيوم واحد، فيقول :

لمـــــــركة ثم إلى بـــــــــراوة   تقـطـعـهــا في يـوم بــالتـلاوة [48].

كما يشير إلى شدة الحر في هذه المنطقة، لاسيما قبل الدخول إلى براوة، ثم يسير ابن ماجد جنوباً إلى مدينة كتاوة (باتا)، حيث يصف الخور الطويل الذي تقع في بدايته، وعلى الجهة اليمنى بالضبط، وإلى اليسار من هذا الخور تقع مدينة لامو [49]. والمعروف أن باتا (كتاوة) ولامو مدينتان من جزر أرخبيل لامو، ومن الصعب الفصل بينهما، فالأولى كانت العاصمة السياسية، والثانية العاصمة التجارية في هذا الأرخبيل [50]، ولذا نجد أن ابن ماجد قد أشار إلى الاثنتين معاً .

يسافر ابن ماجد بعد ذلك إلى مالندي، وهي كما يصفها واقعة على رأس بحري طويل واضح للمسافر [51]. وإلى الجنوب منها مدينة منبسة الواقعة على ضفة خور كبير تدخله المراكب، ويصفها بأنها جزيرة قريبة جداً من البر [52]. وهذا الوصف يطابق ماجاء عند من سبقه من الجغرافيين العرب [53]. كما يشير إلى إحدى أهم مميزات منبسة، وهو عمق البحر قربها وكفايته لحمل السفن للدخول إلى مينائها [54] وهذا ما يؤكده الربان الفرنسي جيان الذي زار المنطقة بعد ابن ماجد بمدة [55] .

ينتقل ابن ماجد بعد ذلك إلى وصف مدينة من أهم مدن الساحل في أيامه وهي مدينة كلوة . وهنا نجده يسهب في وصف الجزر القريبة منها، ويشير إلى تميز هذه الجزر بوجود الأشجار العالية فيها [56]. كما نجده يحذر المسافرين من شعب كلوة ويطلب منهم مجاراته حتى يدخل البحر، ومن هناك إلى المدينة [57].

ومن بلاد كلوة إلى سفالة، حيث ينصح ابن ماجد بالسير بمحاذاة الشاطئ، لأن طريق سفالة غير مأمون لاختلاف الريح فيه . كما يشير إلى علو الماء في مدخل منطقة سفالة وفي علامات الدخول إلى خور هذه المنطقة وجود الأشجار(58) .

ويشير ابن ماجد بصورة متكررة إلى وجود الذهب في سفالة، ويحدد مناجمه فيقول بأنها تقع في منطقة مياه (أنهار) حيث يسكن هناك مجموعات من الناس الهمج، كما يذكر كثرة الحيوانات المتوحشة من السباع والفيلة فيها(59) .

ويذكر ابن ماجد أن الجزر الواقعة بعد مناطق سفالة مثل جزيرة شربونة تحتوي على العاج والعنبر(60). وأخيراً يصف المستنقعات والجبال الواقعة جنوب منطقة سفالة، ويقول أن جزيرة وازة آخر ماوصل إليه العرب في سفراتهم، أما بعدها فلا يعلمه إلا الله، حيث يدور البحر إلى الغرب .

ما بعدهم سوى جزيرة وازة ولاجنوبيها أحد قد جازه
درقاق أوساخ معها جبال يعلمها ربي ذو الجلال
هو الذي تعرفه ياصاحب والبر هناك يدور في المقارب(61)

ويبدو في هذه الأبيات أن ابن ماجد لم يصل إلى تلك المناطق الواقعة جنوب سفالة .

وتنال جزر شرق أفريقيا اهتمام ابن ماجد، فمن الجزر التي يذكرها جزيرة القمر، وهي عنده تقع على يسار أرض سفالة، لانجد في يمينها أية برارٍ، وجنوبها البحر بظلماته ممتد(62). ويعد ابن ماجد جزيرة القمر من الجزر الكبار، ومع ذلك لايذكر مساحتها لاختلاف الآراء في ذلك، فيقول :

« واختلف الرواة في طولها وعرضها، لأنها مُجنبة من عمارة الدنيا، وعن الأقاليم المسكونة في الدنيا . فلذلك وقع فيها الاشتباه، وقد ذكروا في الكتب الكبار أنها أعظم جزائر الأرض المعمورة، وطولها قريب عشرين درجة، وبينها وبين بر سفالة

وجزره جزائر وشعبـان، ومع ذلك لايمنع المسـافر أن يحوز بينهما، وجزيرة القمر منسوبة لقامر بن عامر بن سام بن نوح عليه السلام » (63) .

وهذه المرة الوحيدة التي يحاول ابن ماجد ذكر الأساطير الخاصة بشرق أفريقيا، ويبدو من كلامه أنه غير مقتنع بها .

ومن الجزر التي جاء ذكرها في كتابات ابن ماجد (منفية)، حيث يذكر أنها جزيرة تمر بها المراكب قبل وصولها إلى كلوة، وهي مثلثة الشكل معمورة بالناس، ويبدو أن ابن ماجد معجب بهذه الجزيرة، على الرغم من صغرها، فيقول عنها :

لمنفية نعم فيها جزيرة مختصرة مثلثة معمورة(64).

أما جزيرة واسيني، الواقعة قرب مدينة منبسة، فيبدو أنها تتصل بمستنقع ناحية الجنوب، ولهذا يُخطئ ابن ماجد الزنوج من سكان المنطقة الذين يعتقدون أن المستنقعات تتصل بها من ناحية الشمال، فيقول :

كذاك واسيني عليها وسخ متصلاً إلى الجنوب يافي
وقالت الزنوج أن منها لكن في القلب فاحفظها
وذاك عندي خطأ يا صاح اسمع لوصفي تلتقي الصلاح(65).

ونظراً لوجود المستنقعات هذه، يطلب ابن ماجد من المسافر في هذه المنطقة، أن يلتزم بالمجرى المعروف في سيره، والذي يربط واسيني بزنجبار الواقعة جنوبها(66).

يتقدم ابن ماجد بعد ذلك جنوباً إلى الجزيرة الخضراء، واصفاً للمسافرين الطريق المسلوك الذي يربطها مع جزيرة القمر جنوبها، ويعد ابن ماجد الخضراء من الجزر الكبار في المنطقة(67). كما يصف عدداً من الجزر الصغيرة والمنتشرة بين واسيني وزنجبار، منها (رأس الحمام) والمستنقعات الخفية التي يجب على المسافر تجنبها بالميل إلى ناحية اليمين من أجل سلامته . ثم يذكر أن السفر من رأس الحمام، ولمدة ليلة واحدة، يوصل المركب إلى جزيرة زنجبار(68).

وجزيرة زنجبار من الجزر التي تنال الحظوة في كتابات ابن ماجد، يعدها إحدى الجزر الكبار في شرق أفريقيا، فهو يقول :

فكـــل هـــذه الجـــزر كبـــار أعـــني لك الخضراء وزنجبـــار(69)

ويذكر أن حولها مايربو على الست عشرة جزيرة من ناحية الغرب والجنوب، وتكثر المستنقعات فيها من بين هذه الجزر الآتي :

وحـــول زنجبـــار هجـــلة جـــزر قـــريب ستـــة عشـــر أعـــلم وأدري
وهي في الجنـــوب والمـــغـــارب عن زنجبـــار برسـخ يـا صـاحب(70)

ويذكر من هذه الجزر الست عشرة، جزيرة الكافر ورأس النيل وكوالمة وجزيرة الشرقاء واسمها الزنجي كما ذكره ابن ماجد (ايكوها جوندة)(71).

ويعطي ابن ماجد صفة العظمة لجزيرة زنجبار بعدها مركزللحكم الإسلامي منذ وقت مبكر . ومازالت كذلك في زمانه، فقد عدّ المساجد الجامعة فيها فوجدها أربعين مسجداً جامعاً، وهو يقول في ذلك :

وزنجبـــار جـــزيـــرة عظـــيـــمـــة بـــأربعـــين خطـــيـــة قـــديـمـة

ويقول عنها في الفوائد أيضاً « ومنها أربعون خطبة، يحكم عليها سلاطين الإسلام »(73). ويحفظ ابن ماجد عدة أسطر في كتابه الفوائد أيضاً لجزيرة زنجبار، واصفاً طبيعتها الجغرافية، من أنهار وأشجار ومناخ، فيقول : « ممتدة على أرض الزنج وهي ذات أشجار وأنهار ... وهي جزيرة وخيمة »(74).

2 ـــ المعلومات الملاحية :

تشكل المعلومات الملاحية والفلكية عند ابن ماجد جزءاً مهماً في كتاباته عن شرق أفريقيا، يعده ملاحاً دائب السفر، وأحد ربابنة السفن المشهورين في مياه تلك المنطقة، وسنحاول أن نتناول شذرات متفرقة منها، للتدليل على أهمية وضرورة هذه المعلومات للمسافرين والتجار من مناطق شرق أفريقيا وإليها . ولندع ابن ماجد

يفصل فيما ذكره من معلومات ملاحية وفلكية تخص شرق أفريقيا ـــ فهو يقول في مقدمة أرجوزته المعروفة « بالسفالية » والتي خصها إلى شرق أفريقيا الآتي :

« هذه الأرجوزة المسماة بالسفالية ومعناها يقتضي معرفة المجاري والقياسات من نواحي الساحل والزنج وأرض السفال والقمر وجزره ونواد علوم، جميع مافي تلك النواحي إلى آخر الأرض في الجنوب، وذكرت قياسات يعرف بهم المعلم النقصان والزيادة في جميع الأخنان، ووصف نوادر في تلك الطريق من القياسات والدير والمجاري وسكان الأرض وملوكها ومواسمها وسفرها على مايليق بذلك المكان »(75).

وقال شعراً في السفالية، يتضمن الموضوع نفسه :

ذكرت ماخليت منه مجرى ... إن جزت في عمرك هذا البحرا
تلقى بها قولي وحجة فعلي ... لأنه علم كبير عقلي
وصح أن البر والقمر هنا ... ثمانية أزوام مابينهما
في آخر القمر في الجنوب ... متفق عليه ياحبيبي
وجزر طير الرخ والقصار ... من نسل آدم كن بذاك داري
ثم الكور في القياس والدير ... أو شعب أو جزيرة بلا بشر
أو شدة الماء ومرسى ترسه ... فالفحل من دبر فيه نفسه
دقق وحقق إذا أخذت منها ... خلاصي ياربان ثن صنفها
ثم تأمله بذي السفالية ... تهديك في الجنوب خذ عقالية
لاغيرها في هذه الطريق ... نَعَمْ، منها علم بالتحقيق(76).

وهكذا يذكر ابن ماجد كل مايحتاجه المسافر إلى مناطق شرق أفريقيا من أمور ملاحية وفلكية، فهو يبدأ بتعريف القياسات التي يجب اتباعها في تحديد المجرى الذي يتخذه المسافر في مياه شرق أفريقيا، كما يعطي أوصافاً لطبيعة المجرى من حيث

عمقه أو ضحالة المياه فيه، ثم بيان حركة المد والجزر والشعب والرؤس والجبال والمنارات في تلك المياه . كما يفصل بين الدوامات واتجاه الريح في ذلك الساحل في مختلف أوقات السنة، التي تحدد مواسم السفر . وفي رأيه أن من يتبع تعليماته بدقة وتحقيق، يصل إلى أقصى مناطق شرق أفريقيا بسلام .

ففي مواسم السفر إلى شرق أفريقيا، يبدو من كلام ابن ماجد أن لكل منطقة من مناطق الساحل موسماً خاصاً للسفر إليها . وقد فصل في ذلك في « أرجوزته السفالية »، فهناك موسم للسفر إلى مقاديشو وآخر إلى كلوة وثالث إلى سفالة وجزر القمر، وهذه المواسم تتفق مع موسم الرياح وملاءمتها للسفر في البحر[77]. ويرى ابن ماجد أن مواسم السفر تتحكم فيها حالات المد والجزر والأمطار أيضاً[78].

أما مسألة الكواكب (النجوم) التي تتحكم في تحديد الخروج أو عدمه إلى بحر الشرق الأفريقي، فيفصل ابن ماجد فيها ويبين الاتجاه الذي يزيد أو ينقص معه تأثير هذا العامل[79].

ومن المرشدات البحرية التي يتعرض ابن ماجد إلى ذكرها، فضلاً عن النجوم، القاع الطيني والحشائش والنباتات وبعض أنواع الطيور والأسماك، فمثلاً من يرى طيور (القرعا والمنجي) وأسماك (البتان والبهلول) عليه أن يعرف أن بينه وبين بر الصومال مسيرة نحو 12 ساعة تقريباً بالشراع إذا كانت الرياح مواتية[80].

وهكذا كان ابن ماجد الملاح، يجمع الخبرة بعالم البحر والعلم بطرقه الملاحية البحرية، ودلالتها والظواهر البحرية، وقد سجلها في مصنفاته ليفيد منها كل من ركب مياه شرق أفريقيا .

معلومات ابن ماجد التاريخية عن شرق أفريقيا :

تعد معلومات ابن ماجد التاريخية عن شرق أفريقيا، أقل قسم كتب فيه، إذا ما قورنت بمعلوماته الجغرافية والملاحية . ولكن قيمة هذه المعلومات تكمن في كونها

قائمة على مشاهداته الشخصية، لذا يمكن استخدامها في إثبات ونفي الأحداث التاريخية التي تتضمنها الكتب التاريخية والجغرافية، التي اهتمت بالكتابة عن تلك المنطقة .

يشمل ما أورده ابن ماجد من معلومات تاريخية عن شرق أفريقيا جوانب سياسية واقتصادية . ففي القسم السياسي تأتي معلوماته في سياق الحديث عن مدن وجزر تلك المنطقة، حيث يشير إلى الوضع السياسي فيها بين الحين والآخر .

وفي الوقت الذي لاتنال مدن ساحل منطقة (بربرا) منه سوى ذكر أسماء بعضها(81). نجده يبدأ بذكر مدن (بلاد الزنج) مبتدئاً بمقاديشو تلك المدينة التي بلغت أوج ازدهارها في القرنين 7 و 8 هـ / 13 و 14 م، ونالت اهتمام الكثير من الكتاب العرب . ففي القرن 7 هـ / 13 م يشير ابن سعيد إلى أن مدينة مقاديشو أول أرض الزنج وهي « مدينة الإسلام المشهورة في ذلك الصقع، المترددة الذكر على ألسن المسافرين »(82). أما ابن بطوطة في القرن 8 هـ / 14 م فإنه يتكلم بصورة تفصيلية عن هذه المدينة، يعدها مركزاً للحكم العربي الإسلامي في المنطقة، ويذكر أن العرب أقاموا فيها حكماً قائماً على الشورى(83). أما ابن ماجد فلم ترد عنه أي من هذه التفاصيل عن مقاديشو، والسبب في ذلك يعود لأن هذه المدينة كانت في أيامه قد فقدت أهميتها السياسية والتجارية معاً، حيث بدأ النفوذ العربي الإسلامي يمتد نحو الجنوب بصورة أكثر، فحرمها من أهميتها كمركز سياسي وتجاري منذ منتصف القرن 8 هـ / 14 م.(84). وكذلك الحال بالنسبة إلى مدينة مركة وبراوة وكناوة ولامو .. الواقعة جنوب مقاديشو، حيث لم يهتم ابن ماجد إلا بالنواحي الجغرافية والملاحية التي تتعلق بها(85).

يسافر ابن ماجد بعد ذلك إلى مدينة مالندي، تلك المدينة الصغيرة التي لم تحظ

باهتمام الكتاب العرب حتى القرن 6 هـ / 12 م . حيث ذكرها الإدريسي لأول مرة على أنها مدينة من مدن الزنوج المهمة(86). وقد أخذت هذه المدينة في الازدهار حتى بلغت مركزاً مرموقاً في القرن 9 هـ / 15 م، إلا أن ذلك الازدهار لم يؤهلها للسيطرة السياسية على مناطق الساحل الأفريقي الأخرى، واكتفت بمركزها التجاري في المنطقة . ومن هذا المنطلق، على مايبدو، أراد ابن ماجد أن يثير انتباه المسافر إليها(87).

ينتقل ابن ماجد إلى مدينة كلوة، ويسميها كلوة الملوك، يعدها مقراً لحكام كثير من مناطق الساحل الأفريقي الشرقي على أيامه . ترد كلوة في أرجوزة ابن ماجد (السفالية) بصورة متكررة، مؤكداً في ذلك على سيطرة هذه المدينة على كثير من مدن الساحل، مثل منبسة وسفالة الواقعتين جنوبها، وزنجبار ومافيا الواقعتين شمالها(88)

بلغت مدينة كلوة منذ القرن 6 هـ / 12 م درجة كبيرة من السطوة والنفوذ، وقد منحها موقعها المتوسط في ساحل أفريقيا الشرقي قوة سياسية في المنطقة، فاستحوذت عليها بالقوة تارة وبالسياسة والمصاهرة تارة أخرى، ولم تفقد نفوذها إلا بعد مجيء البرتغاليين إلى المنطقة(89).

أما منطقة مناجم الذهب في سفالة فيبدو أنها كانت مستقلة بنفسها وليس لأحد سيادة عليها، ولها ملك خاص بها يسميه ابن ماجد (الزنباوي) ويقول أن مركز حكمه في مدينة (خور كوامة)، والناس الذين يحكمهم ملك هذه المنطقة مازالوا كفاراً(90).

كتب ابن ماجد عن مدن شرق أفريقيا بصورة متفرقة دون أن يحاول الربط بينها، وهو بهذا يؤكد ما نعرفه عن الوضع السياسي للساحل الإفريقي الشرقي، حيث أن العرب لم يستطيعوا أن يكوِّنوا دولة واحدة قوية تجمعهم في تلك المنطقة، بل كوَّنوا إمارات مستقلة عن بعضها البعض، وإن كان قسم من تلك الإمارات قد فرض

سيادة واسعة على المنطقة أجمعها[91]. أما أيام ابن ماجد فقد كان لكوة دور السيادة على مناطق الساحل شمالها وجنوبها، كما أشرنا .

والشيء الذي يثير الدهشة، أن ابن ماجد لم يشر إلى الخلافات التي كانت قائمة بين بعض مشايخ الإمارة في هذا الساحل التي أدت إلى إخفاقها، إذ كانت المنافسات على أشدها فيما بينهم، من أجل توسيع مناطق نفوذهم على حساب البعض من جهة والسيطرة على مناطق الذهب في سفالة الغنية من جهة أخرى، وإنما اكتفى بذكر كلوة على الساحل بما فيه سفالة[92].

وهناك ناحية مهمة تخص الوضع السياسي للعرب في منطقة شرق أفريقيا قبل ابن ماجد وفي أيامه . فالإمارات العربية التي نشأت في تلك المنطقة لم تتعمق إلى الداخل لتفرض سيطرتها السياسية والحضارية، وإنما اكتفت بإقامة علاقات تخدم مصالحها التجارية، بشكل يؤمِّن لها وصول منتجات الداخل من ذهب وعاج وغيره[93].

وهذا الوضع يفسر لنا لماذا لم يكتب ابن ماجد إلا عن مدن الساحل، ولم يحاول أن يتعمق في داخل شرق أفريقيا، بل نجده يشير صراحة إلى أن مناطق العمق في المنطقة ماتزال مواطن للهمج والكفار لعدم وصول العرب المسلمين إليها[94].

أما أهم معلومة تاريخية وصلتنا عن ابن ماجد، فهي تسجيله لدخول البرتغاليين إلى شرق أفريقيا، وقد كان فيها شاهد عيان .

إن أرجوزة ابن ماجد (السفالية) هي الوحيدة التي جاء فيها ذكر الإفرنج (يقصد البرتغاليين)، حيث ورد اسمهم 14 مرة . وجاء ذلك لأول مرة عند وصف الرياح الموسمية التي تهب على الشاطئ الشرقي لأفريقيا لمنطقة كلوة، وعدم معرفتهم بمواعيد هبوب هذه الرياح، مما أدى إلى إلحاق الكوارث بسفنهم وهو يقول :

زلوا بها الإفرنج علق الموسم في عند ميكال بالتوهم

قام عليهم موج تلك الروس في سفالة بقي معكوس
وانقلبت أدفالهم في الماء والسفن فوق الما يا خائي
غرقاً يرون بعضهم لبعض وكن عارفاً موسم تلك الأرض[95]

ويسجل لنا ابن ماجد أن الذي دفع الإفرنج إلى المجيء إلى شرق أفريقيا هو الطمع، حيث كان هدفهم السيطرة على ما هو موجود فيها من معادن، لاسيما منطقة سفالة، من ذهب ونحاس وفضة[96]. وقد أشار ابن ماجد إلى أن سفن الإفرنج أبحرت بحذاء ساحل سفالة في عام 900 هـ / 1495 م وهي في طريقها إلى الهند، وبعد أن ظلت سنتين، عادت هذه السفن إلى شاطئ أفريقيا الشرقي، فيقول :

جازتها في عام تسعماية مراكب الإفرنج يا خاية
تجيز عامين كاملين فيها ومالوا الهند باليقين
من حاول (السين) يخاف مالا ما يرتجى والأتراك الأملا
ورجعوا من هندهم للزنج في هذه الطريق الإفرنج[97]

وإذا كانت أخبار ابن ماجد عن وصول البرتغاليين إلى شرق أفريقيا قد اتسمت في البداية بوصف هذا الوصول دون تعليق، فإننا نجد أن ابن ماجد سرعان ما شاهد بعينه واقع الاستعمار البرتغالي بنظامه الدخيل على المحيط الهندي، الذي أساء إلى الملاحة العربية[98]. وعرف عن كثب غزوهم للساحل الأفريقي الشرقي وجزره، ابتداءً من المناطق الواقعة جنوب سفالة وامتلاكهم لها، حيث يقول :

وبعدها على الجنوب تأتي جزر « شربوه » وهم ثلاث
ثلاثة مجربة محررة عمن رآها من قبل مخبرة
وخشب الإفرنج قد جاؤوها وملكوها بعد أن غازوها
وما بعدهم سوى جزيرة وازة ولا جنوبيها أحد قد جازة[99]

يظهر أن ابن ماجد مثل غيره ممن شهد وصول البرتغاليين لشرق أفريقيا، لم يقدِّر

أبعاد هذا الوصول . بل من الأنكى أن بعض سكان شرق أفريقيا كانوا قد ظنوا أن البرتغاليين من المسلمين جاؤوا من المغرب، فقدموا لهم المساعدة، كما كانوا يفعلون مع المسلمين دائماً، لمعرفتهم بأهدافهم ونواياهم تجاه المنطقة . ولكن سرعان ما اتضحت الحقيقة للجميع، بمن فيهم أحمد بن ماجد نفسه . ولذا، فقد اعتبر السيطرة البرتغالية على مناطق المحيط الهندي حالة حرب، وتمنى لو أن الله أطال في عمره ليشهد (زمان الصلح) حتى يتمكن أن يحقق آماله وأحلامه[100].

لأنهم لم يتركوا هذا الطرف فسوف علمهم لديك تعرف
إن طالت الأيام والليالي فأنا تسفن على الزوال
لو كنت أحيا الزمان الصلح كتبت علماً يستحق المدح[101]

وهكذا فإن أحلام ابن ماجد وآماله كانت في التخلص من السيطرة البرتغالية التي فرضت نفسها على الساحل الأفريقي الشرقي بالقوة .

تعد معلومات ابن ماجد عن وصول البرتغاليين إلى شرق أفريقيا وسيطرتهم عليه، مادة تاريخية ذات قيمة كبيرة، لأنه شهد هذه الأحداث بعينه . فهو مصدر معاصر لا غنى للباحث عنه في تاريخ شرق أفريقيا للقرن السادس عشر .

أما معلومات ابن ماجد الاقتصادية، فعلى الرغم من قلتها فإنها تفيدنا في رسم معالم النشاط التجاري الذي شهدته مناطق الشرق الأفريقي، والذي اقترن بوصول العرب إلى تلك المناطق . فقد كان العرب وحتى القرن 10 هـ / 16 م سادة المحيط الهندي والمتحكمين في تجارته . وقد نشطت تجارتهم في شرق أفريقيا من أجل الحصول على منتجاتها، وحملها إلى مراكز الاستهلاك، وكانت أهم هذه المنتجات هي الذهب والفضة والعاج والحديد والعنبر وغيرها .

إن اهتمام العرب بتجارة الذهب في شرق أفريقيا، قد بلغت ذروتها في نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، وبداية القرن العاشر الهجري / السادس

عشر الميلادي[102]. ولذا يؤكد ابن ماجد، ولمرات عديدة، على منطقة سفالة، حيث مناجم الذهب. فيصف الطريق الملاحي التجاري الذي يؤدي إليها، ابتداءً من الخليج العربي والجزيرة العربية، مفصلاً كل مرحلة من مراحله، مبيناً للمسافر الموانئ والمدن الموجودة على طوله، موضحاً مخاطر هذا الطريق ومصاعبه، والأسس التي يجب مراعاتها في السير في مياه شرق أفريقيا ،وصولاً إلى سفالة[103]

تنال منطقة سفالة، حيث مناجم الذهب، الحظوة في كتابات ابن ماجد كما أشرنا. فقد وضع حدودها وأسماء مدنها وموانئها، واصفاً بدقة مناجم الذهب في سفالة، والتي تقع على مسيرة شهر عن مدينة سفالة، باتجاه الغرب من مناطق مغمورة بالمياه (الأنهار)، وهذه المناجم هي امتداد لمناجم الذهب في النوبة، ويقدر ابن ماجد مساحة منجم ذهب سفالة بمسيرة سبعة أيام، فهو يقول في ذلك :.

مع هؤلاء المكين السفالي ومعدن النوبة لهم يوالي
يتصلوا بعضهم لبعض وبينهم البحر وحل بأرض
راضي على البحر من المغارب خبرني عنهم ذوي التجارب
مسير يا أخي سبعة أيام يجون بالبشاشات يا همام[104]
وينظرون لبلوغ الكفرة بل في بحر الغرب فذا المخبرة

ومن السلع التجارية التي يذكّر ابن ماجد المسافرين إلى شرق أفريقيا بها، العاج والعنبر. والمعروف أن هذه السلع متوفرة في عدة مناطق من شرق أفريقيا، ولكن ابن ماجد أراد التعريف بها حيث يذكر منها « ملبنوني » (ميناء بين كلوة وسفالة)، وجزيرة « شربوه » جنوب سفالة، فيقول :

منها على القطب ملنبوني ترى لمعدن الرجون ثم العبرا[105]
وبعدها على الجنوب تأتي جزيرة (شربوه) وهم ثلاث
أحمرهم يا صاحبي وشيكا والعاج والعنبر فيها يدركا[106]

كما يشير ابن ماجد إلى كثرة الحيوانات من السباع والفيلة في المناطق الواقعة جنوب سفالة، ولعل هذه تذكرة للراغبين في الحصول على العاج والجلود[107].

ويذكِّر ابن ماجد زوار المنطقة دائماً بالمراكز التجارية المهمة فيها، فمثلاً يشير إلى منبسة بكونها مركزاً تجارياً فنياً، فادخل « هنيت » بمسرات السفر لمنبسة فيها المبيع والظفر[108].

والواقع، كما يُستوحى من إشارات ابن ماجد، أن الجزر الواقعة في منطقة سفالة، مراكز مهمة للبيع والشراء، عامرة بالحركة[109].

ترتَّب على النشاط التجاري الذي شهدته شرق أفريقيا على يد العرب، أن ارتبطت هذه المنطقة عبر طرق التجارة البحرية بالخليج العربي والشرق الأقصى (الهند والصين)، وهذا ما أشار إليه ابن ماجدحيث وصفهذه الطرق في « سفاليته » .

ومن المعلومات الحضارية التي يؤكد عليها ابن ماجد، انتشار الإسلام الواسع في شرق أفريقيا، ففي جزيرة زنجبار ــ مركز الحكم الإسلامي المبكر ــ يذكر بأن هناك أربعين مسجداً جامعاً منتشراً في أنحائها[110].

ويؤكد ابن ماجد في هذا المجال الحقيقة المعروفة، وهي وصول الإسلام والحضارة العربية الإسلامية، حيث المناطق التي وصلها العرب المسلمون في شرق أفريقيا، بينما ظلت المناطق الأخرى مواطن للكفار والهمج، ومنها البلاد الواقعة جنوب سفالة[111].

كما نجد أن بعض المناطق، لاسيما بين كلوة وسفالة، قد انتشر الإسلام بين سكانها، على الرغم من بقاء حكامها على كفرهم[112].

لا تكاد توجد لدينا بين معلومات ابن ماجد عن شرق أفريقيا شيء عن طبقات المجتمع، أو عن الحياة الاجتماعية، التي لا بد أنه عرفها عن كثب، ولمسها شخصياً في رحلاته، ولكن نستطيع أن نستشف من كتاباته أن المدن والإمارات العربية في شرق

أفريقيا قد ضمت العرب والأفارقة . وهذه حقيقة واقعة، حيث أن العرب توافدوا إلى هذه المنطقة واختلطوا بسكانها الأفارقة، وأصبحت مدنهم وإماراتهم التي أنشؤوها في شرق أفريقيا، تحمل في نظمها وتقاليدها أصولاً عربية وأفريقية، بخاصة بعد التقارب والتمازج، الذي حصل بين العرب وسكان المنطقة(113) .

لم يشر ابن ماجد إلى شيء من هذا، فلا نسمع منه شيئاً عن الشعب السواحلي، الذي هو نتاج التمازج بين العرب والأفارقة، واللغة السواحلية التي هي مزيج من العربية واللهجات الأفريقية . كما لم يذكر ابن ماجد، مع الأسف، شيئاً عن مظاهر الحضارة العربية الإسلامية التي نقلها العرب إلى شرق أفريقيا، والتي شهد بها حتى المستعمرون الأوروبيون(114) .

إن بيانات ابن ماجد الخاصة بالوضع السياسي والاقتصادي في شرق أفريقيا، والقائمة على مشاهداته الشخصية، من خلال زياراته لموانئ المنطقة وجزرها تجعلنا نعد ما كتبه ابن ماجد مصدراً مهماً في تدوين تاريخ شرق أفريقيا . وحق على مؤرخينا أن يولوا كتاباته مزيداً من الاهتمام . رحم الله ابن ماجد، وأبقى ذكراه عطرة بين المهتمين بتاريخ شرق أفريقيا .

حواشي البحث

1 ـــ عبد الرحمن عبد الكريم العاني، دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري (سلطنة عمان 1981) ص 19 , 32 ـــ 3 .

2 ـــ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، ط 3 , 1958) ج 1 , 107 ـــ 8 .

3 ـــ المصدر نفسه .

4 ـــ شوقي الجمل، دور العرب الحضاري في شرق أفريقيا من القرنين السادس عشر والسابع عشـــر، ندوة العـــلاقـات بين الخليج وشرق أفريقيـا، رأس الخيمـة 1987 ، ص11 . انظر أيضاً R.Coupland,East Africa and its invaders (London,1934) p.21.

5 ـــ عبد الرحمن العاني، عُمان في العصور الإسلامية الأولى (بغداد 1977) .

ص 88 ، عامر محمد المجري، تاريخ العلاقات العُمانية ـــ الأفريقية، بداية التواجد العماني في شرق أفريقيا، البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية (الدوحة، قطر 1976) ج2 ، ص776 ـــ 77 .

6 ـــ أحمد حمود المعمري، عُمان وشرقي أفريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله (سلطنة عمان 1980)، ص 44 .

7 ـــ عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا (القاهرة 1970 ج1 ص77 ـــ 119، المجري ـــ المصدر السابق ص 777 .

8 ـــ خولة شاكر الدجيلي، العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الأفريقي الشرقي حتى القرن التـاسع الهجري أطروحة دكتوراه غير منشورة (جامعة بغداد، كلية الآداب، 1980) ص 78 ـــ 81 .

9 ـــ أحمد بن ماجد النجدي، كتـاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خوري وعزة حسن (دمشق 1971) ص 10 .

10 ـــ أغناطيوس كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (القاهرة1965) ج2 ص 573 .

11 ـــ أنور عبد العـليم، ابن ماجد الملاح (القاهرة 1967) ص 13 ـــ كراتشكوفسكي،

المصدر السابق، ج2 ص 573 .

12 ــ ابن ماجد، كتاب الفوائد، ص 3 .

13 ــ أحمد محمد عطيه، المعلم والأستاذ والشاعر والفلكي والملاح ورائد علم المرشدات البحرية، **الوثيقة**، العدد 2 ، السنة الأولى (1983) ص 158 .

14 ــ أحمد بن ماجد، ثلاث أزهار في معرفة البحار، تحقيق ثيودور شوموفسكي ترجمة محمد منير مرسي (القاهرة، 1969)، ص 11،42،123 .

15 ــ المصدر نفسه، ص 235 , 14 .

16 ــ اطلع ابن ماجد على الكثير من المؤلفات العربية الجغرافية والتاريخية للمسعودي وابن حوقل وأبي الفدا وغيرهم . المصدر نفسه، ص 100 ، ص171 .

17 ــ ابن ماجد، كتاب الفوائد، ص 3 .

18 ــ المصدر نفسه، ص 7 (المقدمة)، ثلاث أزهار، ص 51 .

19 ــ الفوائد، ص 18 .

20 ــ المصدر نفسه، ص 18 .

21 ــ كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج 2 ص 577 .

22 ــ ابن ماجد، الفوائد ص 159 – 160 .

23 ــ المصدر نفسه، ص 269 , 71 – 272 .

24 ــ المصدر نفسه، ص 299 , 292 .

25 ــ المصدر نفسه، ص 328 – 334 .

26 ــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 51 .

27 ــ المصدر نفسه، ص 51 .

28 ــ المصدر نفسه، ص 32 41 – 44 .

29 ــ المصدر نفسه، ص 42 .

30 ــ المصدر نفسه، ص 47 .

31 ــ المصدر نفسه، ص 49 .

32 ــ المصدر نفسه، ص 48 .

33 ــ المصدر نفسه، ص 42 .

34 ـــ المصدر نفسه، ص 23 , 20 , 89 .

35 ـــ المصدر نفسه، ص 17 – 18 ، ابن ماجد، الفوائد، ص 272 – 3 .

36 ـــ المسعودي، المصدر السابق، ج 2 ص 6 .

37 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 44 .

38 ـــ المصدر نفسه، ص 44 .

39 ـــ ابن ماجد، الفوائد، ص 272 .

40 ـــ المسعودي، المصدر السابق، ج 1 ص 107 ، ياقوت الحموي، معجم البلدان (القاهرة 1906)، ج 2 ص 106 ، ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافية، تحقيق اسماعيل العربي (بيروت، 1970) ص 82 .

41 ـــ ابن ماجد، الفوائد، ص 272 .

42 ـــ المسعودي، المصدر السابق، ج 2 ص 6 ، الحموي، ج 5 ، ج 3 ص 224 ، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (دار صاد بيروت، 1960) ص 62 .

43 ـــ مروج الذهب، ج 2 ص 6 .

44 ـــ انظر الصفحات التالية :

45 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 41 .

46 ـــ المصدر نفسه، ص 41 , 27 , 17 ، الفوائد، 272 ,

47 ـــ ثلاث أزهار، ص 44 ، المسعودي، ج1 ص 107 ، أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في احتراق الآفاق، نسخة مصورة بالفونستات عن نسخة بروليان أكسفورد، مخطوطة محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي (رقم 15 جغرافية)ورقة 70 .

48 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 27 .

49 ـــ المصدر نفسه، ص 29 .

50 ـــ الدجيلي، المصدر السابق، ص 82 .

51 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 29 .

52 المصدر نفسه .

53 ـــ الأدويس، المصدر السابق، ص 33 .

54 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 30 .

5 ـــ المسيوجان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية، ترجمة يوسف كمال القاهرة، 1927)، ص 224 .

5 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 36 .

5 ـــ المصدر نفسه، ص 37 .

5 ـــ المصدر نفسه، ص 39 .

5 ـــ المصدر نفسه، ص 44 .

6 ـــ المصدر نفسه، ص 45 .

6 ـــ المصدر نفسه، ص 44 – 5 .

6 ـــ ابن ماجد، الفوائد، ص 273 .

6 ـــ المصدر نفسه، ص 292 .

6 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 35 .

6 ـــ المصدر نفسه، ص 31 .

6 ـــ المصدر نفسه، ص 31 – 127 .

6 ـــ المصدر نفسه، ص 31 – 32 .

6 ـــ المصدر نفسه، ص 31 .

6 ـــ المصدر نفسه، ص 32 .

7 ـــ المصدر نفسه، ص 32 .

7 ـــ المصدر نفسه، ص 33 – 4 .

7 ـــ المصدر نفسه، ص 32 .

7 ـــ ابن ماجد، الفوائد، ص 229 .

7 ـــ المصدر نفسه .

7 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 17 .

7 ـــ المصدر نفسه، ص 51 .

7 ـــ المصدر نفسه، ص 40 , 50 , 51 .

7 ـــ ابن ماجد، الفوائد، ص 328 .

7 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 18 – 19 وما بعدها . كما ذكر ابن ماجد معلومات مفصلة

عن المنازل الفلكية والنجوم الملاحية التي يهتدي بها الربان في كتابه « الفوائد » في الفائدة الثالثة والرابعة، ص 31 - 178 .

80 ـــ الفوائد، ص 250 .

81 ـــ المصدر نفسه، ص 272 .

82 ـــ ابن سعيد، المصدر السابق، ص 82 .

83 ـــ محمد بن عبد الله اللواتي المشهور بابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة (بيروت 1979)، ج1 ص 282 .

84 — Durate Barbosa, The book of Durate Barbosa : an account of the Countries bordering on the Indian Ocean and their inhabitans Completed about the year 1518 A.D. translated from the Portuguas tex by M.L. Dames VOL. I ,(LONDON, HAK. SOC. 1918) NO.1, P.31

85 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 27 .

86 ـــ الأدويسي، المصدر السابق، ص 31 .

87 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 29 .

88 ـــ الجمل، المصدر السابق، ص 18

89 ـــ جيان، المصدر السابق، ص212 , 208 .

90 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 42 .

91 ـــ الجمل، المصدر السابق، ص 18 .

92 ـــ جيان، المصدر السابق، ص 246 .

93 ـــ الجمل، المصدر السابق، ص 18 .

94 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 2 - 41 .

95 ـــ المصدر نفسه، ص 40 .

96 ـــ المصدر نفسه، ص 42 .

97 ـــ المصدر نفسه، ص 45 .

98 ـــ المصدر نفسه، ص 118 .

99 ـــ المصدر نفسه، ص 44 .

100 ـــ المصدر نفسه، ص 122 .

101 ـــ المصدر نفسه، ص 48 .

102 ـــ الجمل، المصدر السابق، ص 20 .

103 ـــ انظر ما ذكرناه سابقاً .

104 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 42 .

105 ـــ المصدر نفسه، ص 38 .

106 ـــ المصدر نفسه، ص 44 .

107 ـــ المصدر نفسه، ص 45 .

108 ـــ المصدر نفسه، ص 30 .

109 ـــ المصدر نفسه، ص 49 .

110 ـــ ابن ماجد، الفوائد، ص 229 .

111 ـــ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 41 – 2 .

112 ـــ المصدر نفسه، ص 38 .

113 ـــ هذا ما أشار إليه الكتاب العرب قبل ابن ماجد . انظر ابن بطوطة، رحلة ج 1 ص281 283 . وأشار الكتاب البرتغاليون إلى ذلك أيضاً انظر، الجمل، المصدر السابق، ص 42 .

114 ـــ الجمل، المصدر السابق، ص 17 .

رحلات جريئة لابن ماجد
سَنَّ بها موسماً جديداً للسفر إلى جدة

حسن صالح شهاب

الرياح ومواسمها :

قبل استعراض هذه الرحلات سنتعرف على الرياح السائدة في المحيط الهندي ومواسمها، فالملاحة الشراعية في أي بحر تخضع، كما نعلم، لمواسم الرياح واتجاهاتها فيه، ولطبيعة البحر الجغرافية . وفي المحيط الهندي تخضع الملاحة الشراعية، من مشارقه إلى مغاربه، للرياح الموسمية الشمالية الشرقية، المعروفة عند البحارة بالأَزْيَب، وريح القَبُول . ومن أطرافه الغربية إلى أطرافه الشرقية للرياح الموسمية الجنوبية الغربية، المعروفة عند البحارة بالكَوْس، وهي الدبُور .

وهناك فترات تهب فيها الرياح من الشمال، والشمال الغربي، فتسمى بالشمال، وتهب في البحار الشمالية كالبحر الأحمر والخليج العربي، وتهب في أيام الشتاء، وريح من الشمال إلى الجزء الشمالي من البحر العربي، تعرف عند البحارة بالشمال، وريح (البنات) نسبة إلى نجوم (بنات نعش) (الدب الأكبر)، لأن مهب هذه الريح من ناحية مغيب هذه النجوم .

وتهب الرياح من الجنوب، والجنوب الشرقي، وتسمى الجنوب . وهناك رياح تأتي من الجنوب يسميها ابن ماجد (الدفّانة) . وفي هذين البيتين حدد ابن ماجد مهب كل واحدة من هذه الرياح الأربع . قال(1) :

مهب الصبا من مطلع الشمس مائل   إلى الجُدَى والشمال حتى مغيبها
وبين سهيل والمغيب تحققت   دبور ومطلعها إليه جنوبها

فمهب الصبا، وهو الأزيب، من مشرق الشمس إلى نجم (الجدى)، وهو نجم يعرف به مركز القطب الشمالي، ويعرف هذا النجم، عند البحارة، بالجاه، وهو من نجوم (بنات نعش الصغرى) (الدب الأصغر) وهو أبدي الظهور في الأقاليم الشمالية . ومن القطب الشمالي إلى مغيب الشمس مهب ريح الشمال . وبين القطب

الجنوبي، المعروف عند البحارة بنجم سهيل، وبين مغيب الشمس مهب رياح الدبور (الكَوْس) . ويسمى القطب الجنوبي بقطب سهيل، لأن نجم سهيل، المعروف عند رجال البحر والبادية والفلاحة، حتى الآن، يطلع من الجنوب . ومن الجنوب أو من (قطب سهيل) إلى مطلع الشمس مهب رياح الجنوب .

وتحسب مواسم هذه الرياح والأسفار بها بالتقويم النيروزي، وهو ــ كما يسميه ابن ماجد ــ النيروز العربي ــ الهندي . وتبدأ سنته في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني . قال في (الحاوية)[2]:

أمـــا ذوو الأزيـــاج والحســـاب عنـدهـــم النـــيروز بـــالصـــواب
بعـــد أحـد يـاصـــاح والعشـــرينـــا ثـــاني شـــهـــور الروم في تشـــرينـــا
وعنـــدنـــا [يطـــلع] ثـــالث عشـــر اكليـــلهـــا بـــالفجـــر بهذا الشـــهـــر

يقـول أن أول النـيروز عند أصحـاب الأزياج، وهي كتب سـير الكواكب وحسابها، بعد الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني . وعندنا، أي عند البحارة يكون النيروز في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني، مع طلوع منزلة (الإكليل) بالفجر[3].

وحدد ابن ماجد موسم رياح (الكوس) في الثمانين بعد المئة من النيروز، الثامن من شهر أكتوبر تقريبا[4]. لكن الكوس يستمر في بعض الأماكن أكثر من هذه الفترة . بل إنه يستمر إلى الشرق من (رأس فرتك)، بساحل بلاد العرب الجنوبي، أغلب أيام السنة . قال ابن ماجد (وظفار جميع أرياحها، من العام إلى العام، كوس الأربعين يوماً من عشرين إلى ستين النيروز، ويمكن أن يضرب فيها [يعني الأربعين اليوم] بعض حكايات [رياح] الكوس، لأنها معدن الكوس)[5]. ويحدث في الأيام الأولى والأخيرة من موسم كل من الأزيب والكوس، أن تتناوب هذه الرياح، فيهب الكوس تارة والأزيب تارة أخرى .

أما موسم الأزيب فيبدأ، على وجه التقريب، في الأيام الأولى من شهر أكتوبر، وقد تهب منه حايات في شهر سبتمبر، وينتهي في الأيام الأخيرة من شهر مايو، ويشتد الأزيب في الثلاثمائة والخمسين من النيروز، حوالى منتصف شهر نوفمبر .

وتهب رياح الشمال، التي تسمى ايضاً (البناتو) (الشتاء)، من أول النيروز إلى السبعين منه، أي من منتصف نوفمبر إلى الأيام الأخيرة من يناير تقريباً . وهذه الشمال ليست ـــ كما ذكرنا ـــ الشمال التي تهب في البحر الأحمر، فهذه تهب في الصيف كموسم الكوس .

السفر برياح الكوس :

تسافر المراكب برياح الكوس في فترتين : الأولى في أول الكوس، أي في الأيام الأولى من هبوبها، وتكون عادة معتدلة، ويعرف موسم السفر في هذه الفترة بـ (غلق المواسم)، لأن السفر يتوقف بعده لمدة تسعين يوماً في بحر الهند، بسبب اشتداد رياح الكوس خلالها . وهو موسم قصير جداً، فمن أراد السفر فيه إلى الهند من ساحل بلاد العرب الجنوبي، عليه أن يغالب رياح الأزيب حتى يصل إلى رأس (فرتك)، ومن رأس فرتك شرقاً يكون الكوس موجوداً فيحمله إلى الهند . ويشترط على من يريد السفر من موانئ خليج عدن أن يصل إلى (الشمر) قبل المائة والسبعين من النيروز، أوائل شهر مايو تقريباً . لأن الرياح تشتد بعد هذا التاريخ في البحر الغربي(6).

أما من موانئ البحر الأحمر، فيتعذر السفر في هذه الفترة بسبب قصرها، وشدة الأزيب في جنوبي البحر الأحمر وخليج عدن . فإذا استطاع صاحب عدن مغالبة الأزيب والوصول إلى (الشمر) قبل المائة والسبعين من النيروز، فإنه يستطيع الوصول إلى (جوزرات) بالجزء الشمالي من ساحل الهند الغربي . أما الموانئ الجنوبية

منه فلا يستطيع الوصول إليها لأنها كثيرة الأمطار[7] .

ومن موانئ عُمان ومدخل الخليج العربي، يكاد السفر لا ينقطع طوال العام إلى (جوزرات)، لاسيما إذا كان المركب معدّاً المغالبة، وكان ربانه ماهراً[8] .

ويتوقف السفر بعد هذا الموسم، في الجزء الغربي من المحيط الهندي بسبب قوة الكوس، حوالى ثلاثة أشهر، من مائتين إلى مائتين وتسعين معيناً من النيروز ــ من أول يونيو إلى نهاية أغسطس تقريباً ــ . قال ابن ماجد في (الحاوية) :

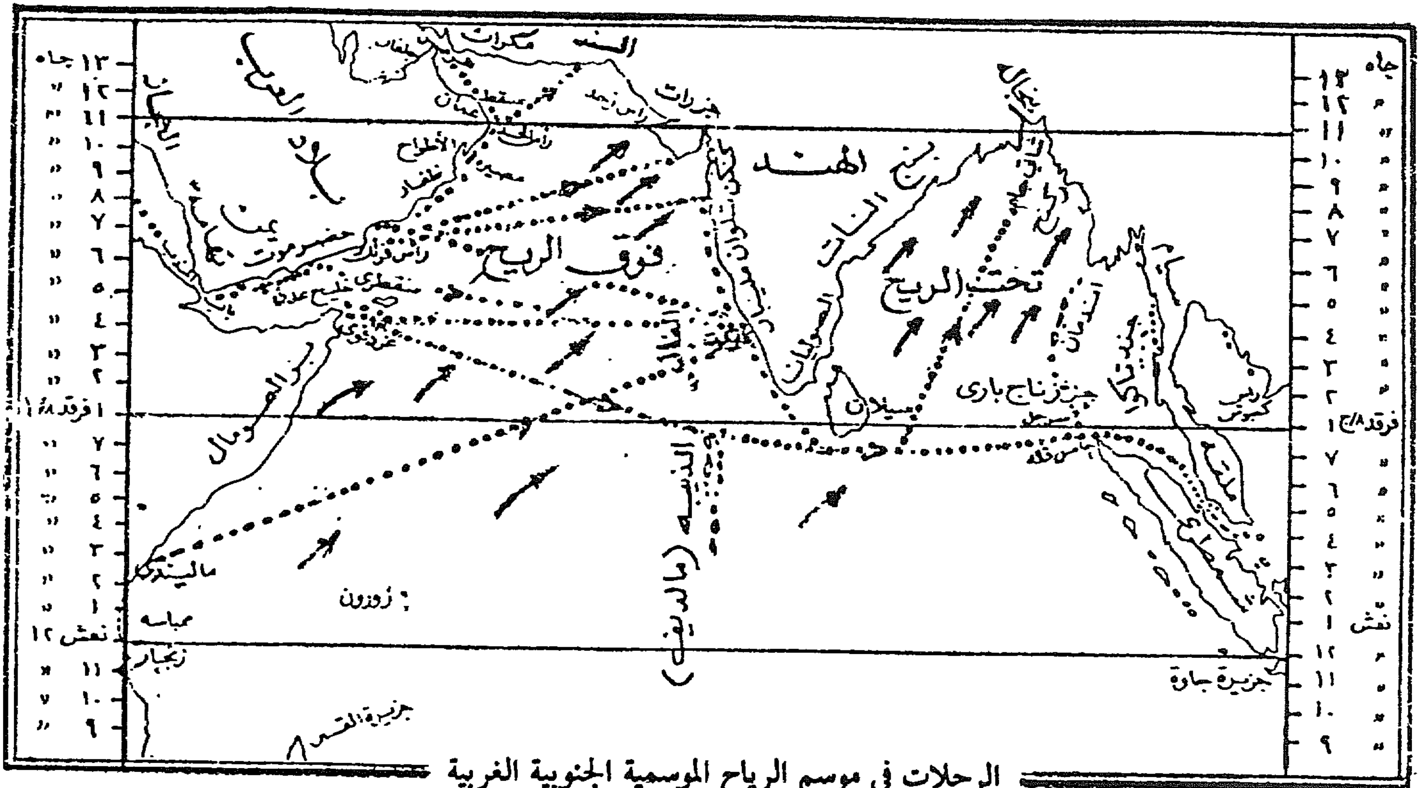
وينبغي معرفة الأرياح ومغلق البحر من المفتاح
فغلقه يمكث ربع عام مدة تسعين من الأيام
من أول المائتين يا فطينا لأول المائتين والتسعينا
فهذه التسعون فيها الغلقا حقيق من جاز بها أن يشقى

لكن المراكب تخرج من البحر الأحمر وخليج عدن، وتجاري البر إلى رأس (فرتك) قبل المائتين والتسعين، أي قبل انتهاء مدة (التغليق) . وسبب ذلك أن المسافر من هذه الجهات إلى الهند، إذا لم يتمكن من الوصول إلى الشمر في ثلاثمائة من النيروز، فإنه قد يصادف الحايات الأولى من الرياح الشمالية الشرقية، قبل وصوله إلى الهند فترده على عقبه .

والفترة الثانية من موسم السفر برياح الكوس تقع في آخر الكوس، أي في الربع الأخير من مدته، وموسم السفر خلالها أطول من موسم الفترة الأولى، ويسمى عند البحارة (مفتاح البحر)، لأن بحر الهند كان مغلقاً قبله في وجه المراكب الشراعية، في أثناء فترة (التغليق)، فينفتح بهذا الموسم، فسمي لذلك (مفتاح البحر) . كما قال ابن ماجد :

. . . . ومغلق البحر مع المفتاح

ويسمي أيضاً (الداماني) أو (الديماني) وتعني في اصطلاح البحارة آخر الكوس، ويسمى (أول الموسم) . أي موسم السفر في بحر الهند .



الرحلات في موسم الرياح الموسمية الجنوبية الغربية

(سبق نشر هذه الخريطة في كتابي « الدليل البحري عند العرب »)

وتسافر المراكب في هذا الموسم إلى الهند من البحر الأحمر في مائتين وسبعين من النيروز . ومن خليج عدن في مائتين وثمانين النيروز . ومن (الشمر) و (ظفار)، ومن (قلهات) و (مسقط) في ثلاثمائة منه[9] . وهكذا يكون السفر من الموانئ البعيدة عن المكان المقصود قبل الموانئ القريبة منه، إلا إذا كان مجرى السفينة مطابقاً لاتجاه الريح، وكان التيار مساعداً للسفينة في مجراها . كالمجرى من أحد موانئ (كينيا) أو (تنزانيا)، المعروفة عند البحارة بـ (السواحل)، إلى الهند، أو من الهند إلى هذه الموانئ، فإنه مطابق لاتجاه رياح الكوس في السفر منها إلى الهند، ومطابق لاتجاه الرياح الشمالية الشرقية (الأزيب) في العودة من (الهند) إلى (السواحل) . والمسافر فيه يسبق غيره عن سفر من مكان أقرب منه إلى المكان الذي يقصده ـــ ذلك لأن الريح في مثل هذا المجرى تضرب الشراع من المؤخرة، فتندفع السفينة بسرعة إلى الأمام، إذا لم يكن ثمة تيار معاكس للمجرى .

ولا يتمكن من يسافر من الموانئ الغربية من ساحل بلاد العرب الجنوبي بعد ثلاثمائة من النيروز، من الوصول إلى الهند، لأنه سيواجه، قبل وصوله، أولى حايات الأزيب، فترده إلى بلاد العرب . والخروج لمكة أليق وأحسن من كل مواسم أول المائة، وخير فيما بعدها ولا قبلها، من (ميلبار) و (كنكن) و(جوزرات) [10]، وقال أيضاً : إن « خير المواسم المائة، في الباحة عرض البحر والبر مجارات البر، والنتخات والتفرق . وخير سفر البحر الذي في الأقاليم الشمالية في المائة » [11] .

دائرة الرياح حول السفينة :

لكي ندرك مدى الجهد العظيم الذي بذله ابن ماجد في مصارعة الرياح، من أجل المحافظة على المجرى الصحيح، في رحلاته من الهند وهرمز إلى جدة، لا بد من معرفة دائرة الرياح حول السفينة، وطرق الاستفادة منها في السير في مختلف الخطوط البحرية .

فإذا طابق اتجاه مجرى السفينة اتجاه الرياح، فإن سير السفينة يكون أسرع من سيرها في بقية المجاري أو الطرق، التي تختلف اتجاهاتها عن اتجاه الريح، ذلك لأن

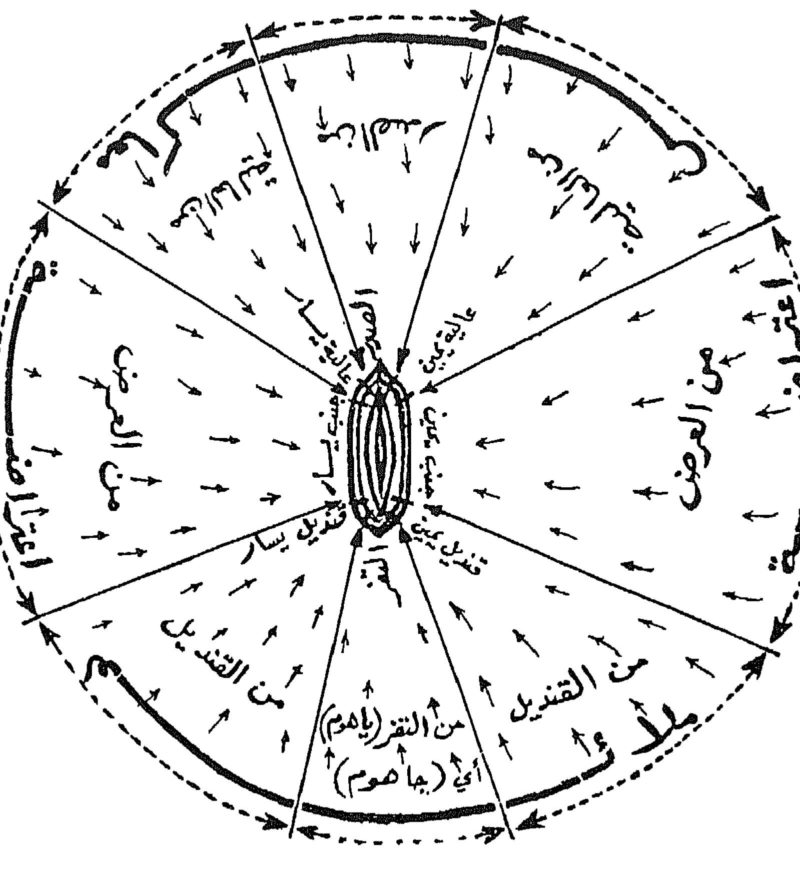
الرياح تدفع الشراع من ناحية مؤخرة السفينة، فتندفع إلى الأمام بسرعة، إذا لم يكن ثمة تيار معاكس لمجراها . ويكون وضع الشراع في هذه الحالة معترضاً بمنتصف السفينـة، ويعرف هذا الموضع عند البحارة بـ(الياهوم) (الجاهوم)، لأنه يقابل هواء الياهوم الذي يضرب الشراع من مؤخرة السفينة . قال القطامي : « إذا كان الهواء تارس(غامر) والشراع ياهوم فالمركب يسير طيباً »[12] . وقال في موضع آخر : « وهو عنها بقدر ثلاثة أزوام ويستحمل مسيراً بالهواء التارس ياهوم نصف وضح »[13] . أي أن ثلاثة الأزوام، وتقدر باثنتي عشرة ساعة ($3 \times 4 = 12$)، أي وضح (نهار) يقطعهـا المركب بالهواء التارس الياهوم بنصف وضح، أي نصف نهار، أو بزام ونصف . وتكون الرياح ملائمة لمجرى السفينة إذا كانت من خلفها، أو من جانبي مؤخرتها (تفرها) .

وإذا كان مجرى الرياح مقـاطعـاً لمجرى السفينـة، أي تأتي من جانب السفينة فتسـمى رياح (العرض)، ويسمى مجرى السفينـة بها (اعتراضـه) . وتستطيع السفينة السير بهذه الرياح، إذا لم تكن عنيفة، ولم تكن هناك تيارات قوية معاكسة للمجرى أو معـترضـة له . أما الرياح التي تأتي من ناحية مقدمة السفينة فهي (المعـاكسـة)، أي المعاكسـة لمجرى السفينة . فإذا كانت السفينة بعرض البحر وعاكستها الريح، فإنها تسايرها بالأشرعة الصغيرة، ثم تستدير وتسير في المجرى الذي تتيح لها الريح السير فيه، إلى أقرب بندر (مرسى)، حيث تتوقف إلى أن تعود الرياح الملائمة لمجراها الأصلي .

ونلاحظ أن خطوط الملاحه بين الهند وبلاد العرب في الخريطتين المرفقتين بهذا، مقـاطعـة، في الغالـب، لمجرى كل من الرياح الموسمية الشمالية الشرقية (الأزيب)، والجنوبيـة الغربيـة (الكوس)، بخلاف خطوط المـلاحة بين الهند وكل من كينيا وتنزانيـا (السـواحل)، فإنها مطابقة لمجرى رياح الأزيب في السفر من الهند إلى (السـواحـل)، ومطـابقـة لمجرى رياح الكوس في السفر من (السـواحل) إلى

(الهند)، لذلك فإن السفينة تقطع المسافة بينهما في عشرة أيام تقريباً . قال ابن ماجد في « السفالية »(14) :

أمـــا الذي يطـــلب زنجبـــاري يحكـــــم في الريح وفي المجـــارى
مــوسمــه السبعـــين في خـروجـه وفي الثمـــانـــين يكـــون ولوجه

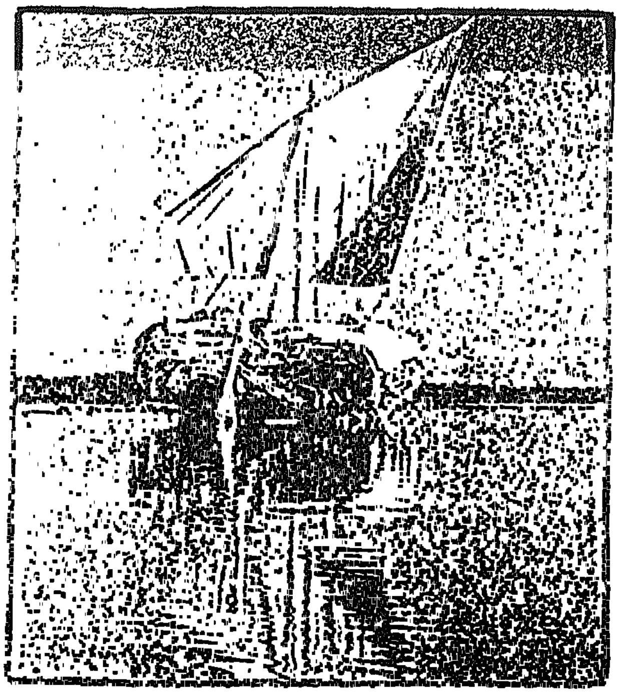


دائرة الرياح حول السفينة

(نشر هذا الرسم في كتابي « المراكب العربية : تاريخها وأنواعها »)

يقول الذي يريد السفر من الهند إلى (زنجبار) بشرقي أفريقيا، يخرج من الهند في السبعين من النيروز، ويدخل (زنجبار) في الثمانين .

أما المسافة بين الهند وساحل بلاد العرب، هي أقصر من المسافة بين (السواحل) و(الهند)، فتقطعها السفينة بأكثر من عشرين يوماً لأن مجاريها مقاطعة لمجاري كل من الكوس والأزيب .

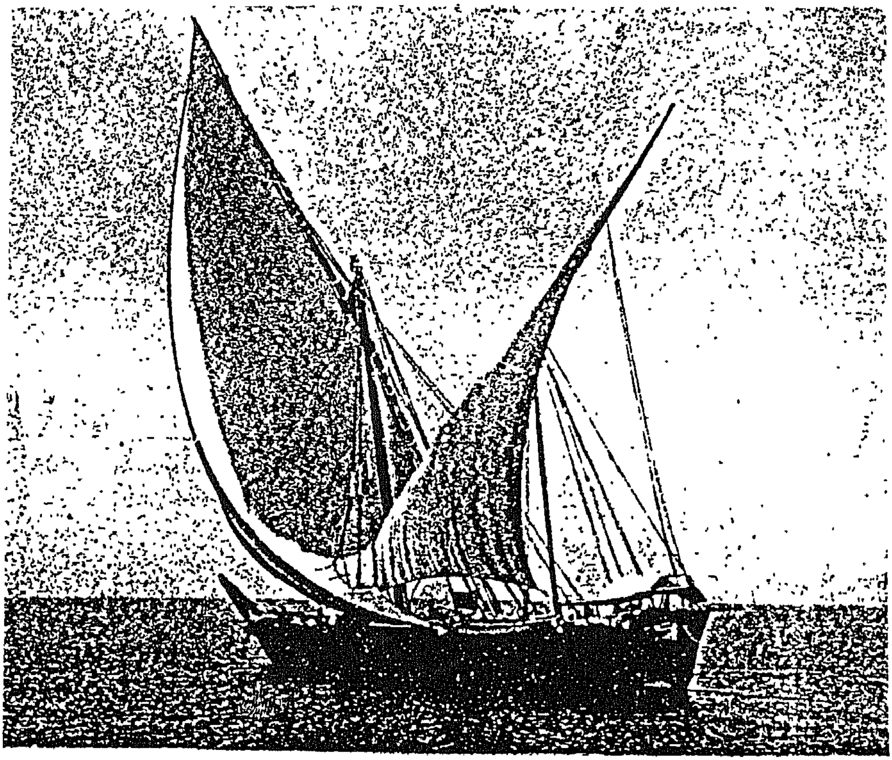


الشراع بالياهوم (الجاهوم) على قارب بشط العرب . ويبدو الشراع أقرب إلى المربع .

(نشر هذا الشكل في كتابي « المراكب العربية : تاريخها وأنواعها »)

الحاية والماية :

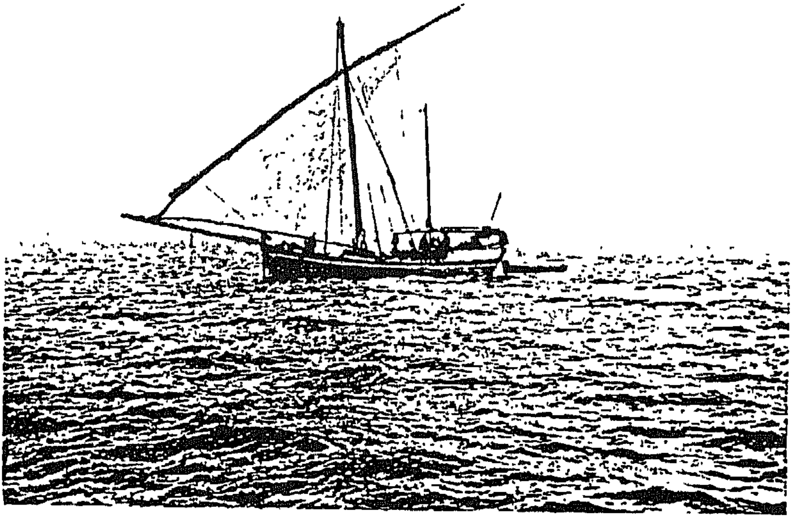
الحاية عند البحارة ــ كما عرفنا من قبل ــ هي الريح، والماية يقصد بها التيار، ويسمى أيضاً (المد) . ولا تكون الماية خطرة إلا إذا كانت معاكسة لمجرى السفينة، أو مقاطعة له مع ضعف الحاية . فإذا كانت السفينة في هذه الحالة قريبة



هذا الوضع للشراع للاستفادة من ريح القنديل، ويربط الجوش على يمين المركب والدامن على يساره، إذا كانت الريح من قنديل يمين، أي من الجانب الأيمن للمؤخرة، وعكسه إذا كانت الريح من قنديل يسار .

(سبق نشر هذا الشكل في كتابي « المراكب العربية »)

من شعـاب وصخور، أو (رِقّ)، ميـاه رقيقة، فإن المَاية قد تلقي بالسفينة على الصخور، أو تدفع بها إلى الرق، إذا لم يكن بها ربان ماهر يقظ . أما إذا كانت الحاية قوية، فإن السفينة تستمر في السير في مجراها لأن دفع الحاية يكون أقوى من جر المَاية، فتصير السفينة بين جذبين متصادين : الحاية تجذبها إلى جهة، والمَاية



يستعمل هذا الوضع للشراع للاستفادة من ريح العرض، فيمد عود الدستور أمام المركب ويربط الجوش بطرفه الأمامي، فيتقدم الشراع، فيما بين منتصف جانب المركب وطرف الدستور، أمام الجانب الآخر من مقدمته، أي أن الدامن يربط في الجانب المقابل للجانب الذي يمد عليه الدستور . ولكي يمسك المركب مجراه بهذا الوضع للشراع ينزل خناً عن خن مجراه . مثلاً كان مجراه في مطلع العيوق، وكان ريح العرض من اليمين فينزل إلى مطلع السماك حتى يدفعه ريح العرض إلى مطلع العيوق . وإذا كان الريح من اليسار فيرتفع إلى مطلع الناقة .

نشرت هذه الصورة في كتابي « المراكب العربية »

تجذبها إلى جهة أخرى، فتقل سرعتها .

السفر برياح الأزيب :

من سافر بالكوس إلى الهند من بلاد العرب وشرقي أفريقيا، يعود منها بالأزيب (الشمالية الشرقية) . ويستمر السفر بالأزيب من الموانئ الشرقية إلى الموانئ الغربية، في المحيط الهندي، من ثلاث مائة وثلاثين إلى مائة وثلاثين من النيروز (حوالي الثامن من أكتوبر إلى أواخر شهر مارس)[15]. فهو ـــ كما نرى ـــ أطول من موسم السفر بالكوس، في أوله وآخره . ويصير الأزيب شديداً في المائة والخمسين من النيروز، فيثير الأمواج العظيمة، المعروفة عند البحارة بـ (الزحون) بين جزيرة (سقطرى) وساحل بلاد العرب . وتخالط موسم الأزيب طوفانات (عواصف) خطرة، أشهرها[16] :

1 ـــ الأحيمر :

يأتي من مطلع (العقرب)، (الناحية الجنوبية الشرقية) ويضرب في ثلاثمائة وأربعين، أي في بداية موسم الأزيب، وقد يتأخر في بعض السنين .

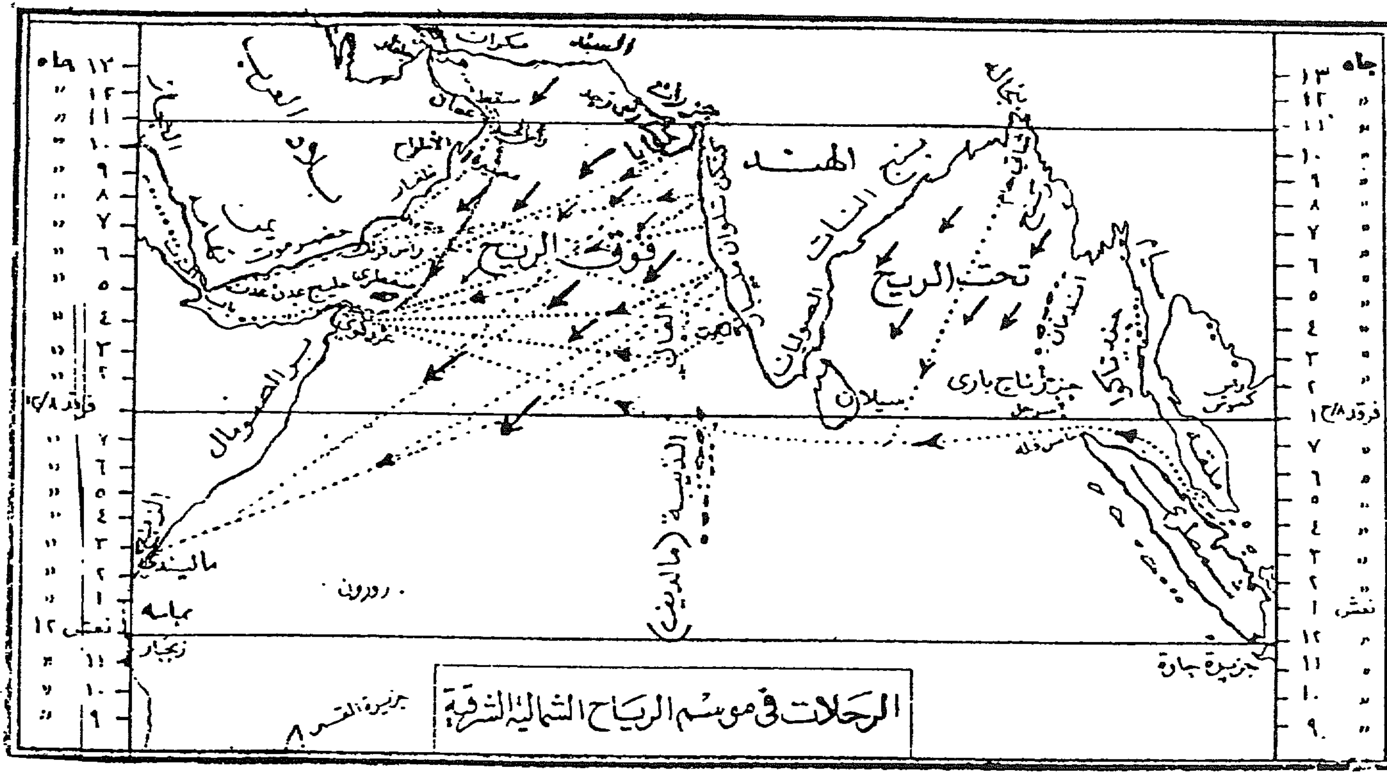
2 ـــ البنات :

يأتي من ناحية مغيب نجوم (بنات نعش) (الشمال إلى ناحية المغيب) . ويضرب من أربعين إلى سبعين النيروز .

3 ـــ التسعين :

يعم المحيط الهندي، وهو أعظم جميع الطوفانات، ويضرب في التسعين، وقد يتقدم في بعض السنين، فيضرب في السبعين أو الثمانين . وقد لايأتي في بعض السنين .

أما رياح الكوس فلا تخالطها طوفانات، فكلها ـــ كما قال ابن ماجد ـــ رياح صلبة .



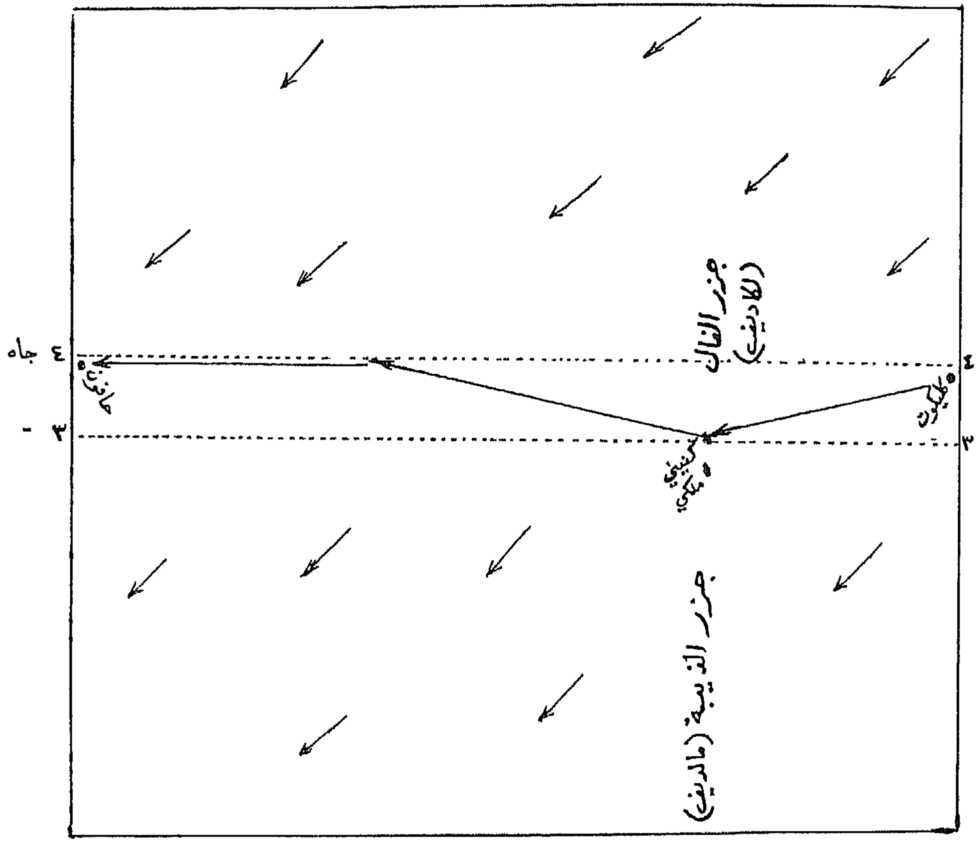
سبق نشر هذه الخريطة في كتابي « الدليل البحري عند العرب »

ويجعل ابن ماجد أفضل وقت للخروج من الهند إلى بر العرب هو تمام المائة من النيروز . ويقول إن من يخرج في هذا الوقت « فهو حازم »، والذي يخرج في مائة وعشر، فلا بأس به . والذي يسافر في مائة وعشرين فغير متمكن، التمكن الكلي، والذي يسافر في مائة وثلاثين فجاهل مغامر، غير مجرب . فإن في بعض السنين يقع فساد رياح، فلا تبلغه أرياح الصَّبابر العرب بسهولة، خصوصاً من (مليبار)، وأما المائة والأربعون فلا يسافر فيها إلا المعسور، الذي ليس له في نفسه اختيار، وإما من تاجر جاهل بالموسم، أو من إفلاس، أو ضرورة .

رحلة كاليكوت ــ جدة

في ضوء ماتقدم يمكننا أن ندرك مصاعب الرحلات التي قام بها ابن ماجد في الأيام التي يصف من يسافر خلالها بأنه جاهل مغامر . وأطولها وأخطرها رحلته من (كاليكوت) بالمليبار، بالجزء الجنوبي من ساحل الهند الغربي، إلى (جدة) . وسافر فيها بمركب من أسماه (بامحمودي) وكان هذا قد عزم على السفر إلى (بنجالة) (بنجلاديش حالياً) لعدم حصوله على نول إلى (جدة)، فحصل بعد سفر المراكب من (كاليكوت) إلى بلاد العرب على نول إلى (جدة)، وكان ابن ماجد آنذاك في (كاليكوت)، فخرج به في مائة وخمسة وثلاثين من النيروز، ولم يصل إلى جدة ــ كما قال ــ إلا بعد مشقة عظيمة . وصل إلى (حافون) جنوبي رأس (جردفوي)، في مائة وخمسة وسبعين، ووصل إلى (باب المندب) في مائتين بسبب شدة الكوس، وفي البحر الأحمر توقف 40 يوماً في (الرياضة) بسبب قوة رياح الشمال ثم وصل إلى (جدة) في وقت قريب من موسم السفر منها[17]. فتكون رحلته هذه قد استغرقت حوالي 145 يوماً، إذا افترضنا أنه قطع المسافة من (الباب) إلى (الرياضة) في 15 يوماً، ومثلها من (الرياضة) إلى (جدة) .

ولم يصف ابن ماجد مسالك رحلته ومخاطرها، في هذا الوقت المتأخر من موسم



طريق ابن ماجد من (كاليكوت) إلى (حافون)

السفر من الهند إلى بلاد العرب .وكيف استطاع أن يتغلب عليها . ولكننا نجد وصف مثل هذه الرحلة، خاصة من (كاليكوت) إلى (رأس جردفوى)، أرجوزته « السفالية » حيث قال :

من أرض (كاليكوت) إلى (الفالات) من جاه [أربع] إلى ثلاث
مجراك في (الجوزاء) معاً و(التير) على قدر ريحك في المسير

إن كان ريحك مـولمـاً مـوافقـا ... فـالنهج (كفّيني) بمجرى صـادقا
عشـرين زامـا جمـه فـاحسبِ ... تفـول في الجـواش ريح المـغـربِ
عن الجزر (الفـالات) شـام ويمن ... فذاك يسمى (الفـال) وقيت الحزن
فـإن يكـن ريحك من المـغـارب ... مخالفـاً عـلى ذي المـآرب
أو زحف أو طـوفـان أو أمطـار ... فـذاك بـالتـدبـير في الأسـفـار
مـاحـاجـة يـوصف للمـعـلم ... .
لاتسـقط (الجـاه) وقـالبِ مُشْمِـلاَ ... إن لم تفـول عن ثـلاث كُمَـلاً
قيـاس (كفـيـني) بـاليمين ... وشـاهـده تـراه بـاليـقـين
في (سـابع النعش) و(ظلع الشام) ... ثمـان إلا ربعَ بـالتمـام
و(رامح) في الشرق محاذي (الظلع) ... هـم ستـة نفـاس فيهـم ربع
إن ضقن عن ست أصـابع في النظر ... أنت على (مـلكي) فـأتـاك المطر
إذا سـقـطت ألزم الجـوش ولا ... تـترك (الجـاه) وارق للعـلا
لتسـتريح من أذى الأمطـار ... والزحف والطـوفـان في الأسـفـار
واجـر عـلى السماك ثم الكـاثـر ... حـين يـزيـد الجـاه اصبعـاً وافر

ثم يقول عند الاقتراب من البر الأفريقي بجوار (حافون) جنوباً :

إذا رأيت القـيـاس قـد وفى ... فـاقبـل على الغرب ومِلْ بـلا خفـا

— — — — — — — — — — — — — — — —

ورتب المجـرى مع القـيـاس ... في نتخـة البر وكن ذو بـاس
لاتـرقـد الليـل عـلى النتخـات ... لأنهـا عظـيـمـة الزلات
وذاك بـر مـاله عـلائم ... بـل عنـدك المـنجـي مـديم دائم
فيـغـزر الواحـد بـالطـوفـانِ ... عشـرون من الأزوام يـاربـانِ
وإن تـرى كثرة طيـور المـنجـى ... احـذر من البرّ تفـز بـالفـرجى

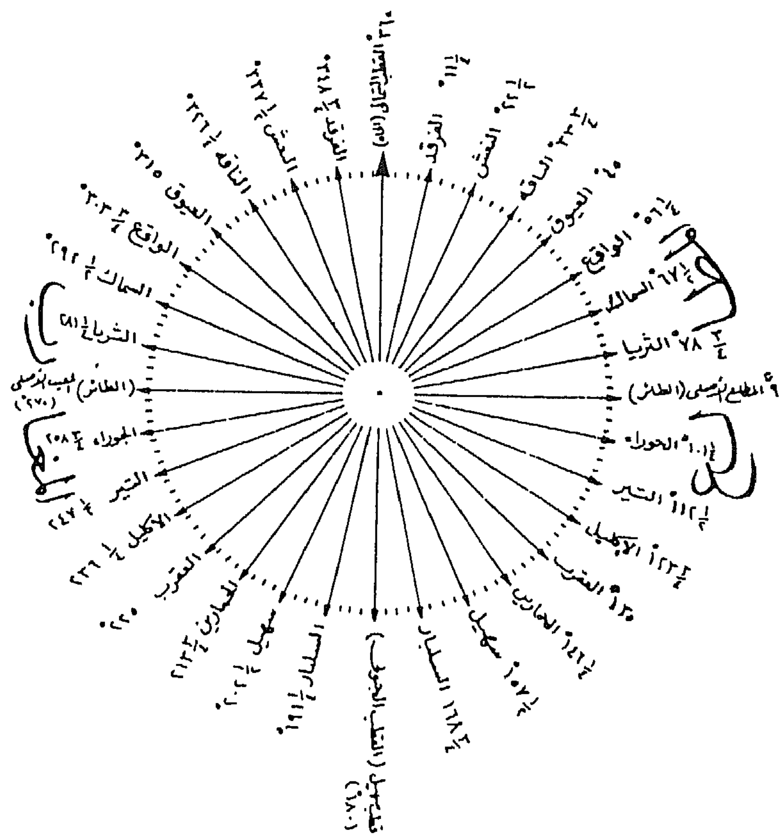
قوله : « من (جاه) أربع » : أي من المكان الذي يصير ارتفاع نجم (الجاه) عنـه أربع أصـابع، وقت استقلال منزله (الصرفة) . وارتفاع نجم (الجاه) عند (كاليكوت) أربع أصـابع إلا ربعاً، أي أن قياس كاليكوت أربع إلا ربعاً . « إلى الثلاث » : أي إلى المكان الذي يصير ارتفاع نجم (الجاه) عنده ثلاث أصابع، وهو قياس جزيرة (كفيني)[18].

يقول مجراك أن أرض (كاليكوت) إلى جزر (الفالات)، أي من قياس أربع أصابع إلى ثلاث، يكون في خطي مغيب (الجوزاء) مع (التير) انظر بيت الإبرة، على قدر ملاءمة الريح لمجراك .

فإن كانت الريح ملائمة وموافقة لمجراك في خطي (الجوزاء) و(التير) ستأتي إلى جزيرة (كفيني)، بعد عشرين زاماً من أزوام الجمعة . وزام الجمعة ثلاث ساعات[19]، أي بعد ستين ساعة تأتي إلى (كفيني)، وتفول، أي تعبر، جزر (الفالات) وهي إلى الجنوب والشمال عندك .

أما إذا كانت الريح من المغرب، أو كانت هناك أمواج عظيمة، أو عواصف أو أمطار، فاعمل بتدبيرك في تصريف المركب خلالها . لكن « لاتسقط الجاه » أي لاتمل إلى الجنوب، فسقوط الجاه يعني نقصان قياسه، وينقص قياسه إذا جريت إلى الجنوب ويزداد قياسه إذا جريت نحو الشمال . و« قالب مشملاً »، أي غالب الرياح والأمواج، إذا مالت بك إلى الجنوب عن جاه ثلاث أصـابع وهو قياس جزيرة (كفيني) . ولكل قياس شاهد من قياسات نجوم أخرى والشاهد على أن قياس (كفيني) هو ثلاث أصابع، إن النجم السابع من نجوم (بنات نعش الكبرى) (الدب الأكبر) ونجم (الظلع الشامي) يكون ارتفاعهما عند جزيرة (كفيني) ثمانيـة أصـابع إلا ربعـاً، في الوقت الذي يكون فيـه ارتفاع نجم (الجاه) ثلاث أصابع . ونجم (الجاه) هو من نجوم (بنات نعش الصغرى) (الدب الأصغر)،

وبه يعرف مركز القطب الشمالي، وهو أبدى الظهور في الأقاليم الشمالية .وكان قياسه عند البحارة يستعمل في معرفة عروض البلاد . فعرض (كفيني) عندهم هو ثلاث أصابع بقياس نجم (الجاه) . أو بتعبير آخر أن « جاه ثلاث » هو قياس أو عرض (كفيني) . وهناك شاهد ثان على أن قيوس أو عرض (كفيني) هو « جاه ثلاث



أقسام دائرة (بيت الإبرة)

سبق نشر هذا الشكل في كتابي « الدليل البحري »

أصابع »، هو أن نجم (السماك الرامح) ونجم(الظلع الشامي) يكون ارتفاعهما عن الأفق في الجانب الشرقي من السماء، ست أصابع نفسية، أي منها زيادة في الوقت الذي يكون فيه ارتفاع نجم (الجاه) ثلاث بنان، عند (كفيني) .

فإذا رأيت قياس (الرامح) و(الظلع) قد ضاق، أي نقص، عن ست بنان فاعلم أنك بجوار جزيرة (فلكي)، من جزر (الفال)، جنوب جزيرة (كفيني) وهناك تأتيك المطر .

فإذا سقطت أي ملت إلى الجنوب، فغالب الرياح، والزم (الجوش) أي ناحية الشمال، وارتفع إلى ناحية الجاه، لتستريح من ضرر الأمطار والأمواج والعواصف، ويكون مجراك في خط (مغيب السماك) وخط (مغيب الكاثر أي الواقع)، حتى يزيد قياس نجم (الجاه) إصبعاً كاملة، أي يصير أربع أصابع بزيادة إصبع على قياس (كفيني) .

فإذا رأيت « القياس قد وفى » أي قياس (الجاه) قد أصبح أربع بنان، فاجر في خط (المغيب الأصلي) . ورتب مجراك على القياس، أي قياس (الجاه) عند اقترابك من البر الأفريقي، وكن حازماً في نتخة البر أي إمساكه . ولا ترقد الليل عند تنخات البرور، لأن ذلك من عظيم الزلات . وذلك البر، أي بر (الصومال) جنوبي (رأس جردفوي) ماله علائم تظهر على ساحله . لكن عند طيور (المنجي) علامة اقترابك من هذا البر وقد يعزز، أي يبتعد إلى ناحية عرض البحر، الواحد من هذه الطيور بسبب الطوفان مقدار عشرين زاماً عن الساحل . فإذا رأيت طيور (المنجي) قد تكاثرت، فاحذر من البر حتى لاتقع عليه .

كما نجد وصف مثل هذه الرحلة عند (سليمان المهري)، أشهر بحار عربي بعد ابن ماجد، في المحيط الهندي، حيث قال في كتابه « العمدة »[20] مامعناه :

إذا سريت بليل من بندر (مرسى) قاليقوط (كاليكوت)، وكانت الريح ملائمة

لمجراك، فاجر في اتجاه خط (مغيب الجوزاء) وأحياناً في اتجاه (مغيب التير) في (دائرة بيت الإبرة) (الديرة أو البوصلة) . واستمر في مجراك في هذين الخطين حتى ترى جزيرة (كفيني) أمام صدر المركب، أو بناحية جوشة، أي جانب مقدمته من الشمال أو اليمين . وفي هذا المكان يكون جر المد (التيار) إلى ناحية مغيب النعش في (بيت الإبرة)، أي إلى ناحية الشمال بانحراف قليل إلى المغيب، ويستمر جر التيار إلى هذه الناحية إلى تمام المائة والثلاثين من النيروز، ثم يتحول إلى ناحية الجنوب، فإذا تحول جره إلى ناحية الجنوب، فعليك أن تحافظ على مجراك . فإذا أسقطتك الرياح إلى الجنوب عن مجراك، وكانت تدفع بك في اتجاه مغيب (العقرب) و(الحمارين)، فإن كان ذلك مقدار يوم بليلة فلا بأس، وإن زاد على ذلك فارجع ودوِّر المركب إلى ناحية (الجاه)، أي الشمال، وما جاوره لاسيما إذا وجدت أن قياس نجم (الجاه) قد نقص عن ثلاث أصابع . فالارتفاع إلى ناحية الشمال أحمد عاقبة، وهناك الرياح تكون نشيطة، فيقل جر التيار لمركبك إلى ناحية الجنوب .

أما إذا كانت الريح ملائمة للمجرى الأصلي، أعني مغيب (الجوزاء) و(التير)، فإنك تأتي إلى جزيرة (كفيني)، فإذا أخلفتها اجر على خط (مغيب التير) مقدار ثمانية أو تسعة أوزام، ثم انشر علم (الفالات)(21). وبعد نشر العلم مل إلى الشمال، واجر على خط مغيب (الثريا) ومغيب (السماك) إلى أن يصير قياس نجم (الجاه)أربعة أصابع وثمن إصبع . ثم مل إلى الجنوب واجر على خط (المغيب) لندخة أي قبض (جردفوي) (جرد فوى)(22) .

لكن ابن ماجد كما رأينا ندخ (مسك) حافان، ولم يندخ أو ينتخ رأس (جردفوي) كسليمان المهري، وقياس (حافون)، أي ارتفاع نجم الجاه عندها أربع إلا ربعاً، مثل قياس (حافون) لأنه متقدم عنها إلى الشمال .

نلاحظ أن الرياح التي تجري بها السفينة، في مثل رحلة ابن ماجد هذه، رياح العرض، وهي التي تأتي من ناحية عرض السفينة (انظر شكل دائرة الرياح حول السفينة) والسير بها يكون أقل سرعة من مؤخرتها، أو من أحد جانبي المؤخرة . وإذا كان ثمة تيار مقاطع لمجرى السفينة، نجد صعوبة في مغالبة دفع التيار لها، والمحافظة على مجراها برياح العرض، وبالتالي تخف سرعتها عن ذي قبل . وللشراع وضع خاص بالسير بهذه الرياح (انظر شكل وضع الشراع برياح العرض) .

نعود إلى وصف رحلة ابن ماجد من (كاليكوت) إلى (جدة) :

من (حافون) إلى (باب المندب)، واجه ابن ماجد رياح الكوس الشديدة المقاطعة لمجراه أيضاً، فلم يصل إلى (الباب) إلا بعد خمسة وعشرين يوماً ومشقة عظيمة . وفي الموسم والرياح الملائمة للسفر في خليج عدن، تقطع السفينة المسافة من رأس (جردفوي) إلى (المندب) في أقل من عشرة أيام .

وفي البحر الأحمر، لم يستطع أن يتقدم إلى الشمال من (الرياضة)، بسبب قوة رياح الشمال المعاكسة لمجراه، فبقي في الرياضة ــ كما قال ــ أربعين يوماً .

مما تقدم يمكننا حصر المخاطر التي تواجه المسافرين من (كاليكوت) إلى (جدة) في الأيام التي سافر فيها ابن ماجد، في النقاط التالية :

1 ــ دفع الرياح للسفينة إلى الجنوب، بسبب مقاطعتها لمجرى السفينة واحتمال سقوطها ، نتيجة لذلك، إلى ناحية الجزر الجنوبية من (الفالات) (لكاديف حالياً) حيث الأمطار والعواصف .

2 ــ جر التيار للسفينة إلى الجنوب عن مجراها، عند ضعف الرياح .

3 ــ رياح الكوس العنيفة ودفعها للسفينة، من العرض، إلى الشمال نحو الساحل العربي، بسبب مقاطعتها لمجرى السفينة، في ما بين رأس (جردفوي) و(باب المندب) .

4 ــ أوساخ البحر الأحمر التي لاحصر لها، كانت كالشعاب المرجانية، والعروق الصخرية البارزة والخفية، والمياه الضحلة، والجزر أو القطع الصغيرة المتشابكة وغيرها .

رحلة هرمز ــ جدة

موسم السفر من (هرمز) إلى البحر الأحمر كموسمه من الجزء الشمالي من ساحل الهند الغربي تقريباً . ويجعل ابن ماجد أوله، عند نهاية موسم الكوس وابتداء موسم الأزيب، أي في 330 من النيروز تقريباً . وآخره في الثمانين من النيروز لمن يساير ساحل بلاد العرب الجنوبي، أما الذي يفارق الساحل، وينطلق إلى الباحة (عرض البحر)، فموسمه إلى حدود تمام المائة، ولا خير فيما بعدها، إلا عند الضرورة[23] .

أما سليمان المهري فيجعله من ثلاثمائة وثلاثين إلى تمام التسعين لمن يسافر بجوار الساحل، وإلى مائة وعشرين لمن يسافر في الباحة، ويجعل جزيرة سقطرى إلى يمينه، ويندخ (يمسك) رأس (جردفوي) أو (جافون)، ثم يخرج إلى خليج عدن من المضيق بين (جردفوي) و(سقطرى)[24] .

وسبب الابتعاد عن ساحل بلاد العرب الجنوبي، وعدم السفر في ما بينه وبين جزيرة سقطرى، بعد المائة والثلاثين من النيروز، نجده في قول ابن ماجد : « فإذا دخلت عليك مائة وثلاثون من النيروز فلا تترك (سقطرى) يساراً، إذا كنت يميناً، فإن الأرياح على جاهيها ــ شماليها ــ لاتخلصك مع قوة المد، فيطول سفرك . ولا خير في قرب (سقطرى) إلا عند الضرورة، أو عند أرياح الكوس »[25]. وقوله أيضاً : فلا تترك سقطرى يساراً، إذا كنت يميناً »[26]. أي لاتجر إلى الشمال من جزيرة سقطريٰ، إذا كنت قادماً من هرمز أو الهند أو عُمان وتريد اليمن أو الحجاز، بعد المائة والثلاثين فتقابلك التيارات والأمواج العظيمة بين سقطرى وساحل بلاد العرب، فلا تتخلص منها إلا بمشقة عظيمة وسفر طويل .

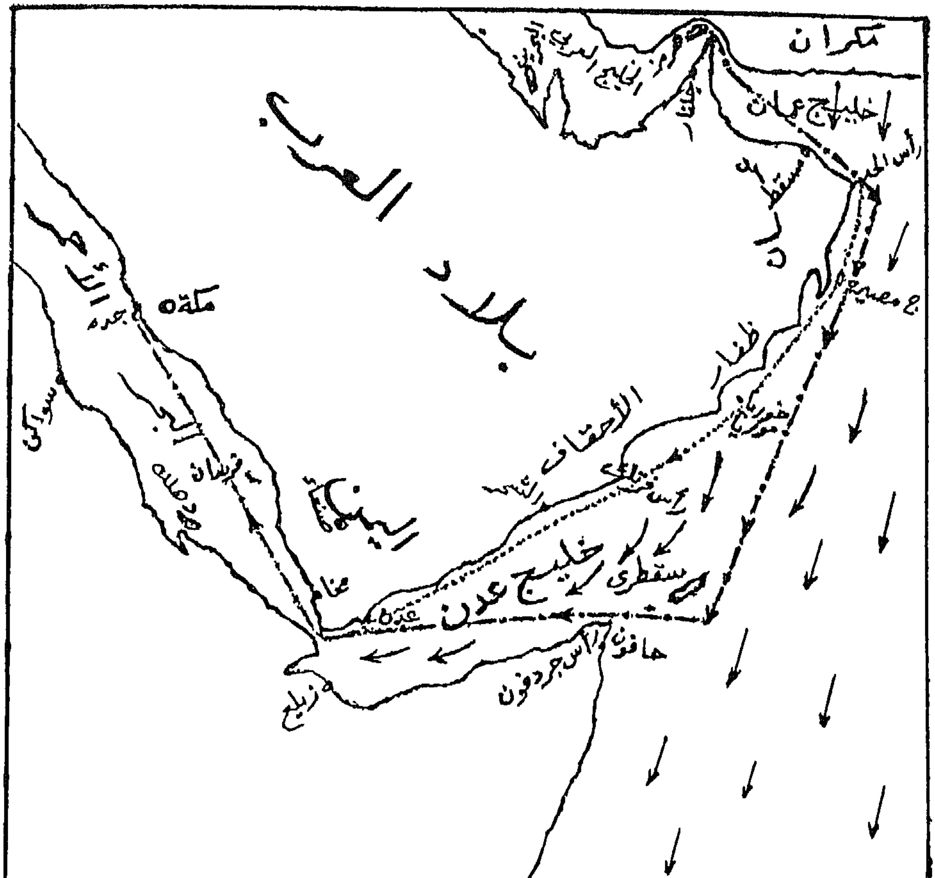
وسافر ابن ماجد مرتين إلى جدة، في وقت لم يسبق لأحد من رجال البحر ــ كما قال ــ أن سافر فيه . في المرة الأولى سافر بمركب من أسماه عبد الرحمن بن الشيخ علي الحموي، ودخل به (جدة)، وأخذ منه خلاصة (حسابه) خمس مائة دينار أشرفي[27] . وفي المرة الثانية، سافر بمركب محمد بن مرعي، ودخل به مرسى (جدة) في مائتين وستين من النيروز، وجميع تجاره، وركابه، ونواخيذه ــ كما قال ــ كانوا يريدون العودة إلى اليمن، فلم يطعهم واستمر في مغالبة الرياح بين أوساخ البحر الأحمر، حتى وصل إلى (جدة)، فشكر الله على نجاحه وسلامته، وشكره جميع من كانوا في المركب[28] .

لكن وصوله إلى (جدة)، في غير الموسم الذي اعتاد فيه أهلها وصول المراكب إليهم من الهند، قد اتخذ منه المماليك في جدة، في عهد (قيتباي الأشرفي)، حجة على المراكب التي تعود إلى اليمن، أو تتوقف في مراسيها، ولا تقوى على مواصلة رحلتها إلى جدة، مركب ابن ماجد، فصاروا منذ ذلك الوقت ــ كما قال ابن ماجد ــ إذا رجع مركبب إلى اليمن، ألزموا صاحبه بدفع عشورة في السنة القابلة[29] . أي عشور السنة التي رجع فيها إلى اليمن .

وقد سار ابن ماجد بعد مفارقة (رأس الحد)، بالطرف الجنوبي الشرقي من عمان، نحو الجهة الجنوبة الغربية، على خط مطابق، تقريباً، لمجرى الرياح الشمالية الشرقية(الأزيب)، إلى الساحل الأفريقي، جنوبي رأس (جرد فوي) . وخرج إلى خليج عدن من المضيق بين (سقطرى) و (جرد فوي) . تمكن، بعد مغالبة الرياح الجنوبية الغربية (الكوس) من دخول البحر الأحمر . كما تمكن، بعد مغالبة ريح الشمال في البحر الأحمر، وتخلل أوساخه الخطرة، من الوصول إلى جدة .

وقال إن وصوله إلى (جدة)، وفي رحلته الثانية بين (هرمز)، كان في مائتين وستين من النيروز . فإذا افترضنا أن خروجه من هرمز، كان في الثالث والعشرين

بعد المائة، مثل خروجه في الرحلة الأولى، التي سافر فيها بمركب الشيخ عبد الرحمن الحموي، أو قريباً منه، فإن هذه الرحلة، أعني الثانية، من هرمز إلى جدة، تكون قد استغرقت أكثر من مائة وثلاثين يوماً، قضى معظمها في مغالبة رياح الكوس في خليج عدن، ورياح الشمال في البحر الأحمر .



طريق ابن ماجد من هرمز إلى جدة في آخر الموسم (123 من النيروز)

الطريق بحذاء ساحل بلاد العرب الجنوبي إلى (80) من النيروز .

الملاحة في البحر الأحمر

رأينا أن مخاطر رحلة ابن ماجد من (كاليكوت) إلى (جردفوي) كانت في الأحوال الجوية غير الملائمة، من أمطار وعواصف عند ميلة . بفعل الرياح عن مجراه جنوباً، إلى ناحية جزر (الذيبة) (مالديف حالياً) . وكذلك التيار المندفع إلى الجنوب، واحتمال هبوب رياح الكوس المعاكسة لمجراه، قبل وصوله إلى ساحل الصومال .

أما في خليج عدن، بين رأس (جرد فوي) و (باب المندب)، فكانت رياح الكوس المقاطعة لمجراه، أشد خطراً عليه من عواصف وأمطار جزر (الذيبة) و (الفال) . فبجوار ساحل الصومال الشمالي أوساخ تهرب منها البحارة إلى الجانب العربي في السفر من البحر الأحمر إلى الهند(30)، فإذا استطاع المسافر في مثل هذا الموسم الذي سافر فيه ابن ماجد، أن يسلم من أوساخ الصومالي، فإن رياح الكوس قد تدفع به إلى أوساخ الساحل العربي بجوار (باب المندب) . حيث توجد سبع جزر صغيرة، وإلى الجنوب منهن أوساخ . قال (القطامي)(31) يحذر الربان **من** النوم في أثناء سفره إلى (باب المندب) من (شمسان)، أي عدن، وشمسان جبل عدن .

من لم يبات سهير العين منتظراً
يفارق النوم من (شمسان) إلى (الباب)
لا يركب البحر ... أرى في ركبه خطراً
جزر السوابع تشابه روس أنياب
كالطير لا يستطيع إن حل في شرك
ما بين سبع وثعبان وأذياب

ثم يقول ما معناه : وينبغي الحذر والاجتهاد في تلك الليلة، خصوصاً في أيام

الغمام، لأن معالم البر لا تظهر بوضوح . وتكلف السفينة فوق طاقتها عند شدة الريح، خوفاً من الوقوع على الأماكن الضيقة . وهناك (جزر السوابع)، أي الجزر السبع وجنوبهن أوساخ . وهناك أيضاً تختلف الرياح، ويصير المجرى اعتراضة، فكيف إذا كان ذلك والمركب ثقيل الشحنة، كثير الركاب، سيتعب المركب والركاب. وكم قد جرب هذا الأمر .[32] .

ويعتبر البحر الأحمر أوسخ بحر عرفته البحارة العرب . قال ابن ماجد : « بحر قلزم العرب أوسخ بحور الدنيا »[33] . ذلك لأن الشعب المرجانية البارزة، أو الخفية، في المياه الرقيقة، والجزر الصغيرة الرملية منها والصخرية، والمضاحل، تأتي لا حصر لها، قد جعلت الملاحة الشراعية فيه شاقة وخطرة . حتى على البحارة أصحاب الخبرة الطويلة بالملاحة فيه . لذلك كانت السفن الشراعية، لا سيما تلك التي تسلك الطريق المحاذية للساحل العربي لا تسافر فيه إلا في أثناء النهار . قال ابن بطوطة : « وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها، ويرسون فينزلون إلى البر . فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب ... ولايزال الربان أبداً في مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الأحجار . وهم يسمونها النبات[34] .

ومع أن ابن ماجد وأمثاله من المعالمة[35]، كانوا يسافرون في هذا البحر بالليل، إلا أن رحلاتهم لم تكن تتم بدون مشقة ومخاطر، رغم كثرة تجاربهم ومعرفتهم بكل صخرة وموجة فيه، ورغم أن الطرق التي كانوا يسلكونها كانت في وسط البحر، البعيدة عن الشعاب والمضاحل، التي تكثر بجوار الساحل .

وإذا كانت الرياح ملائمة، فإن الطريق من (المندب) إلى (جدة) في وسط البحر ــ كما وصفها ابن ماجد ــ تكون في الاتجاهات التالية[36] :

ــ من (المندب) إلى جزيرة (زقر) في خن (خط) مغيب النعش (انظر

بيت الإبرة) . مع الحذر من (ذباب) و (رأس الثور)، يعني الحذر من الوقوع عليهما .

ــ من (زقر) إلى (الأباعل) وجزيرة (سَيْبان) (الطير حالياً) في خط مغيب العيوق . وجزيرة (سَيْبان) متوسطة في البحر الأحمر، تميل قليلاً إلى بر العرب، وكانت ملتقى طرق السفن الشراعية بين (المندب) وكل من (جدة) و (سواكي) .

ــ من (سيبان) إلى « جاه إحدى عشرة إلا ربعاً » أي إلى المكان الذي يكون ارتفاع نجم (الجاه) عنده، وقت استقلال منزلة (الصرفة)، إحدى عشرة بنانة إلا ربعاً، بين خطي (مطلع الناقة) و (مطلع العيوق) .

ــ من « جاه إحدى عشرة » في خط (المطلع الأصلي)، ويمسك ساحل (جدة) .

وإذا أردت أن تقصر الطريق، فاجرِ إذا وصلت إلى « جاه تسع أصابع » على خط (مطلع النعش) ثم (مطلع الفرقد) ثم خط القطب الشمالي (الجاه) . واحذر من الجزر في هذه الطريق . فإذا وصلت، وأنت تجري على خط (مطلع الناقة)، إلى (خميس) مل إلى (رأس الأسود) وهو رأس (جدة) الشمالي، واحذر الأوساخ هناك وادخل مرسى (جدة)[37] .

وهناك طرق أخرى غير هذه، لكنها متعبة وخطرة، وقد اكتفى ابن ماجد بوصف هذه الطريق لأن المد (التيار) الشامي ــ كما قال يساعد سالكها .

ويتبع ابن ماجد أسلوب (التكية) عند هبوب رياح الشمال المعاكسة لمجراه، وأسلوب (الكاوية) في تصريف المركب بين الشعاب والأوساخ الخطرة في ظلام الليل ..

التكيـة :

التكية (جمعها تكيات) هي مسايرة الريح المعاكسة لمجرى السفينة والاتكاء بها، أي السير بها إلى مكان أمين يربط فيه إلى الصباح، أو إلى أن تعود الرياح الملائمة لمجراه، ثم يعود إلى مجراه الأصلي .

ويختلف ابن ماجد وسليمان المهري، في أماكن التكية في البحر الأحمر، فابن ماجد يقول بأن الساحل الأفريقي لا يصلح للتكية مثل الساحل العربي، لأنه مقابل للصورم (شعاع الشمس) عند الغروب والشروق . أي أن شعاع الشمس يكون مقابلاً لوجه مدير دفة المركب حين دخوله المرسى عند الغروب، وحين خروجه من المرسى في صباح اليوم التالي، فيجره فلا يبصر الرؤوس أو الصخور، التي قد تكون موجودة حول البندر (المرسى) الخارج منه، أو الداخل إليه، فيقع عليها . أما الساحل العربي فليس عليه صورم، إذ تكون الشمس خلف السفينة، أي خلف الدفة، عند دخول المرسى، وقت الغروب، وعند الخروج منه وقت الشروق . أما سليمان المهري فله تكيات بالساحلين العربي والأفريقي[38] وهذه مواضع تكيات ابن ماجد بجوار الساحل العربي :

1 ــ **خريق (جُنُب)** : إذا اتكيت بالشمال الغامز (النشيطة) في (جنب)، وخرجت إلى بر العرب، ولم ترَ شيئاً في طريقك إلا البر الأصلي، فأنت عند رأس (الناقة)، وما جاوره . وإذا كانت الشمال ضعيفة فتأتي إلى جزيرة (كُدْمُل)[39] . و (الخريق) : هو فتحة واسعة بين الجزر والشعاب المرجانية وغيرها، ينفذ منها المركب إلى البر الأصلي، وتلجأ إليه المراكب عند التكية .

إذا ضربتك الشمال عند خريق (جنب)، وكانت قوية تلجأ إلى البر الأصلي (الناقة) . وإذا كانت ضعيفة تأتي إلى جزيرة (كُدْمُل) فتربط بها إلى الصباح أو إلى أن تصير الريح ملائمة لمجراك ثانية، فتخرج من الخريق .

2 ـــ **خريق (سُــمــار)** :إذا ضربتك الشمال عنـد هذا الخريق، وكانت قوية فاخرج بها، أي سر بها إلى (سُمار)، أو إلى شعب (الجفن)، واربط بأحدهما . لكن خذ الحذر بالليل من قطيعة (السمدان) و (القِرش) . وهما إلى يمينك، وإن كانت ضعيفة، ولم تر شيئاً غير البر الأصلي، فتأتي إلى (كشران) . وربما إذا جريت بالشمال المعتدلة في هذا الخَريق، ترى كثيراً من الأوساخ إلى يمينك ويسارك، فغالب الريح وخذ الحزم والحذر، إذا جن الليل، أن تترك المركب يدور بين الأوساخ، بل مرْ صاحب السنبوق (زورق المركب) أن يدور حول المركب، وارمِ بين الحين والآخر بالأنجر، والبُلْد (مسبار الأعماق) . فإن رأيت شيئاً من القطع فاربط بها، وأصبح قاصداً البر بأول النهار(40) .

3ـــ **خريق بحر (الظهار)** : (الظهار)، جمع ظهرة، وهي جزيرة رملية تكون في بعض الأماكن ذيلاً لجزر صخرية كبيرة) . يقول : إذا اتكيت بالشمال في بحر (الظهار)، وكانت شواراً، أي معتدلة، تهب من ناحية (مغيب العيوق)، وجريت بها في خط (مطلع الفرقد) أو (مطلع النعش)، وكان التيار شامياً أي يجر نحو الشمال سلمت من خطر الأوساخ التي بين (أبلات) وجبل (السِّرَين)، وخرجت إلى (أصــلاب) ونواحيها . وإذا كانت الشمال صـلبة تهب من ناحية (مغيب العيون)، ولا تتيح الجري إلا في خط (مطلع العيوق) أو (الواقع) أو (السماك)، وكنت إلى ناحية الجنوب من بحر (الظهار)، وكانت (الظهار) إلى يسارك تأتيك قطع (المراهق) ثم قطع (أم الشعي)، ويكون مخرجك إلى الشمال من (أبلات)(41)

الكاويــــة :

تطلق الكاوية على طريقة تصريف المركب بين الأوساخ في ظلام الليل . وقد أتى ابن ماجد بمثال لهذا الأسلوب الملاحي بين أوساخ البحر الأحمر بالليل بجوار رأس (المطرد) . وقال ما معناه : إذا ضربك الشمال عند رأس (المطرد)، وكنت في أول

الأوسـاخ بالليل، فإن قدرت على طرح الأنجر اطرح، طرحة اضطرارية، لكي لا يقذف بك التيـار على الأوســاخ . وهناك قاع البحر طين، والماء عميق، حوالى سبعين باعاً . ولا تكون طرحة الأنجر إلا إذا كانت الرياح شواراً (معتدلة) . أما إذا كانت قوية، ودخل عليك الليـل، فعـليك بالكاوية . وذلك بأن تجعل زوارق المركب تدور حول المـركب، وأن توقد شعـلة لتراها الزوارق (ومهمـة الزوارق استكشاف ما حول المركب من الأوساخ) .

ولا ترفع من الشراع إلا قدر (التحويرة)، أي القدر الذي تستطيع به تصريف المركب بحذر بين الأوساخ . أما بالنهار فاجعل المياه الضحلة عند رأس (المطرد) إلى يسارك، وتوجّه إلى البر، وإن شئت اربط ببعض الجزر أو الشعاب، فإن الماء بين الجزر هناك ستة عشر باعاً[42] .

الخاتمـــة

هذه الرحلات، ربما اعتبرها البعض مجرد مغامرات، وأن إقدام ابن ماجد على القيام بها كان مجازفة متهورة، وأن سلامته من مخاطرها كانت مجرد حظ . وهذا غير صحيح . فابن ماجد لم يكن يجهل المخاطر التي ستواجهه في هذه الرحلات، ولا أساليب مواجهتها والخروج منها بسلام . كما لم يقدم على رحلة يتعذر عليه مواجهة مخاطرهـا . وخير مثـال على ذلك أنه في رحلتـه من (كاليكوت) إلى (جدة)، اضطر إلى التوقف في مرسى (الرياضة) أربعين يوماً، ولم يجازف بمواصلة السفر في وجه رياح الشمال، إلى (جدة)، على الرغم من قصر المسافة بينهما .

أما نصيحته للبحارة بالخروج من الهند إلى بر العرب في تمام المائة من النيروز، ووصفه لمن يسـافر في المائة والثلاثين بأنه « جاهل مغامر غير مجرب » لأن رياح الصبا (الأزيب) لا تأتي في بعض السنين على مراد المسـافر، فلا تسـاعده على الوصول إلى بر العرب، فيقصد به قراءة كتابه من صغار الربابنة، أما من كان في مرتبته في علم الملاحة، وكانت له مثل خبرته، في الملاحة في المحيط الهندي، والبحار المتفرعة منه، فإنه، بالطبع، ليس بحاجة إلى قراءة كتابه .

لكن يمكن اعتبار هذه الرحلات من إضافات ابن ماجد إلى الملاحة العربية إذ لم يسبق لأحد ـــ كما قال ـــ أن قام بمثلها من قبل [43]، وإن البحارة « اتخذوها من بعده »[44]، أي قاموا بمثلها بعده . وأنه لم « يرجع أحد دون جدة من هرمز بعد تلك السنـة » التي خرج فيها من هرمز في الثالث والعشرين بعد المائة من النيروز ووصل إلى جدة، في غير الموسم المعتاد لوصول المراكب إليها .

ونلاحظ أن هذا الأثر لابن ماجد عند سليمان المهري، في فصل مواسم السفر بريح « القبول وهو الأزيب » من كتابه « العمدة »[45] حيث يجعل السفر من هرمز

إلى موانئ البحر الأحمر وخليج عدن، وثلاثمائة وثلاثين إلى تسعين من النيروز، لمن يجري في طريق الساحل، أي يجاري البر، وإلى مائة وعشرين لمن ينطلق إلى الباحة (عرض البحر)، وتكون نتختـه (جردفون) (جرد فوي)[46] . فهذه المواسـم وطرقها قد ذكرها قبله ابن ماجد[47] . لكن ابن ماجد جعل خير موسم لمن يفارق البر، وينطلق إلى عرض البحر، من رأس (الحد) بعُمان، إلى رأس (جرد فوي) هو تمام المائة من النيروز، وهذا بالطبع هو المعروف عند البحارة في أيامه . وقال : إنه لا خير في السفر بعد المائة« إلا أن يكون عند الضرورة، فإني سافرت في بعض السنين بعبد الرحمن بن الشيخ علي الحموي، من (جرون) (بهرمز) في مائة وثلاثة في العشرين، وولجت به إلى جدة، وقد جعلت سقطرى يميناً، ونتخت به نتخة الهندي فتعجب الناس من ذلك »[48] .

فقبل رحلته هذه ــ كما يبدو من قوله ــ لم يسافر أحد من أهل البحر في المائة والعشرين، من (هرمز) إلى (جدة)، وأن البحارة اتخذوا هذا الموسم من بعده، أي السفر فيه . ونجد تأكيداً لكلامه هذا عند سليمان المهري، في جعله المائة والعشرين من النـيروز آخر موسـم للسفر من (هرمز)، لمن ينطـلق في البـاحة إلى (جرد فوى) .

كذلك رحلته في الخامس والثلاثين بعد المائة، من (كاليكوت)، ووصوله إلى (جدة)، لم يقم بها أحد قبله . وكان من يخرج من الموانئ الهندية في هذا الوقت، لا يتجاوز في رحلته الموانئ اليمنية، ولا يجرؤ على مواصلة رحلته إلى (جدة)، فجاء ابن ماجد فجرّأهم على السفر في البحر الأحمر، في هذا الموسم، واتباع أسلوبه في مغالبة الرياح في هذا البحر الخطر .

الحواشي والمراجع

(1) شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي النجدي، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خوري، ص 154 (دمشق 1971 م) .

(2) ابن ماجد، أرجوزة « حاوية الاختصار في أصول علم البحار » الفصل الثالث (مخطوطة المكتبة الوطنية ـــ باريس) .

(3) في الأصل « ينزل ثالث عشر » . بمعنى أن النيروز يبدأ مع نزول، أي غروب منزلة (الإكليل) بفجر اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني . وهذا خطأ ربما حدث عن الناسخ، أو الراوي . فالمعروف عند البحارة أن أول النيروز يوافق طلوع منزلة (الإكليل) بالفجر، وليس نزولها، أي سقوطها بالفجر . قال ابن ماجد في فصل (المنازل) من كتاب « الفوائد » : « الإكليل تطلع منزلته بالفجر أول النيروز الهندي وهو النيروز العربي » .

(4) باعتبار الثالث عشر من شهر تشرين الثاني أول السنة النيروزية .

(5) ابن ماجد، الفوائد، ص 312 .

(6) سليمان بن أحمد المهري المحمدي، العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، تحقيق إبراهيم خوري (دمشق 1970 م)، ص 112 .

(٧) نفس المصدر، ص 112 .

(8) ابن ماجد، الفوائد، ص 313 .

(9) سليمان المهري، العمدة، ص 320 .

(10) ابن ماجد، الفوائد، ص 320 .

(11) نفس المصدر، ص 321 .

(12) عيسى القطامي، دليل المحتار في علم البحار، ص 142 ، (الطبعة الرابعة) .

(13) نفس المصدر، ص 109 .

(14) أحمد بن ماجد، أرجوزة « السفالية »، تحقيق شوموفسكي .

(15) ابن ماجد، الفوائد، ص 319 ــ 320 .

(16) سليمان بن أحمد المهري، المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر، تحقيق خوري، ص 102 ــ 103 (دمشق 1970) .

(17) ابن ماجد، الفوائد، ص 323 .

(18) في الأصل : « من جاه إصبعين إلى الثلاث » وهو خطأ للناسخ، فالسير على خط (مغيب الجوزاء) أو (التير) يكون من الشمال إلى الناحية الجنوبية الغربية، أي من المكان ذي القياس الأصغر . وقياس (كاليكوت) عند سليمان المهري أربع أصابع إلا ربعاً، وقياس (كفيني)، كما عند ابن ماجد، ثلاث أصابع، فكاليكوت، إذاً، بالناحية الشمالية الشرقية من (كفيني) .

(19) زام الجمَّة : يساوي هذا الزام الزام العرفي عند البحارة، وهو ثلاث ساعات .

قال ابن ماجد في منظومة « المكية » :

ومن أحب معـــــرفـــــة الأزوام وقســـــمـــــة الجمـــــة بــــالتمــــام

فــليتــقــيــد من جمــلة المنـــازل مـــا كان منهـــا طـــالعـــاً وآفـــل

والبـــدر بـــالليـــل معـــاً والشـــمس لكـــل ســـاعـــة منزلة وســـدس

وكل زام له منـــــــــــــــازل ثـــلاث أيضـــاً ونصف كامـــل

يقول أن في كل ساعة تطلع منزلة واحدة وسدس منزلة . وكل زام جمة تطلع فيه ثلاث منازل ونصف، وعلى هذا يساوي زام الجمة ثلاث ساعات، لأن كل ساعة تطلع فيها منزلة وسدس منزلة، وفي الثلاث ساعات تطلع ثلاث منازل وثلاثة أسداس المنزلة، أي ثلاث منازل ونصف منزلة، وقال في قصيدة « قسمة الجمة على أنجم بنات نعش » :

فزامة الأول ربع الليل . . . . . .

وعدد ساعات الليل ـــ كما نعلم ـــ اثنتا عشرة ساعة، ربعها ثلاث ساعات .

(20) سليمان المهري، العمدة (سبق ذكره) .

(21) علم الفالات، ينشر علم جزر الفالات (الكاديف حالياً) بعد الخروج من الجزر، قال ابن ماجد في « السفالية » :

فـــإن نشـــرت عـــلم الفـــالات وقصـــدك الزنج فخـــذ وصـــاقي

(22) سليمان المهري، العمدة، ص 181 ــــ 182 .

(23) ابن ماجد، الفوائد، ص 315 ــــ 316 .

(24) المهري، العمدة، ص 118 ــــ 119 .

(25) ابن ماجد، الفوائد، ص 333 .

(26) نفس المصدر .

(27) « مائتي أشرفي » في النسخة التي اعتمدها إبراهيم خوري في تحقيق « كتاب الفوائد » وفي مخطوطة المكتبة الوطنية، باريس، ودار الكتب الظاهرية ـــ دمشق » « خمسمائة أشرفي » .

(28) ابن ماجد، الفوائد، ص 322 ــــ 323 .

(29) نفس المصدر، ص 323 ــــ 324 .

(30) المهري، العمدة، ص 164 ــــ 165 .

(31) النظامي، دليل المحتار، (سبقت الإشارة إليه) .

(32) نفس المصدر .

(33) ابن ماجد، الفوائد، ص 385 .

(34) ابن بطوطة، تحفة الأبصار في عجائب الأمصار، ج1 ، ص 155 (طبعة القاهرة) .

(35) المعالمة : جمع معلم، ومرتبته عند البحارة أعلى من مرتبة الربان .

(36) ابن ماجد، أرجوزة « الحاوية »، الفصل الخامس (مخطوطة باريس) .

(37) نفس المصدر .

(38) المهري، العمدة، ص 137 — 159 .

(39) ابن ماجد، الفوائد، ٣٦٢ .

(40) نفس المصدر، ص 364 .

(41) نفس المصدر، ص 368 — 370 .

(42) نفس المصدر، ص 370 — 372 .

(43) نفس المصدر، ص 322 .

(44) نفس المصدر .

(45) المهري، العمدة، ص ١١٨ .

(46) نفس المصدر، ص 118 — 119 .

(47) ابن ماجد، الفوائد، ص 321 .

(48) نفس المصدر، ص 316 .

المنهج الأدبي في مؤلفات العالم العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد

أحمد جلال التدمري

المنهج الأدبي في كتابات شهاب الدين بن ماجد :

اشتهر شهاب الدين أحمد بن ماجد بغزارة علمه في شؤون البحر وغرائبه وصعوباته، كما اشتهر إلى حد كبير، بمعرفته لعلوم النجوم والفلك من مطالع ومسارات ومواقع ومتغيرات . وقد كتب شارحوه ودارسوه الكثير عن هذين الجانبين . إلا أن الجانب الآخر، وهو .. لغة ابن ماجد الأدبية، وأسلوبه النثري والشعري، فإنه لم يلق الاهتمام الكافي والمطلوب، لإبراز خصائص هذا الجانب، والكشف عن ملامحه، وإيضاح مناحيه واستخداماته من بلاغة وبيان وبديع .

وفي هذه الدراسة الموجزة، أحاول أن ألقي الضوء على النهج الأدبي لابن ماجد من خلال رسائله ومؤلفاته المعروفة .

لقد نهج ابن ماجد في جل كتاباته أسلوب النظم الشعري المبسط، مستخدماً تفصيلات العروض للشعر العمودي الفصيح في الغالب، كما أنه استخدم الشعر النبطي في بعض الأحيان . ومن الواضح للمطلع المتتبع لشخصية ابن ماجد، أن الرجل كان يكتب للبحارة من قادة السفن، والملاحين، الذين يقضون جل أيامهم في البحر، يصارعون الأمواج، ويقاومون الأعاصير . يخترقون الصعوبات، ويتغلبون على الأنواء . وهؤلاء ليسوا من صناع الأدب ومحترفيه، بل إن أكثرهم ليسوا من متقنيه . لهذا فإن الأسلوب الذي استخدمه ابن ماجد في كتاباته، هو أقرب الأساليب نجاحاً، لإيصال المعلومة والمعرفة إليهم، ولنشر التوعية بأمور الملاحة، والأنواء الجوية المرتبطة بها بهم .

ولهذا الأسلوب يعود السبب في انتشار علوم ابن ماجد وتعليماته، حفظاً بشكل واسع بين البحارة، إذا كان حفظ النص الشعري أحب إلى النفس من حفظ النص النثري، لما يضفيه الشعر من جرس وموسيقى ونغم سلس، سهل الإلقاء والتذكر — كما أن الكلمات التي استخدمها ابن ماجد في صياغة قصائده شائعة ومستخدمة في

عصره، وهكذا كانت قصائده متوافقة مع اللغة المحكية في مجتمعه مجتمع الموانئ والبحر .

أما عن ثقافة ابن ماجد .. فقد كان من نخبة ربابنة البحر المتعلمين في القرن الخامس عشر[1] . لكنه برّ هذه النخبة بمعارفه اللغوية والفلكية والجغرافية، وثقافته العامة، وفهمه لبعض اللغات الأجنبية .

وقد أغنى ابن ماجد اللغة الفصحى بمصطلحات جديدة في فن الملاحة، وأثبت قدرة اللغة العربية على التطور، والتكيف مع المقتضيات الحضارية المستجدة، إلا أن اللغة التي كتب بها لم تصلنا سليمة، وقد يكون ذلك بفعل النساخ الذين لم يألفوا كتابة مبادئ علم البحر[2] .

ويعتبر تديّن ابن ماجد من أهم أسس ثقافته، فقد عرف عنه أنه كان تقياً، يقرأ القرآن الكريم، ويستشهد بآياته، ويؤدي الصلوات الخمس، كما يؤدي الشعائر الإسلامية الأخرى، ويتبع تعاليم الشريعة وأحكامها، حتىأنه في تدينه والتزامه بتطبيق تعاليم الشريعة، اعتبر مرجعاً دينياً لبحارته، وللعاملين معه، ولعارفيه، حتى أنه يلقب بحاج الحرمين الشريفين، كما ورد ذلك في كثير من قصائده[3]. وهذه المكانة لا تتأتى إلا لمن تعلم الدين وتبصر به .

وكنتيجة طبيعية لذلك الاطلاع والعلم، فقد كان ابن ماجد متأدباً بآداب لغة الإسلام، واعياً لفنون هذه اللغة، لآدابها، وهو العطاء الحتمي لدراسة القرآن الكريم، لما فيه من قمة البلاغة، وعمق الألفاظ، واتساع المفاهيم والمدلولات .

ويذكرنا ابن ماجد في تناوله لعلوم البحر واكتشافاته، ولعلوم الفلك وابتكاراته شعراً في قصائد مطولة، جمعت التحليل والوصف والإيضاح، وعرض فيها المعرفة والمعلومات البحرية والملاحية والفلكية، بأسلوب جزل سهل لا يخلو من التناغم والخيال . يذكرنا في ذلك النهج بألفية ابن مالك، التي شملت علوم اللغة، من نحو

وصرف، وغير ذلك من فنون اللغة . والتي تعتبر مرجعاً أساسياً جامعاً لأصول اللغة العربية وآدابها، تماماً كما يمكننا اعتبار مجموعة قصائد ابن ماجد، مرجعاً جامعاً لعلوم الفلك البحرية، ولعلوم الملاحة وطرقها، في ما بين أفريقيا والبحر الأحمر وخليج العرب، إلى الهند وجنوب شرق آسيا .

ولا شك في أن الدارس لكتابات ابن ماجد يلمس فيما يقرأ ذلك الحس الأدبي الرفيع والوعي اللغوي الواسع والذي يتمتع به ابن ماجد وهذا ما سنبينه من خلال تناولنا لنماذج من أشعاره .

وفي طليعة مانطالعه من شعر ابن ماجد .. ماكتبه هو نفسه عن نهجه الأدبي ولجوئه إلى النظم الشعري حيث يقول في خاتمة قصيدته المعروفة باسم ضريبة الضرايب ـــ البيتين : 188 , 189 .[4]

فأرسمتها باسم الضرايب أنها حوتها ولو قصرت بالحق في الشعر
فما غرضي في الخبر أو في فصاحة ولكن مرادي في الهداية والأجر

ويعيب شعر ابن ماحد ضعف السبك والأوزان ووقوعه في بعض الأخطاء النحوية[5]. حيث يعترف هو نفسه بذلك في قصيدته المسماة (البليغة) في الأبيات التالية[6].

فقيسوا قياساتي على البحر كله فلن تجدوا فيها زحافا ودافعْ
سوء الضيق والتنفيس هذي وديعتي لديكم فلا تنسن صون الودائع
وإلا فمن سهو وكاتب زلة ومستعجل لايتقن العلم جازع

ويقول في قصيدته المسماة السبعية[7].

إن كان في ألفاظها والقافية ضعفاً ترى فيها المعاني وافية

وفي قصيدة أخرى يؤكد ابن ماجد قصده من النسج الشعري المبسط والمختصر وهو التركيز على عرض أصول علوم البحر والملاحة والفلك والأنواء لا الكتابة

التشعرية بحد ذاتها . وفي ذلك يقول في الفصل الحادي عشر من قصيدته المعروفة باسم (حاوية الاختصار في أصول علم البحار)[8].

فلو أرد تطويل كل فن   لم تطق النساخ تنسخ عني
قصدي الاصول في علوم البحر   لاقصدي الهرج وكثرا الشعر
قد راح عمري في المطالعات   وكثرة التسآل في الجهات
وكم رأيت في فطوط الشول(القول)   ونظمه والنثر والفصول
من أجل ذا إني اختصرت نظمي   حكمته على حقيق علم
أودعه في أرجوزة غراء   هيهات أن يهدى لها سوائي
سميتها بالحاوية ياصاح   تضيء للجاهل كالمصباح
ولا ألوم بعد موتي فيها   أن يغلط الكاتب أو قاريها
قرأتها على أهيل الصرف   والنحو والعربان أهل العرف

ويقول أيضاً في قصيدته حاوية الاختصار[9].

والعقل أصلا قط ماطاع ورق   أن يعتقد في طرس خط وورق
من أجل ذا أني اختصرت نظمي   حكمته على حقيق علمي
أودعه في أرجوزة غراء   هيهات أن يهدى لها سوائي
جاءت كما جاء الشهاب يستضا   يا حاسدي مت كمدا أو غيظا
تمت بشهر الحج في جلفار   أوطان أسد البحر في الأقطار

شعره الديني :

لم تخل قصيدة من قصائد ابن ماجد من التضرع إلى الله وذكر عظمة الخالق والتوجه إليه بالدعاء والصلاة والسلام على رسوله الكريم سيدنا محمد ﷺ ، فها هو يقول في مطلع قصيدته البائية المعروفة بالذهبية[10].

بدأت باسم الله ربي وصاحبي   ومستخلفي في جيرتي وأقاربي

قـديـر عـلى الكـونـين إذ رفع السما   وزينهـــا بـــالزهـرات الشـواقب
تعـالى فـلا عقـل يحيط بوصفـه   محيط بمخلوقـات كل المضـارب
وثنيت في نظـم القصيـدة مصـليـاً   على خـير هـاد من لؤى بن غـالب

إلى أن يقول في ختام القصيدة :

كفت أحمد السعدى شفـاعة أحمد   إذا مـا رمى يوم الوعيـد بصـائب
عـليـه صـلاة الله مني مـا جرى   على الفـلك جار في ضيـا وغيـاهب
ومـا سـار بـين الفـرنج وصـينهـا   عـلى البحـر سـفـار بفـلك وقـارب

ويقول في ختام قصيدته التائية[11].

وصـــل على الهـادي النبي محمـد   نبي الهدى المبعـوث في خـير أمـة
عـليـه سـلام لله إن جيتَ نـازلا   من الفـلك أو في البر عُـدْهُ تحيـتي
نبـي سمـا فـوق البراق لربـه   نبي الهدى المدفون في أرض طيبـة

وفي قصيدته المسماة (ضريبة الضرايب) يقول[12].

رضـيت بـربي حـاكما وهـو شـاهد   بفعـلي وعـلام الغيـوب بما يجري
ويعـلم مـا أنـوي ومـا في ضمايـري   تكـفـل رزق الخـلق في البحـر والبر
ويـرزق طـير الجـو يـومـا بيـومـه   كذا يـرزق الديدان في بـاطن الصخـر

ومن ذلك أيضاً اهتمامه بالصلاة على الدوام، فقد حدد الاتجاهات الصحيحة نحو الكعبة المشرفة، في كل المواقع التي مر بها، معتمداً في ذلك على علمه ومعرفته بمواقع الافلاك والنجوم ومسار الأرض في المجموعة الشمسية والكونية . ولعله في ذلك الانجاز قد سبق غيره من العلماء الذين سعوا لتحقيق هذا العمل .

ويقول ابن ماجد في قصيدة نظمها في تحديد الاتجاهات نحو الكعبة المشرفة عنوانها (تصنيف قبلة الإسلام)[13].

بـاسـم الاله المستعـان أبتـدي   مصـليـاً عـلى النبـي أحمـد

ليسهل التشديد من مرامي في نظم دُرٍّ قبلة الإسلام

سبحان من وقفتي لنظمها ودل عقلي لشريف علمها

رب كريم رازق هداني لهذه التحفة واجتباني

الحكمة في شعره :

عمد ابن ماجد في سرده للعلوم إلى التنبيه، والتحذير، وإلى التوعية بالمخاطر، وسوء الأنواء، ومعارج المياه، إلى جانب الكثير من أبيات الحكمة والإرشاد، وكمثال على ذلك، نطالع جزءاً من قصيدته المخمسة التي يقول فيها(14).

تأمل وشاور واسهر الليل واعزم وحقق ودقق واحفظ السر واكتم

واصبر وأجمل ماسمعت فتسلم وتبقى رئيسا في الرجال مقدم

تأمل وشاور واسهر الليل واعزم

كما يقول في معرض تعريفه بالنجم الزوجي والقياس به(15)

فاحذره ثم احذر الأصحابا وافعل لهم بالنصح كي تثابا

الغزل :

لم تخل قصائد ابن ماجد من الشعر الوجداني والغزل، فقد حوت قصائده بعض الشذرات في هذا المجال، ولعل أشهر ما قاله من شعر الغزل ماورد في قصيدته المعروفة بالمكية، حيث قال :(16).

فؤادي أسير الحي من شعب عامر أحوم عليها بالدجى والهواجر

بها ظبيات في المحاجر كلما نظرتهم بالحجر فاضت محاجر

أقول إذا عاينتهن سوافراً تحول في الغزلان سر العناصر

وإن برقوا عني الوجوه أرى لها أشعة صبح تحت ليل الغداير

ولي فيهم بيضا رواح توشمت بأخضر يحلو بعد شق الحراير

ألام بمن يحلو الحراير عنده أعاذل فيها كن عذيري وناصر

بعيدة مابين التراقي وقرطها تدور به الكفاية حيث الخواصر
على كفل نض إذا ما تناهضت وسارت به سارت لديه النواظر
تسامر خلفي من جياد إلى الصفا إلى البيت لمّا نام كل مسامر
تزوجتها ونا قليل اقامتي وذا يقضي حال المحب المسافر
فلا خضرة إلا وفيها تودع ولا نظرة إلا وفيها مواطر
مخافة وشك البين يوم رحيلنا بغير وداع وانكسار الخواطر
ومن لم يكن في الركب ناة وآمرا يفارق من يهوى بحز الحناجر
فقضيت ما قضيت منها معجلا سقى الله أهليها ثقيفا وعامر
ففارقتها دمعي يفيض كأنه كفوفي على جيرانها والعشاير
إذا لم أكن فيما اشتهيت كحاتم فلا بقيت نفسي لنسبة مادر
وسرت بقلب وكاد يقضي تأسفا وزودت من سكان مكة ناظره
ولابرح التذكار عني وشوقهم يجاذبني مهما خطين الأباعر

المديح :

أما في مجال المديح، فقد بث اعتزازه وإشادته بموطنه جلفار مادحاً البلد ورجالها، الذين وصفهم بأسود البحر، المجربين في الشدائد، الشجعان في المهمات، لايتقاعسون عن عمل يرجى منهم . وفي ذلك يقول في قصيدته المعنونة (البليغة في قياس السهيل والرامح)[17].

رعى الله جلفارا ومن قد تشابها وأسقى ثراها واكفا متتابع
بها من أسود البحر كل مجرب وفارس بحر في الشدايد بارع
يسرك في الاوصاف إن وصفت له حَدورٌ جسورٌ في المهمات شاجع
إذا سام في شيء ترجوا كماله يقوم ولم يمنعه عن ذلك مانع

هجاؤه :

دأب ابن ماجد في معظم قصائده أن يختصها بأبيات يبين أهمية القصيدة وفضائلها وغزارة علمه وكشفه لكل مجهول في علوم الفلك والبحار ويخص عدداً من الأبيات في هجاء من يستهترون بعلمه أو يقللون من شأنه . ومن ذلك قوله في آخر قصيدته المعروفة بـ (كنز المعالمة وذخيرتهم) :[18] .

والله والله لولا ضيق قافيتي فصلتها فعلى الأختان تفصيل
إذا قرأها جهول قال من سفه عن عجزه بيس هذا القال والقيل
فكان ماهر علم سوف يدركها ولا يكدرها قوم مراذيل
حصرت أصل نجوم الأفق عن كمل أستغفر الله ما قال المهابيل
يا حاسدي استمدوا من عيوبكم واستكتبوا فلشهاب العلم تأويل

ويقول في قصيدته / ميمية الإبدال :[19]

فقل لبني دهري ولكل مغفل أغركم حلم الفتى وتبسمي
مقاسكم تسوى جناح بعوضة ويبقى على الدارين خطي ومقسمي
حصرت نجوم الأفق في البحر هادياً بها سالك البحر المحيط المعظم
بخير قياسات وجم فوائد فلم يعترض لي غير جحش معمم
إذا جيته من باب علم مجرد تعامى بتعجيل الصراخ المترجم
ولما رأيت الناس في الوهم أسرفوا ولم يغرقوا بين الدنى والمقدم
حددت لهم حداً فلم يصلوا له وزال بهذا الحد كل التوهم
وألقوا سلاح الجهل لما تحققوا معالي في عرب وعجم وديلم .
بقولي إني رابع لثلاثة فحق لحسادي تموت وتعتم

ويقول في قصيدته الغايقة[20] :

إن جاكم أحمق قد غره مزن له لسان فنظمي ذو لسانين

اعتزازه بشخصه :

ومن اعتزازه بنفسه وبمؤلفاته يقول في قصيدته الذهبية :[21]

فيا راكبي البحر اسألوني واكتبوا   فرقاكم بالكتب لا بالكتايب
فإن مت قيسوا ما اخترعت وعولوا   عليه فقد هذبته بالتجارب
فإن صح في نتخاتكم ما اخترعته   فمي أنا والترب فوق ترايبي
وإلا فمن حزن لفقدي تزلزلت   ولا شك أفلاك السما بالكواكب

إلى أن يقول :

بل ونعم والنجم سوف ترونه   له شهرة في شهرتها والمغارب

وفي موقع آخر يقول :

عليك بعلمي لا تكن بمركب   على الجهل مغزى بالظنون الكواذب
أهل تهمل الجياد عند اللقا   وتركب أهل الثأر فوق الثعالب ؟

ويمضي قائلاً عن علومه :

إليكم إشارات كشفت أصولها   ليعرفني طول المدى كل طالب
وصغت علوماً ما سبقت لمثلها   أصولاً ألا فاستفتحوا من مواهبي
ولا تتركوا ما ليس يدرك كله   لعل فتى يأتي ينال مراتبي
أفاد علوماً واستضاء بنورها   وفرع منها ما اشتهى للنوايب
كشفت جميع البحر مع جملة السما   فإن مت لا حي يعد كغايب
فيا عجباً يا قوم والحق أبيض   وقد بلغ السيل الزبى بالأهاضب
أينكر أفعالي وقولي جماعة   مسودة والعار شر العواقب
هبوا أنكم حسادنا فتأملوا   لما هو ماض في سيوف قواضب
لقد نطقت عن منطقي ذهبيتي   إلى أم ضاقت عليهم مذاهبي
ألا فارووا يا أيها الناس حكمة   تعادل هذا بين آت وذاهب

وفي قصيدته ضريبة الضرايب يقول :[22]

فـإن تجهـلوا قـدري حيـاتي فـإنما سـيـأتي رجـال بعـدكم يعـرفوا قدري
فـإن تجهـلوا اسمي أدعيت في الوغي فـإني شهـاب لست أجهـل والدهر

ويقول في قصيدته المسماة (البليغة) :[23]

سهرت وغيري خالي من البـال هاجع فـرامـا ومثلي كيف يهنـا المضـاجع
لقـد عـودت زهـر النجـوم رعـايتي وصرت شـهـيراً للثـلاثـة رابع[24]
كشـفت لعـلم مـا سبقت لمثـله وكل فـتى يجـني الذي هـو زارع
فـإن مت كم تستـغفـر لي جمـايع إلى الحشـر فيهـم من مـلبٍّ وراكع
فكـم كان فيهـم عـالم قـال ليتني أرى أحمـد في قـلبـه وهـو لابع
ولا ذكر اسمي عنـد من كان عـالمـاً إذا مت ألا فـرقتـه المـدامع

كما يقول في قصيدته القافية :[25]

خـليـلَّي هيـا واسمعـا در منطـقي فـلا عـاش من يخفي العـلوم ولا بقي
إليكـم أسـود البحـر مني يتيمـة قـد استخـرجت من بحري المتـدفق

وفي ميمية الإبدال يقول :[26]

نـوادر عـلم البحـر عني تفـرعت وخير صفـات البحر تصـدر عن فمي

أما عن النثر الأدبي عند ابن ماجد، فإنه محدود بشروحات وإيضاحات في غالب الأحيان، لما كتب من شعر استعصى فهمه على بعض النواخذة المعاصرين له، أو شرح لبعض ما نظم لتكون مفهومة لقرائه في الأجيال اللاحقة . ومن أهم أعماله النثرية (مختصر كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) . والفصولُ والملُّ . وهي المعروفة والموجودة، إلا أن هناك كتابات أخرى نثرية مفقودة من أعمال ابن ماجد، ورد ذكر بعضها عرضاً في كتاباته مثل : مطول كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، وشرح قصيدته المعروفة بالذهبية، والتي بلغ عدد أبياتها مائة وثلاثة

وتسعين بيتاً .

وهكذا بلغ مجموع ما نظم ابن ماجد من شعر مما هو معروف لدينا اليوم (4603) أبيات تضمها أربع وعشرون قصيدة وأرجوزة، أطولها حاوية الاختصار في أصول علم البحار[27].

وفي ختام هذه الدراسة الموجزة للنهج الأدبي في مؤلفات ابن ماجد، نردد معه قوله في أرجوزة النبات :

قيسوا عليها في ضياء وظلم وفتروا في اللوم عن سهو القلم
بل اسمحوا بالعذر للفقير في تركة التقديم والتأخير
لأنه في نسخة الفوائد على منازل كلها بالواكد

الهوامـــش

1 ـــ ورد في ذلك في الصفحة 35 من كتاب : أحمد بن ماجد منظر الملاحة في المحيط الهندي وبحاره الشاطئية في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي . تأليف : إبراهيم خوري .

2 ـــ نفس المصدر السابق، ص 36 , 35 .

3 ـــ من هذه القصـــائد على سبيل المثال قصيدة كنز العمالقة وخيرتهم في علم المجهولات، ص 55 من كتاب الشعر الملاحي عند أحمد بن ماجد . القسم الثاني، تحقيق إبراهيم خوري .

4 ـــ ص 32 ـــ كتاب الشعر الملاحي عند ابن ماجد، القسم الثاني .

5 ـــ ص 36 ، كتاب أحمد بن ماجد منظر الملاحة .

6 ـــ الأبيـات 53 ـــ 54 ـــ 55 الصفحة 51 كتاب الشعر الملاحي عند ابن ماجد .

7 ـــ البيت 296 من القصيدة السبعية في المصدر السابق .

8 ـــ في الصفحتين 62 و 63 من كتاب حاوية الاختصار في أصول علم البحار .

9 ـــ في الصفحة 63 من المصدر السابق .

10 ـــ القصيدة الثانية عشرة ـــ كتاب الشعر الملاحي عند ابن ماجد . الأبيات الأربعة الأولى من القصيدة .

11 ـــ القصيدة الثالثة عشرة في المصدر السابق .

12 ـــ ص 20 من المصدر السابق .

13 ـــ قصيدة تصنيف قبلة الإسلام . كتاب :

14 ـــ القصيدة الرابعة والعشرون، ص 73 ، كتاب الشعر الملاحي .

15 ـــ في قصيدته المعروفة بضريبة الضرايب وفيها يقول :

شباب برأس أعجب الناس من أمري أتاني بعيد الشيب في آخر العمر

16 ــ قصيدته المكية . هي الخامسة عشرة . ص 33 ــ كتاب الشعر الملاحي .

17 ــ ص 51 ــ المصدر السابق .

18 ــ الأبيات 57 ــ 61 ــ 67 ــ 69 ــ 70 ــ ص 59 و 60 من كتاب الشعر الملاحي .

19 ــ ص 61 من المصدر السابق .

20 ــ ص 69 من المصدر السابق .

21 ــ البيت الخامس وما بعده من القصيدة الذهبية . كتاب الشعر الملاحي .

22 ــ البيتان 183 ــ 184 من قصيدة ضريبة الضرايب .

23 ــ الصفحتان 47 و 48 ــ كتاب الشعر الملاحي .

24 ــ الثلاثة السابقون لابن ماجد هم : محمد بن شاذان، سهيل بن أبان، وليث بن كهلان، كتاب أحمد بن ماجد منظر الملاحة .

25 ــ الصفحتان 52 و 53 من المصدر السابق .

26 ــ الصفحة 61 من المصدر السابق .

27 ــ في مقدمة كتاب الشعر الملاحي عند أحمد بن ماجد ص 2 .

كلمات الندوة والتقرير الختامي

كلمة عبد الغفار حسين رئيس اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، في حفل افتتاح ندوة ابن ماجد، يوم الإثنين التاسع من يناير 1989 ، الساعة الخامسة من بعد الظهر

حضرة صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي
عضو المجلس الأعلى ـــ حاكم الشارقة ـــ
حضرات الأفاضل، الأساتذة الضيوف ..
أيها السادة المحترمون :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وتحية وشكراً لكم، من اتحاد الكتاب والأدباء في الإمارات العربية المتحدة، على تلبية دعوتنا لحضور هذا الحفل ... الذي نقيمه تخليداً وتمجيداً لذكرى عالم كبير من علمائنا، هو شهاب الدين أحمد بن ماجد، أسد البحار .

يقول شهاب الدين أحمد بن ماجد :

فإن تجهلوا قدري حياتي فإنما سيأتي رجال بعدكم يعرفوا قدري

وها نحن أيها الإخوة ... بعد حوالى خمسة قرون من الزمن، نجتمع في بقعة عاش عليها ابن ماجد، ونتلاقى على ضفاف خليج، طالما مخرت سفن ابن ماجد عبابه، جيئة وذهاباً ... لنؤكد اليوم لعالمنا الكبير ابن ماجد، أننا لا نجهل قدره .. وأن هذا الحشد الخير من العلماء والأساتذة والمشاركين والمهتمين، هم أولئك الأشخاص الذين تنبأ بأنهم سيأتون ليعرفوا قدره ومكانته ... وكأن ابن ماجد يدري بكم أيها الإخوة ... ويدري أن له من الشأن عندكم الشيء الكثير، لا في قلوبكم ووجدانكم فحسب، بل في عقولكم وأفكاركم أيضاً، حيث نقلتم ذلك في أبحاثكم ودراساتكم، وما حققتموه عن هذا الربان العربي الكبير، الذي عرفته شواطئنا وشواطئ غيرنا من الهند وأفريقيا وجزر جاوة وغيرها .

هذه تخوم الخليج العربي، نلتقي عليها اليوم لنؤكد أن لخليجنا هذا وجهاً حضارياً، غير الوجه الذي حاول الأجانب أن يصوروه لنا، كما أوضح ذلك صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي في كتابه القيم (خرافة القرصنة في الخليج) الذي دحض فيه الصورة التي رسمها الأجانب، وهو وجه القرصنة والاعتداء على العابرين، بل في الحقيقة كان هذا الوجه متمديناً، ساهم مساهمة فعالة في الحضارة الإنسانية .

لم يركب العربي السفن ويجوب البحار ليعتدي ويستعمر الشعوب ويستغل خيراتها، بل أجرى الفلك ليرشد ويهدي ويعلم، وينقل للشعوب نتاج مدنية إنسانية نمت بذورها على أرض جزيرته العربية، وحملها من هنا أناس متحضرون، كان همهم إيقاظ الإنسانية من سبات الجهل والتخلف، وهدايتها إلى رسالتها الإنسانية، ليكون الإنسان خليفة الله في الأرض، يعمرها ويبنيها كما أراد الله له .

أيها الحفل الكريم ...

ثمة سؤال نسأله نحن في اتحاد كتاب وأدباء الإمارات .. لماذا نهتم بتراث ابن ماجد ؟.. ونحاول في الوقت نفسه الاجابة عن هذا السؤال ...

ربما تتركز الأبحاث في هذه الندوة حول إنجازات ابن ماجد العلمية في الفلك وعلم النجوم وعلم البحار والجغرافية .

أما نحن فننظر له من أوجه عدة .. فهو بالإضافة إلى كونه عالماً فلكياً وبحاراً وشاعراً وكاتباً، فهو أيضاً نموذج لحضارة عريقة ... حضارة متصلة الحلقات بالحضارة العربية الإسلامية، التي كان لها دور إنساني عالمي، وذات تأثير عميق على الحضارة الإنسانية في عصرنا الحاضر ... وإن أحمد بن ماجد لم يظهر من فراغ، وإنما كان ابناً لمجتمع متمدن واسع المدنية، يؤكد الشرعية لحضارة أمته العربية والإسلامية .

والوجه الآخر لأحمد بن ماجد أنه ابن هذه المنطقة الخليجية العربية، ولد ونشأ على ضفاف مياهها، وهو نموذج حي للإنسان الخليجي المكافح، الذي كان يصارع البحر وأهواله، في ظل ظروف معيشية شديدة القسوة، واستطاع من خلال هذه الظروف غير الملائمة أن يكون نموذجاً حياً أيضاً، للإنسان العربي المتحضر، الذي يعمل من أجل أن يترك للإنسانية تراثاً من المدنية، تجسدت في ما خلفه لنا ابن ماجد من أعمال فكرية زادت على أربعين كتاباً .

رحم الله عالمنا الكبير ابن ماجد وشكراً لكم أيها الإخوة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة مركز الدراسات والوثائق برأس الخيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب السمو الدكتور الشيخ سلطان بن محمد القاسمي
عضو المجلس الأعلى للاتحاد ـــ حاكم الشارقة
أصحاب السعادة
أيها الإخوة الحضور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إنه لقاء مبارك نشهده اليوم برعاية كريمة منكم يا صاحب السمو، يضم نخبة من الأساتذة العلماء والباحثين المجيدين في التراث العلمي والفكري لأمتنا العربية، وللإنسانية جمعاء .

وإن العالم العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد، الذي نحن بصدد مناقشة عدد من الدراسات والأبحاث عنه .. هو عالم رائد أغنى علم الملاحة وعلم الفلك بمؤلفاته واختراعاته ودراساته . وقد خدم الحضارة الإنسانية بعطائه، مما جعله محط أنظار المستشرقين والعلماء الأجانب . وقد حظي منهم بالاهتمام والبحث والاستفادة من تراثه .. في حين لم يحظَ في عالمنا العربي في الماضي بما يستحقه من عناية بمؤلفاته، واستفادة من علومه حتى السنوات الأخيرة، حيث برز عدد من الأساتذة العلماء، أخذوا على عاتقهم التنقيب عن مؤلفاته وتصنيفاته .

وجاءت هذه الندوة القيمة، وبمبادرة طيبة من الإخوة في اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، لتكون خطوة طيبة قيمة على طريق إحياء تراث ابن ماجد، وإلقاء الضوء على علمه ومؤلفاته ومخترعاته .

وإننا يا صاحب السمو .

وأيها الإخوة الأفاضل

إننا في مركز الدراسات والوثائق برأس الخيمة، موطن ابن ماجد، عاكفون، بتوجيهات من صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى للاتحاد ـــ حاكم إمارة رأس الخيمة، على إنجاز مكتبة وثائقية تراثية خاصة بابن ماجد، لتكون مرجعاً للدارسين والباحثين، تشمل مؤلفاته النثرية والشعرية، وكل ما كتب عنه من شروح وتحقيقات، وكتب، سواء كانت باللغة العربية أم باللغات الأخرى .

كما تعمل إدارة متحف رأس الخيمة الوطني، على جمع التراث البحري لابن ماجد من أدوات القياس الملاحية والفلكية، وخرائط بحرية ومعدات أخرى لتحتل جميعها قسماً خاصاً باسم الرجل في المتحف .

وفي نفس الوقت، يقوم مركزنا حالياً بتنفيذ طباعة عدد من الكتب المحققة، والمؤلفات العلمية عن ابن ماجد، ستجد طريقها إلى القارئ العربي قريباً إن شاء الله، كما سنصدر عدداً آخر من الدراسات باللغات الأجنبية الحية، لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الرجل في الأوساط الأجنبية .

كم سيشاهد الإخوة المشاركون، والمدعوون إلى رأس الخيمة على الطبيعة. المواقع الأثرية التي عاش فيها ابن ماجد، والبيئة التي شهدت حياته، والميناء الذي كان ينطلق منه في رحلاته البحرية .

إنها أيها الإخوة لرعاية كريمة يلقاها البحث العلمي من صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة، وإخوانه أصحاب السمو، أعضاء المجلس

على للاتحاد حكـام الإمارات، خلقت دافعاً قوياً لكل مفكر ولكل عالم، لأن
لذل الجهد تلو الجهد في البحث والدراسـة والاستقصـاء، لخدمة تراثنـا المحلي
عربي .

وإني لأرى ما تم إنجازه من عطاء علمي على هذا الطريق، في ندوات رأس الخيمة
تاريخية الأولى والثانية، وفي ندوات جامعة الإمارات، إضافة إلى هذه الندوة المعطاء
اتحاد كتاب وأدباء الإمارات . وهذا في مجمله مؤشر خير لواقع ومستقبل حضاري
ميد لوطننا ولأمتنا العربية .

شكراً لرعايتكم يا صاحب السمو
شكراً للإخوة العلماء والأساتذة الأفاضل المشاركين بهذه الندوة، وشكراً للإخوة
، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات على جهودهم وتعاونهم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمـة الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب في حفل افتتاح ندوة ابن ماجد في الشارقة

صاحب السمو

أيها الحفل الكريم

ببالغ الثناء والتقدير حضرنا إلى الشارقة، لنساهم في أعمال ندوة ابن ماجد، التي يقيمهـا اتحاد الكتاب والأدباء في الشـارقة، وقد حرصنا على الحضور، لأننا نحن المؤرخين العرب، نفهم أكثر من غيرنا، مدلولات هذه الندوة العلمية، التي تربط ما بين التراث والمعاصرة، وتكشف عن نوابغ الفكر العربي، وتعبر عن الإبداع الذي شهدته منطقة الخليج العربي، ومدى مساهمة الإنسان العربي في الحضارة الإنسانية وانفتـاحها على العا لم، وتعاملنا مع علماء الأرض تعاملاً إيجابياً، بغض النظر عن الهوية والجنسية .

كان ابن ماجد أحد أبناء هذه الأرض الطيبة، الذي شهد له العا لم كله بأنه أكفأ من غيره على استيعاب علوم عصره وأقدر على الابتكار لأساليب لم تكن معروفة في عهده لغيره، من علماء البحار والفلك والجغرافية، فأعطى وساهم وقدم للإنسانية بسخاء، ونكران ذات، فلم يبخل على غيره بما كان عليه، من خبرة ودراية وعلم، فضرب بذلك مثلاً رائعاً في التأريخ العربي والعالمي، بأن العرب أمة خلقت لتعطي، ووجدت لتبني، ولم يعرف عنها عنصرية أو أنانية أو كراهية للأمم الأخرى، فمد ابن ماجد يده للأوربيين، دون أن يدور في خلده بأنهم يسرقون منه مجداً، أو يدعون من خـلال استثمار براءة اكتشـافاته عظمـة، أو يسجـلوا لأنفسهـم سبقـاً في الريادة والاكتشاف . فكان ابن ماجد ابن الخليج العربي وابن أمة العرب وابن الإسلام

العظيم . وهكذا هم الأجداد، كانوا، وسيظلون محل فخر واعتزاز الأحفاد على مر حقب التأريخ . فما أروعك يا ابن ماجد، وما أكرمك، وما أبلغ سيرتك، فلقد خلدها التأريخ على الرغم من كل التشويهات والتحريفات والظلم الذي لحق بك . فلقد كثر اللغط عن شخصيتك، ووجهت السهام لاسمك، وحاول المستشرقون أن يطمسوا ذكراك، وأن يجعلوك مجرداً من كل اعتبار، ولكن الحقيقة التاريخية لا تطمس، وقد خلدك التاريخ، عالماً فذاً رائداً من رواد الاستكشافات الكبرى، وما هذه الندوة إلا تعبير عن الوفاء، يا من يفتخر بك العرب،، فبارك الله في القائمين على عقدها، فقد أعطوك حقك، ووثقوا عملك، وسلطوا الضوء على شخصيتك العتيدة، فكانوا أبناء بررة، أدوا الواجب وحملوا الرسالة، وحققوا أمنية التاريخ العربي، فاستحقوا التقدير والإعجاب . فباسم المشاركين من إخوتي المؤرخين العرب، وباسم اتحاد المؤرخين العرب، أقدم جزيل الشكر لاتحاد كتاب وأدباء الإمارات في الشارقة، على عملهم المتميز هذا، وأدعو الله أن يحفظهم ذخراً للتاريخ والتراث، وأخص منهم بالذكر الأخ الأستاذ عبد الغفار حسين رئيس الاتحاد .

وأخيراً لا بد لي أن أوجه شكري وتقديري وإعجابي بشخصية الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو اتحاد المؤرخين العرب، وحامل وسام المؤرخ العربي، على دعمه لتلك الأعمال العلمية الجليلة، وعلى تقديمه الإسناد المستمر لاتحاد المؤرخين العرب، وسيبقى سموه محل فخرنا واعتزازنا وحبنا . كما اني أوجه الشكر والتقدير لسمو رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، على دعمه كل عمل خير، وتبنيه كل معروف يعود بالنفع للعرب والتاريخ العربي، متمنياً لسموه، باسم المؤرخين العرب، دوام الصحة والتوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

د. مصطفى عبد القادر النجار

الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

كلمة ختام الندوة

عبد الحميد أحمد

نائب رئيس اتحاد كتاب وأدباء الإمارات

اليوم اكتملت الفرحة التي بدأنا بها ندوتنا، فرحة المغامرة في اكتشاف المجهول، وسبر غور التاريخ العتيق المطلسم حقيقة لنا، نحن أبناء الغربة والغرابة، أبناء الهاشمي والسطحي، وبمثل هذه الفرحة، نختتم اليوم أعمال الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد، وذلك لأن شهاب الدين أحمد بن ماجد لم يكن مهملاً في عالمه العربي وفي العالم أجمع، كما كنا نعتقد، فبيننا من تحدث عنه، من روسيا وبلجيكا والعراق وسوريا ومصر واليمن . ولهذا فإن كثيراً من الفرح، الفرح الغامض غموض أسرار الشعر، والفرح الغامر مثل غمام تشريني، يملأ اليوم القلب، فقد كان ابن ماجد حاضراً في رؤوس رجال علماء مثلكم، أيها الأصدقاء المشاركون، ولذا يبدو الشكر صغيراً عليكم، فقد قدمتم لنا أكبر خدمة، بإحيائكم تراث هذا الرجل البارع، الذي يعلمنا، ويعلم جيلنا المعاصر معنى أن يشتغل المرء في العلم والثقافة، بصمت وثقة، ثم يربح الخلود أخيراً ... وأبداً . فشكراً لكم، شكراً لمجيئكم، وشكراً لبحوثكم واجتهاداتكم وجهودكم، وحواراتكم، حيث سوف نثق دائماً بباحثنا العربي، وبباحثنا الإنساني الذي هو في صف العلم والحضارة الإنسانية .

(كأننا أيها الأصدقاء نبحث عن الجذور، خاصة في هذه المرحلة التي تبدو وكأنها ساحة حرب، يغطيها غبار الاستلاب والطمس والتشويه والغربة الحضارية ومن خلال هذا البحث عمل اتحاد كتاب وأدباء الإمارات على برنامج ثقافي متواضع، بدأ بشاعر الإمارات سالم بن علي العويس، ثم ندوة الأدب في الخليج العربي، ثم هذه السنة ذهبنا إلى ضيافة التاريخ العريق، ضيافة البحر، حيث يقف

أحمد بن ماجد فاتحاً ذراعيه، مثل ماء يعانق العشب، وكأنما روحه عرفت الآن أن جهوده لم تذهب سدى، وقد جاء زمان على الأرض يعرف فيه رجال مثلكم قدر هذا الملاح القديم، ويجد فيه أدباء وكتّاب ومثقفون عرب معاصرون، صورة للجد والعمل والعلم والثقافة الواسعة .

بهذه الخطى، يعمل اتحادنا، في حقل الثقافة ننظر بعين صافية إلى الماضي، وننظر بعين أخرى إلى حاضرنا، وفي قلوبنا يهتف المستقبل الذي نريده وضاءً لأمتنا العربية، وهذا العمل الجاد، هو ثمرة سنوات قليلة من عمر اتحادنا، نقول هذا الكلام لا من قبيل امتداح الذات، بقدر ما هو وعد قد قطعناه على أنفسنا، ومنهج أردناه طريقاً، لنظل دائماً في حالة بحث جادة عن الجذور، وبحث كهذا لا يمكن له أن يكتمل دون أن نمد كثيراً من الجسور، كي نلتقي مع إخوتنا العرب وأصدقائنا من دول العالم الأخرى .

وهذه الندوة ليست آخر المطاف، بل إننا نشعر أننا قد تورطنا مع ابن ماجد، فقد أبحرنا معه لعدة أيام، ووصلنا إلى منتصف البحر، منتصف الطريق، أو أقل من ذلك، ولم نرتوِ بعد من حقيقة علمه، ولم نصل بعد إلى مرفأ شاطئه الكبير، فها نحن وسط البحر حيارى، بانتظار ندوات أخرى على الطريق نفسه، لتكتمل رحلتنا، كما اكتملت رحلات ابن ماجد، كما نضجت وأينعت علماً وثقافة وفناً .

وقبل الختام، نجد أنه من الواجب علينا تكرار الشكر العميق لكم جميعاً، أيها الأصدقاء، يا من تكبدتم مشقة السفر، ومشقة البحث والدرس . كما يجب علينا أن نشكر كل من شجعنا على خوض غمار هذه التجربة، على ارتياد هذا البحر العميق الواسع المكتنز بالأسرار، سواء بالنصح أم بالمؤازرة أم بالإرشاد، ونخص بالذكر في هذا الصدد مركز الدراسات برأس الخيمة، والدائرة الثقافية في الشارقة، وبشكل خاص أمينه العام الدكتور مصطفى عبد القادر النجار، كما نخص بالشكر من

الباحثين الأستاذ ابراهيم خوري، الذي كان من أوائل الباحثين الذين تحمسوا للندوة، وقدموا لنا المعلومات والنصح . كما لا يفوتنا أن نشكر كافة أجهزة الإعلام في دولة الإمارات، المرئية والمسموعة والمقروءة، على ما بذلته من جهد وصبر في متابعة أعمال الندوة ونقل فعالياتها إلى الجمهور الكريم .

وخالص الشكر والامتنان نقدمه نيابة عنكم أيضاً، إلى صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى، حاكم الشارقة على رعايته الكريمة لأعمال هذه الندوة، كما نشكر كذلك حكومة رأس الخيمة على استضافتها للمشاركين في الندوة، واطلاعهم على الأماكن التي عاش فيها ملاحنا الفذ، والتي كانت نقاط انطلاق لرحلاته العظيمة، وفتوحاته الملاحية والجغرافية والعلمية على السواء .

وختاماً، وبعد أن انعقد القول، واكتمل المعنى الذي نريد، لن نقول لكم وداعاً، بل نقول إلى اللقاء، مع توصية، نوصي بها أنفسنا قبل أن نوصيكم بها، وهي ضرورة الاستمرار والبحث والتنقيب عن كل مايتعلق بتراث الرجل وحياته ودوره وعلم، وفاء له، وتخليداً لدوره الكبير، وهي أمانة في أعناقنا ننقلها من بعدنا إلى أجيالنا القادمة .

والسلام عليكم

توصيات الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد
المنعقدة في الشارقة من 9 – 12 كانون الثاني « يناير » 1989

تحت رعاية صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى، حاكم الشارقة .

انعقدت في الشارقة في الفترة ما بين 1 – 4 جمادى الآخرة 1409 هـ الموافق 9 – 12 كانون الثاني « يناير » 1989 الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد، والتي نظمها اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، مبادرة منه في إحياء تراث العلامة العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد .

وقد شارك في هذه الندوة أربعة عشر باحثاً ومؤرخاً من الجمهورية العراقية والجمهورية العربية السورية، وجمهورية اليمن الديمقراطية، وجمهورية مصر العربية، ودولة الإمارات العربية المتحدة، والاتحاد السوفياتي، وبلجيكا . إضافة إلى الأمين العام لإتحاد المؤرخين العرب، وعدد من الأساتذة والباحثين والمهتمين، وقد بلغ عدد البحوث المقدمة في هذه الندوة ثلاثة عشر بحثاً، تناولت عدة محاور عن تراث ابن ماجد، وقد أثرى المشاركون، بمداخلاتهم ومناقشاتهم، هذه البحوث، وقد توزعت على ست جلسات . لقد بذل المنتدون جهداً كبيراً ومتميزاً في أبحاثهم ودراساتهم، إلا أن الإحاطة بكل ما خلفه العلامة العربي أحمد بن ماجد، لا يمكن أن تستوعبه ندوة واحدة، نظراً لغزارة علم ابن ماجد، وتشعب إنجازاته، وتعدد اتجاهاته، فهو فلكي وجغرافي وملاح، وأديب وشاعر، مما يستلزم من اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، ومراكز الدراسات والتوثيق في الإمارات، عقد ندوات أخرى أكثر تخصصاً من هذه الندوة، وفي اتجاهات مختلفة في تراث ابن ماجد .

وقد كان لنجاح الندوة، في مستوى التنظيم والإعداد والبحث والمشاركة، الأثر الطيب، الذي انعكس على أعمالها، وما ساد فيها من روح النقاش العلمي، الأمر الذي أشاد به المشاركون في الندوة، وأثنوا عليه .

وفي ختام أعمال هذه الندوة، يرفع المشاركون التوصيات التالية :

1 ــ التأكيد على أهمية عقد مثل هذه الندوات، للتعريف بوجه المنطقة الحضاري، والكشف عن الإبداعات والثقافات والإنجازات التي هي جزء من الإنجاز الحضاري العربي .

2 ــ ضرورة استمرار اتحاد كتاب وأدباء الإمارات ومراكز الدراسات الأخرى، والجهات الثقافية في الدولة، بعقد ندوات تخصصية أخرى، للكشف عن تراث العلامة العربي أحمد بن ماجد .

3 ــ طباعة كافة الأبحاث والدراسات التي شاركت في الندوة، في مجلد أو مجلدات، مع كافة المناقشات والحوارات لتكون مادة علمية ميسرة للباحثين .

4 ــ إدخال موضوع العلامة العربي أحمد بن ماجد في المناهج الدراسية في الوطن العربي، وفي المرحلتين الإعدادية والثانوية بشكل أساسي . وإرسالها إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس، وكذلك وزارة التربية والتعليم في دولة الإمارات العربية المتحدة . وتفاتح جامعة دولة الإمارات العربية المتحدة، والجامعات العربية الأخرى، بالاهتمام بدراسة تراث وآثار ابن ماجد، ضمن مساقاتها في الدراسات الجامعية بشكل عام .

5 ــ جمع مصطلحات البحارة العرب والبحرية العربية، لتدوينها كما يلفظونها

في الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب، حفاظاً عليها من الضياع والنسيان .

6 ـــ مخاطبة حكومة دولة الإمارات العربية المتحدة للاهتمام بآثار العلامة أحمد بن ماجد وإقامة مركز اتحادي متخصص بمخطوطات وعلوم ابن ماجد، باعتباره أحد الأعلام في تاريخنا الحضاري، وتأسيس لجنة عربية من الباحثين والمؤرخين لدراسة علم البحار، والانتماء إلى اللجنة الدولية للتاريخ البحري التابعة لليونسكو، ومخاطبة الهيئة العامة للبريد بدولة الإمارات، لإصدار طابع بريدي عن ابن ماجد، لمناسبة مرور خمسة قرون على وفاته .

7 ـــ مباركة مبادرة حكومة إمارة رأس الخيمة، المتمثلة بمركز الدراسات والوثائق، بجمع مخطوطات وآثار ابن ماجد، والدراسات العربية والأجنبية التي أعدت حوله، وطباعتها ونشرها، وإقامة نصب تذكاري له في مكان مناسب من إمارة رأس الخيمة، عرفاناً بعلمه وتأثيره الحضاري، وتخليداً لذكراه .

8 ـــ التعاون مع الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، لإيصال هذه التوصيات، ومتابعتها لدى أقسام التاريخ، ومراكز الأبحاث التاريخية في الوطن العربي .

وكذلك إرسالها إلى الأمانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية والتعاون مع مركز الدراسات والوثائق في رأس الخيمة، لمتابعة تنفيذ هذه التوصيات .

9 ـــ يثمن المشاركون في هذه الندوة جهود الباحثين العرب في كشف كثير من الأخطاء التي ارتكبت من قبل المستشرقين، تجاه العلامة العربي أحمد بن

ماجد، وفي هذا الصدد يدعون إلى ضرورة الاستمرار في البحث عن كافة مخطوطات ابن ماجد، وتنقيحها وتحقيقها من قبل الباحثين والعلماء العرب، وتنقيتها من كافة الشوائب التي لحقت بها .

وقد رفع المشاركون شكرهم وتقديرهم لاتحاد كتاب وأدباء الإمارات، لمبادرته في عقد هذه الندوة، وحسن تنظيمها وكرم الضيافة .

كتبت في رأس الخيمة بدولة الإمارات العربية المتحدة في الرابع من شهر جمادى الآخرة عام 1409 هـ الموافق الثاني عشر من كانون الثاني « يناير » 1989 .

فهرس

إصدارات اتحاد كتاب وأدباء الإمارات

*** الإصدارات الشعرية :**

1 ــ قصائد من الإمارات	لعدد من شعراء الإمارات	1986
2 ــ صلاة العيد والتعب	عارف الخاجة	1986
3 ــ شدو الزمن	سلطان خليفة	1988
4 ــ مدية واحدة لا تكفي لذبح عصفور	سيف الرحبي	1988
5 ــ جغرافية الفردوس	جعفر الجمري	1988
6 ــ وردة للوطن وقبلة للحبيبة	عمر أبو سالم	1989
7 ــ هذا هو الساحل.. أين البحر؟	مؤيد الشيباني	1989
8 ــ بحثاً عن النهر	رأفت السويركي	1989
9 ــ علي بن المسك التهامي يفاجئ قاتليه	عارف الخاجة	1989
10 ــ الفالس الأخير في سنتياغو	أرييل دورفمان ترجمة: كامل يوسف حسين	1990
11 ــ آية للصمت	ظاعن شاهين	1990
12 ــ الشيطان وقصائد أخرى	ليرمونتوف ترجمة: رفعت سلام	1991
13 ــ ليجف ريق البحر	ثاني السويدي	1991

*** الإصدارات القصصية والروائية :**

1 ــ كلنا..كلنا..كلنا نحب البحر	لعدد من كتاب الإمارات	1985
2 ــ السمكة الصغيرة	تأليف: صمد بهرنجي	1986

	ترجمة:علي عبد العزيز	
	الشرهان وعمر عدس	
ـ أطفال آخر الزمان	تأليف: عزيز نيسين	1987
	ترجمة: عمر عدس	
ـ الرجل العاشر	تأليف غراهام غرين	1988
	ترجمة: مصطفى كمال	
ـ الأرواح تسكن المدينة	أنور الخطيب	1988
ـ فيروز	مريم جمعة فرج	1988
ـ 12 قصة قصيرة	لعدد من الكتاب	1989
ـ الرحلة العحيبة	تأليف: شوساكو إندو	1989
	ترجمة: فكري بكر	
ـ ميادير	ناصر جبران	1990
ـ الطحلب	إبراهيم مبارك	1990
ـ عندما تدفن النخيل	ناصر الظاهري	1990
ـ طفول	سعاد العريمي	1990
ـ الصمت	خليل قنديل	1991
ـ موعد سري	تأليف: كوبو آبي	
	ترجمة: كامل يوسف حسين	1991

أدباء وكتاب من الإمارات :

ـ سالم بن علي العويس	جمع وإعداد:عبد الإله عبد القادر	1988

2 ـــ سلطان العويس تاجر استهواه الشعر	جمع و إعداد عبد الإله عبد القادر	1988
3 ـــ الشاعر الجامح خلفان بن مصبح	إعداد: شوقي رافع	1990

* دراسات مختلفة :

1 ـــ معجم القوافي والألحان	د. فالح حنظل	1987
2 ـــ أبحاث الملتقى الأول للكتابات القصصية والروائيةفي دولة الإمارات	عبد الحميد أحمد رعد عبد الجليل جواد يوسف خليل	1989
3 ـــ تاريخ الحركة المسرحية في دولة الإمارات 1960 ـــ 1986	عبد الإله عبد القادر	1989
4 ـــ فنجان قهوة	عبد الله عبد الرحمن	1989
5 ـــ الاتفاقيات السياسية والاقتصادية التي عقدت بين إمارات ساحل عُمان وبريطانيا 1806 ـــ 1971 .	علي محمد راشد	1989
6 ـــ غانم غباش ـــ فارس من هذا الزمان		1989
7 ـــ ندوة الأدب في الخليج العربي	الجزء الأول	1990
8 ـــ الصراع حول مضيق هرمز	عبيد طويرش	1990
9 ـــ تحولات اللغة الدارجة	د. علي عبد العزيز الشرهان	1990
10 ـــ كتيب خاص عن الفائزين بجائزة سلطان العويس	(الدورة الأولى)	

1 ـــ أرجوزة تحفة القضاة	نظم: شهاب الدين أحمد بن ماجد، شرح حسن صالح شهاب	1991

1 ـــ ندوة الأدب في الخليج العربي	الجزء الثاني	1991
1 ـــ ندوة الأدب في الخليج العربي	الجزء الثالث	1991
1 ـــ ندوة الأدب في الخليج العربي	الجزء الرابع	1991

تراث وفنون

ـــ الألعاب والألغاز الشعبية في دولة الامارات العربية المتحدة	نجيب الشامي	1991
ـــ الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد	الجزء الأول	1991
ـــ الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد	الجزء الثاني	1991